فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام



د. إبراهيم عوض

القاهرة
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٦م

فصول في
ثقافة العرب قبل الإسلام

فصول في
ثقافة العرب قبل الإسلام

د. إبراهيم عوض

القاهرة

المنار للطباعة والنشر

ت / ٢٩٦٤٨٤٤

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

يتناول الكتاب الذى بين يَدَىِ القارئ بالبحث بعضًا من جوانب الثقافة العربية قبل الإسلام. ولكى تتحدد المفاهيم أودّ أن أوضح بادِئَ ذى بَدْءٍ أنى أستعمل مصطلح "الثقافة" بمعنى النشاط الإنسانى المعنوى وما يتمثل فيه هذا النشاط من لغةٍ ودينٍ وفكرٍ وأدبٍ وفنٍّ وقِيَمٍ وسلوكٍ وعاداتٍ وتقاليدَ وقوانينَ ونظمٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ وتربويةٍ...إلخ. والثقافة، كما أفهمها، هى جزء من "الحضارة"، وهذه تشمل عندى "المدنية" و"الثقافة" جميعا، أى النشاط الإنسانى فى جانبيه الاثنين: الجانب المادى، والجانب المعنوى. صحيح أن هناك من العلماء من يضع "الثقافة" فى مقابل "الحضارة"، ومنهم من يقسّم "الثقافة" إلى "ثقافة معنوية" و"ثقافة مادية"، مما يجعلها ترادف "الحضارة" كما آخذ بتعريفها، ومنهم...، ومنهم... حتى لقد ذكرت تشارلت سيمور سميث فى معجمها: "Dictionary of Anthropology" (ضمن ما كتبته تحت عنوان "Culture") أن اثنين من الباحثين فى هذا المجال قد استطاعا أن يرصدا عام ١٩٥٢م، أى قبل أكثر من نصف قرن، نحوًا من ٣٠٠ تعريف لذلك المصطلح، إلا أن لكل دارسٍ مع ذلك الحقَّ فى أن يأخذ بالمعنى الذى يقتنع به

ويرتاح عقله إليه. والمهم أن يحدد مصطلحاته حتى لا تفترق بينه وبين قرائه السُّبُل.

ويطلق الباحثون على تاريخ العرب قبل الإسلام كلمة "الجاهلية"، وهذا المصطلح يحتاج هو أيضا إلى تحديد. وقد تناول مثلا د. شوقى ضيف فى أول الفصل الثانى من كتابه: "العصر الجاهلى" هذا الاسم قائلا إن "الجاهلية" ليست مشتقة من "الجهل" الذى هو ضد "العلم"، بل من "الجهل" الذى هو ضد "الحِلْم". أى أن الجاهلية عنده لا تعنى عدم المعرفة، بل تعنى السفه والغضب والنزق. ثم راح يستشهد على تفسيره هذا ببعض أمثلة من القرآن والحديث والشعر الجاهلى وَرَدَتْ فيها كلها كلمة "الجهل" بذلك المعنى. وكل هذا جميل وعلى العين والرأس، إلا أنا نستطيع أيضا أن نجد فى القرآن والحديث والشعر الجاهلى شواهد أخرى ورد فيها "الجهل" بمعنى عدم العلم، كقوله سبحانه عن الفقراء المتعففين الذين لا يمدون أيديهم بالسؤال فيظنهم من يجهل أحوالهم أنهم أغنياء: "يحسبهم الجاهلُ أغنياءَ من التعفُّف. تعرفهم بسيماهم"، وقوله جل شأنه: "يا أيها الذين آمنوا، إن جاءكم فاسقٌ بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"، وقوله عليه السلام: "إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل ويُرْفَع فيها العلم ويكثر فيها الهرج. والهرج القتل"، "ألا إن ربي أمرني

أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمني"، "إن الله لا يترع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون"، "إن القرآن لم يترل يكذّب بعضه بعضا، بل يصدّق بعضه بعضه، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه"، وكذلك الأبيات التالية للنابغة الذبيانى وعَبِيد بن الأبرص وعَدِىّ بن زيد وعنترة والسَّمَوْأل وتأبّطَ شَرًّا على الترتيب:

يُنبئْكِ ذو عِرْضِهِم عَنّي وَعالمهم ... وَلَيسَ جاهِلُ شَيْءٍ مِثلَ مَن عَلِما

***

يا أَيُّها السائِلُ عَن مَجْدِنا ... إِنَّكَ عَن مَسعاتِنا جاهِلُ

***

أم لَدَيكَ العَهدُ الوَثيقُ مِنَ الأيـ ... ـامِ؟ بَل أنتَ جاهِلٌ مَغرورُ

***

هَلاَّ سَأَلتِ الخَيْلَ يا ابنةَ مالِكٍ ... إِن كُنتِ جاهِلَةً بِما لم تَعلَمي

***

سَلِي، إن جَهِلْتِ، الناسَ عَنّا وعنهمو ... فَلَيسَ سَواءً عالِمٌ وَجَهُولُ

***

بِها الرَّكبُ أَيما يَمَّمَ الرَّكْبُ يَمَّموا ... وَإِن لَم تَلُحْ فَالقَومُ بِالسَّيرِ جُهَّلُ

... إلخ. لكن ذلك لن يحل المشكلة، إذ المعروف أن مصطلح "الجاهلية" إنما ظهر بعد مجيء الإسلام، وكان القرآن

الكريم والرسول أول من استعمله. والمفهوم أن الجاهلية تُناقض الإسلام فى كل شىء تقريبا بما فى ذلك الحِلْم والعِلْم. أى أن المسألة لا تقف عند مخالفة الجاهلية للدين الجديد فى قيمتى الحِلْم والعلم، بل تشمل سائر القيم الإنسانية والاجتماعية والخلقية. وعلى ذلك فالجاهلية لا تقتصر على الجهل أيا كان معناه، بل تعنى كل ما أتى الإسلام لمحوه، سواء كان جهلا أو طيشا أو كسلا أو سُكْرا أو زنى أو ظلما أو تجبرا أو ذلة أو نفاقا أو خيانة أو احتكارا أو اغتصابا أو إسرافا أو يأسا أو حسدا أو قذارة أو فوضى أو قبحا أو كفرا أو شركا أو عصبية قبلية أو قومية... إلخ. وغير خافٍ أن المعنى اللغوى لأية كلمة لا يتطابق مع معناها الاصطلاحى، بل يكون أوسع منه أو أضيق، بل قد يختلف عنه اختلافا كبيرا. وربما أراد د. شوقى ضيف أن ينفى الجهل عن العرب قبل الإسلام ردًّا على من يحاولون التطرق من ذلك إلى الإساءة للعروبة نفسها، إلا أن الواقع التاريخى يؤكد فعلا أن معارفهم كانت قليلة ولا تعدو أن تكون شظايا متفرقة يمازجها الأوهام والخرافات ولا تقوم على منهج، كما أنهم لم يكونوا يعرفون المدارس والمعاهد، بل كانوا يتشربون معارفهم أثناء حياتهم اليومية تشربا عمليا، إذ كانت تغلب عليهم الأمية. ومن هنا كانت عظمة الإسلام، الذى حول تلك الأمة من حال إلى حال وجعل من أبنائها فى

غضون سنوات قلائلَ سادةً وقادةً للعالم فى كل ميادين الحياة! إلا أن هذه مسألة أخرى.

ويشتمل هذا الكتاب على فصول سبعة فى ثقافة العرب أيام جاهليتهم: أولها عن الشعر الجاهلى، الذى وضعتُه فى صدارة الكتاب نزولا على ما هو معروف من أن فن الشعر كان يحتل لدى عرب الجاهلية، بل فى التراث العربى عموما، المقام الأعلى بين مفردات الثقافة المختلفة. وقد بحثت فى هذا الفصل عددا من القضايا الهامة المتصلة بذلك الموضوع كأولية الشعر العربى وما قيل عن النحل والانتحال وبناء القصيدة فى شعر الجاهليين، وأعدت النظر فى كل ذلك من جديد. وفى الفصل الثانى تناولت موضوع القَصَص المنسوب إلى العصر الجاهلى وتساءلت كما تساءل من سبقونى إلى طَرْق هذا الأمر: إلى أى مدى يمكن أن نَعُدّ ذلك القَصَص نثرا جاهليا؟ كما وقفت أمام بعض نصوصه وحللتها تحليلا مضمونيا وأدبيا مبرزا ما فيها من لمحات المتعة والإبداع. أما الفصل الثالث فخاصٌّ بالأمثال الجاهلية، وقد عالجتها فيه معالجة لغوية واجتماعية، مع التعرض هنا أيضا لبحث المدى الذى يمكن أن نثق فيه بتلك الأمثال، وهل قيلت فعلا فى ذلك العصر أَوْ لا؟ كما يتناول الفصل الرابع ما يسمَّى فى تاريخ الأدب العربى بـ"سجع الكُهّان"، أى الأقوال التى كان الكهّان العرب قبل الإسلام

يتلفظون بها إذا ما جاء أحد لاستشارتهم فى رُؤْيَا رآها وأراد تعبيرها، أو خصومةٍ يبغى وَضْع حَدٍّ لها، أو منافسةٍ بينه وبين شخص آخر حول مفاخرهما الفردية والقبلية يراد حسمها... إلخ. وهى أقوال كان أولئك الكهان يتعمَّدون أن تكون مسجوعة تستهوى الأذن وتشغلها بما فيها من توقيع موسيقى، وأن تكون كذلك غامضة تقبل أكثر من معنى، وإن كنتُ قد شكَكْتُ فى كثير منها لأسبابٍ ارتأيتها حسبما سيرى القراء فى حينه. وخامس تلك الفصول قد خُصِّص لموضوع الخطابة الجاهلية ونصوص الخُطَب التى وصلتنا منسوبة إلى عصر ما قبل الإسلام والمقاييس التى يمكن التعويل عليها فى فرز صحيحها من زائفها. أما فى الفصل السادس فقد حاولت أن أرسم صورة للأوضاع المختلفة لحياة العرب فى الجاهلية كما يمكن استخلاصها من آيات القرآن الكريم مع الاستعانة بتفاسيره وكتب أسباب نزوله. ولا ريب أن القرآن هو المصدر الذى لا يمكن أن يتطرق إليه الشك فى الكلام عن الجاهليين وحياتهم. ويبقى الفصل السابع والأخير، وهو يضم عددا من الموضوعات تتعلق بأنساب العرب وقبائلهم وأحلافهم ودياناتهم ونيرانهم وأيامهم وأسواقهم ومعارفهم وعلومهم، وقد استقيت خلاصتها من بعض المؤلفات التى تتعرض لتلك المسائل كـ"الإكليل" للهمدانى، و"الأغانى" للأصفهانى، و"تاريخ مكة"

للأزرقى، و"نهاية الأَرَب" للنويرى، و"صبح الأعشى" للقلقشندى، و"التصوير عند العرب" لأحمد باشا تيمور، و"تاريخ آداب اللغة العربية" لجرجى زيدان، و"المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" للدكتور جواد على... إلخ. وهو فصل شديد الأهمية نظرًا لما يشتمل عليه من معلوماتٍ جِدِّ شائقةٍ ومفيدة.

وغنىٌّ عن القول أننى قد رجعت فى هذا الكتاب إلى ما استطعتُ الرجوع إليه من المؤلفات التى سبقنى أصحابها إلى معالجة ما تناولتُه هنا من قضايا، وناقشتُ ما جاء فيها وقلّبته على وجوهه المختلفة حتى انتهيت إلى الرأى الذى اطمأننت إليه. وحاولت أثناء ذلك أن أضيف شيئا جديدا حتى لو كان هذا الجديد هو الزاويةَ التى أنظر منها إلى القضية رَهْن المعالجة، أو النكهةَ التى أعرضها بها. ويسرنى الآن أن أضع هذه الفصول بين يَدَىِ القارئ الكريم راجيًا من الله تعالى أن تكون ذات نفع للباحثين فى ثقافة العرب قبل الإسلام من عرب ومستعربين وأن تسد ثُغْرة فى دراسة تلك الثقافة وما تتفرع إليه من فنون قولية وأوضاع اجتماعية وقيم أخلاقية وطقوس دينية وأنشطة اقتصادية. وقد عملتُ على ضبط أكبر عدد ممكن من الألفاظ فى تلك الفصول على عادتى فيما أؤلف من كتب وأبحاث منذ فترة طويلة حرصًا منى على تقديم نصّ يسهل على القارئ

مطالعته بأقل قدر من الأخطاء النطقية، وهـو مـا أرهقـنى جـدا كما يعرف كل من يعـالج الـرَّقْم علـى الكَـاتُوب. وأحـب أن أَلْفِت نظر القراء الكرام إلى أن الياء النهائيـة فى كلمـات الكتـاب الذى بين يَدَىِ القارئ لم تَجْرِ علـى وتـيرة واحـدة، بـل كُتِبَـتْ بطريقتين مختلفتين: فما كتبتُه بنفسـى مـن كـلام لم أضـع تحـت ياءاته المتطرفة نقطتين اتباعًا للنهج المصرى فى هـذا السـبيل، أمـا ما كان موضوعًا تحت هذا الضَّـرْب مـن ياءاتـه نقطتـان فهـو منسوخ من النصوص الموجـودة علـى المشـباك، ولـيس الأمـر فوضى كما قد يسبق إلى ظن بعض القراء. ولعـل مـا سيُكْتَشَـف من أخطاء فى هذا الكتاب لا يكون من الكثـرة ولا مـن الخطـورة بحيث يُزْرِى بى وبما أكتـب لـدى القـراء والدارسـين، والله ولى التوفيق!

الشعر

يقف الشعر على رأس قائمة الثقافة الجاهلية كما هو معروف، ولهذا نذكره أول شيء من تلك الثقافة. وفى هذا الفصل نناقش بعض القضايا المتصلة به تمحيصا لما تَعجّ به الساحة الأدبية من آراء فى ذلك الموضوع، وأُولَى تلك القضايا عُمْر هذا الشعر الجاهلى. يقول الجاحظ فى كتابه: "الحيوان": "وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد صغيرُ السِّن، أوّلُ من نَهَجَ سبيلَه وسهَّل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومُهَلْهِل بنُ ربيعة، وكُتُبُ أرِسطاطاليسَ ومعلِّمه أفلاطون، ثم بَطْلَيموس وديمقراطس وفلان وفلان قبلَ بدءِ الشعر بالدهور قبلَ الدهور، والأحقاب قبلَ الأحقاب. ويدلّ على حداثةِ الشعر قولُ امرئ القيس بن حُجْر:

إنّ بني عوفٍ ابتَنَوا حسنًا ... ضيّعه الدُّخْلُلون إذ غَدَرُوا
أدَّوْا إلى جارهم خِفارته ... ولم يَضِعْ بالمَغيب مَنْ نَصَرُوا
لا حِمْيَريٌّ وَفَى ولا عُدَسٌ ... ولا استُ عَيْرٍ يحكّها الثَّفَرُ
لكنْ عُوَيْرٌ وَفَى بذمَّته ... لا قِصَرٌ عابَهُ ولا عَوَرُ

فانظُرْ كم كان عمرُ زُرارةَ، وكم كان بين موت زُرارة ومولدِ النبي عليه الصلاة والسلام. فإذا استظهرنا الشعرَ وجدنا له إلى أن جاء اللّه بالإسلام خمسين ومائةَ عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام".

وقد ترددت هذه المقولة فى خطها العام لَدُنْ مؤرخى الشعر الجاهلى ودارسيه، إذ يَرَوْن أن الشعر الجاهلى الذى يمكن الاطمئنان له إنما يبدأ من ذلك التاريخ الذى ذكره الجاحظ (انظر مثلا نيلدكه/ من تاريخ ونقد الشعر القديم/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى"/ ط٢/ دار العلم للملايين/ ١٩٨٦م/ ١٩، وكارل بروكلمان/ تاريخ الأدب العربى/ ١/ ترجمة د. عبد الحليم النجار/ ط٤/ دار المعارف/ ١٩٧٧م/ ٥٥، وأحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى/ الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه/ ط٤/ مطبعة المعارف ومكتبتها/ ١٣٤٢هـ- ١٩٢٤م/ ٤٤- ٤٥، وريجى بلاشير/ التأثيرات الوراثية والمشاكل التى تضعها رواية الشعر العتيق/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى"/ ٢٨٣، ود. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ط٧/ دار المعارف/ ١٩٧٦م/ ٣٨- ٣٩، ود. عبد العزيز نبوى/ دراسات فى الأدب الجاهلى/ ط٣/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ١٩٩٩م/ ١٢- ١٣)، وإن كان أرنولد نيكلسون المستشرق البريطانى المعروف يترل بهذا التاريخ إلى مدى قرن واحد فقط أو أكثر قليلا بدءا من عام ٥٠٠م تقريبا (**Reynold A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge,**

1969, P.71). والواقع أن الجاحظ، مع احترامى الشديد له وإعجابى البالغ به وبفكره وأسلوبه وشخصيته كلها، لم يقدم دليلا على هذا الذى قال، إذ كيف يمكن الاقتناع بأن الذى مهد السبيل للشعر هو امرؤ القيس والمهلهل بما يعنى أنهما أول من قال الشعر من العرب وأن شعرهما من ثم يتسم بما يتسم به أول كل شىء من البدائية وقلة الفن والسذاجة بالنسبة لما جاء بعده، على حين أن ما خلّفه لنا المَلِك الضِّلّيل من شعرٍ، سواء من ناحية المقدار أو من ناحية القيمة الفنية حتى لقد جعلوه أميرا للشعراء الجاهليين، يكذّب ذلك تكذيبا شديدا؟

ولقد لفتت هذه المسألة أنظار الباحثين فأَبْدَوْا استغرابهم أن يكون الشعر الجاهلى بما فيه من فن متقدم وليد تلك المدة القصيرة التى يحددها الجاحظ بمائة وخمسين عاما أو مائتين فقط قبل الإسلام. يقول مثلا أحمد حسن الزيات: "وليس يسوغ فى العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة فى شعر المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس، وإنما اختلفت عليه العُصُر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى هذّب أسلوبه وتشعبت مناحيه" (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ ط٢٤/ دار نهضة مصر/ ٢٨). ويقول أيضا حنا الفاخورى: "وأقدم شعرٍ وصل إلينا كان ما قيل فى حرب البسوس أو قبل ذلك قليلا، وكان قصائد كاملة تدل على

محاولات كثيرة سبقتها وهيأت طريقها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من استقامة الوزن واللغة والبيان" (حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى/ دون دار نشر أو تاريخ/ ٥٢). ومثلهما فى ذلك د. عبد العزيز نبوى، الذى يقرر أن "الشعر الجاهلى، منذ أقدم نصوصه التى وصلت إلينا، قد اكتملت له أو كادت مقوماته الفنية بدءا من طرائق التعبير، وانتهاء بالموسيقى من وزن وتقفية. وهذا يعنى أنه مرت حِقَبٌ طويلة قبل أن يستقر للشعر الجاهلى سماته وخصائصه" (د. عبد العزيز نبوى/ دراسات فى الأدب الجاهلى/ ١٢) ...إلخ. ويؤكد تشارلز ليال أن "تعدد البحور التى كان يستعملها الشعراء الجاهليون وتعقدها، وكذلك القواعد الراسخة التى تتعلق بالوزن والقافية، فضلا عن الأسلوب الواحد الذى كانوا ينتهجونه فى بناء قصائدهم رغم المسافات التى تفصل كلا منهم عن الآخر، كل ذلك يشير إلى دراسةٍ وممارسةٍ طويلةٍ سابقةٍ لفن الشعر وإمكانات اللسان العربى، وإن لم يكن بين يدينا سجل لشىء من هذا" (C. J. Lyall, Translations of Ancient Arabian Poetry, London, 1885, P.xvi)، وهو ما يوافقه عليه رينولد نيكلسون (A Literary History of the Arabs, P.75-76). وبالمثل يقرر إجناطيوس جويدى فى كتابه: "L'Arabie Antéislamique" أن القصائد الجاهلية

الرائعة التى وصلتنا عن القرن السادس الميلادى تشير إلى أن وراءها صنعة طويلة (I. Guidi, L'Arabie Antéislamique, Paris, 1921, P.21). ويعلل كليمان هوار اختفاء الشعر السابق على ذلك التاريخ بأن الذكريات البشرية، ما لم يتم حفظها كتابة على الجدران أو الحجارة أو الأوراق، فإنها حَرِيّةٌ أن تضيع مع الأيام. ومن ثم يضيف قائلا إن الشعر العربى الذى وصلنا لا يرجع إلى أبعد من القرن السادس الميلادى عندما استُعْمِلت الألفباء النبطية فى تسجيل ذلك الشعر (Clément Huart, A History of Arabic Literature, William Heinmann, London, 1903, P.7). ثم إن كلام الجاحظ عن زرارة والمسافة الزمنية التى تفصله عن الرسول عليه السلام لا علاقة له بهذا الذى نحن فيه، فضلا عن أن الأبيات التى استشهد بها عميد الكتاب العرب القدماء لا تتضمن شيئا مما يشير إليه.

وفوق ذلك فلست أستطيع أن أجد مناسبة بين كلامه فى هذا السياق عن امرئ القيس والمهلهل من جهة وكلامه عن فلاسفة اليونان من جهة أخرى، وإن كان عبد الفتاح كيليطو قد تصور أن الجاحظ إنما يوازن بين الشعر والفلسفة مُعْلِيًا من شأن الأخيرة، جاعلاً إياها كالشيخ المجرب الطويل العمر، أما الشعر فصَبِيٌّ نَزِقٌ لم تَعْرُكه الحياة بعدُ لأن عمره لا يزال

قصيرا. وهذه هى عبارته: "لا جدال أن هذا المتكلم يقدم الفلسفة على الشعر، ليس في الزمن فحسب، وإنما في القيمة أيضا. فكأن الأسبقيةً الزمنية تمنح الفلسفة جدارة ومزيّة واستحقاقا، بينما تأخُّر ظهور الشعر علامةٌ على طفولته وسذاجته وعدم نضجه. الفلسفة كالشيخ الذي جرب الأمور واستفاد من عمره الطويل، بينما الشعر كالصبي الطائش النَّزِق الذي لا يُؤْبَه لكلامه ولا يُعْتَمَد عليه ولا يُعْتَدّ به" (عبد الفتاح كيليطو/ بين الفلسفة والشعر/ موقع "lycos"). لكن التركيب النحوى فى كلام الجاحظ لا يساعد على تفسير العبارة على هذا النحو، وإلا لجاء هكذا مثلا: "أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه: امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة. وأما كُتُب أرسطاطاليس ومعلمه أفلاطون، ثم بطليموس وديموقراطس وفلان وفلان، فموجودة قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور، والأحقاب قبل الأحقاب"، وبذلك تكون هناك مقارنة بين الشعر والفلسفة، علاوة على أن تركيب جملة الجاحظ، فيما لو أبقيناها رغم ذلك كما هى، ينقصه خبر المبتدإ، وهو كلمة "موجودة" أو ما يشبهها، اللهم إلا إذا كان الجاحظ قد قصد أنه قبل الشعر كانت هناك كتب فى فلسفة الشعر مهدت الطريق إليه. لكن لا بد أن نفترض فى هذه الحالة أنه قد سها

فاستطرد قافزًا من الكلام عن الشعر الجاهلى إلى الكلام عن الشعر عموما، لأنه لا صلة، كما نعرف، بين شعر الجاهليين وفلسفة الإغريق. وعندئذ يكون قول الجاحظ: "وكتب أرسطاطاليس..." معطوفا على قوله: "امرؤ القيس بن حُجْر والمهلهل بن ربيعة"، وهو ما قد يرشح له ورودُ "كتب أرسطوطاليس" بعد فاصلة، لا بعد نقطة كما كتبها كيليطو.

وعلى أية حال فهناك أشعار تُرْوَى عن أزمان أبعد كثيرا من تلك المدة التى حددها الجاحظ كتلك التى تنسب لعاد وثمود مثلا. صحيح أن ابن سلام قد نفى أن تكون مثل تلك الأشعار حقيقية، إلا أن الحجة التى استند إليها فى ذلك النفى ليست بالحاسمة. ذلك أنه اعتمد فيها على ما جاء فى القرآن الكريم عن أولئك القوم من أنهم لم تبق منهم باقية، وهو ما أدى به إلى التساؤل قائلا إنه إذا كانت عاد وثمود قد استؤصلتا كما جاء فى القرآن، فمن الذى أدى لنا تلك الأشعار يا ترى؟ لكن فاته أنْ ليس شرطا أن يؤدى لنا أشعارَهم أحدٌ منهم بالذات، إذ من الممكن جدا أن يكون غيرهم من العرب ممن كان يحفظ تلك الأشعار هو الذى أداها لنا، أو أن تكون قد كُتِبَتْ ثم وصلتنا عَبْرَ من وقعت فى أيديهم تلك الكتابات، ثم ضاعت هذه الكتابات فيما بعد. ولست أقصد بذلك أن هذه الأشعار وأشباهها صحيحة بالضرورة، بل كل ما أريد أن

أوضحه هو أن الحجة التى ساقها ابن سلام، على جلالة قدره، لا تستطيع أن تحسم المسألة، وبخاصة أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون الثموديون قد قالوا شعرا ولا أن يكون ذلك الشعر قد بقى تلك المدة التى تفصل بينهم وبين الإسلام، إذ هى ليست بالمدة الطويلة، فها نحن أولاء ما زلنا نهتم بأشعار الجاهلية التى يُقِرّ بها الباحثون، ونقرؤها وندرسها ونحفظ كثيرا من نصوصها رغم انصرام كل هاتيك القرون التى تبلغ الألف والستمائة من السنين. ومثلهم فى ذلك تلك الأممُ التى اختفت من مسرح التاريخ واختفت معها لغاتها فلم يعد يعرفها إلا المتخصصون القليلون، والتى نعرف مع ذلك عن تراثها وآدابها وأفكارها وعقائدها الشيء الكثير، كما هو الحال مع الأكاديين مثلا من التاريخ القديم، والهنود الحمر من تاريخنا الحديث. وعلى الوجه الآخر قد يكون تراث أمة من الأمم مَصُونًا مُتَاحًا بين أيدى أخلافها، لكنهم لا يعرفون عنه شيئا كما كان وضع الحضارة المصرية الفرعونية مثلا بالنسبة لنا نحن المصريين قبل الحملة الفرنسية وقبل فك حجر رشيد، الذى كان بمثابة كلمة "افتح يا سمسم" لكنوز على بابا.

ولقد كانت اللهجة الثمودية تجرى على القواعد التى نعرفها فى الفصحى فى اشتقاقاتها وأزمنة أفعالها ووجود صِيَغ التثنية وأسماء الإشارة والضمائر وحروف الجر والعطف فيها،

وإن كانت أداة التعريف عندهم هى "الهـاء" بـدلا مـن "أل" (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ١١٢) مما يمكـن أن يفسَّـر علـى أنه مظهرٌ لَهْجِىٌ يختفى عند نظم الشعر مـثلا، فلمـاذا نُحيـل إذن أن يكون الثموديون قد قالوا شـعرا، أو أن يكـون شـعرهم قـد بقى حتى وصل بعض منه أهل الجاهليـة القـريبين مـن الإسـلام؟ أما قول د. جواد علـى، تحـت عنـوان "العربيـة الفصـحى" فى الفصل التاسع والثلاثين بعد المائة من كتابـه: "المفصَّـل فى تـاريخ العرب قبل الإسلام"، إن النصوص التى وصـلتنا عـن الثمـوديين تختلف عن العربية التى نعرفها، فمـن الممكـن، لـو صـحّ هـذا الكلام وكان شيئا مطّرِدا فى اللغة كلها، الـرد عليـه بـأن هـذه النصوص ليست نصوصا أدبية وأنه كـان مـن عـادتهم تخصـيص اللغةِ التى نسميها الآن بـ"الفصـحى" للإبـداع الأدبى فقـط، وتخصيص اللهجاتِ القبلية لما عدا ذلـك حـتى لـو كـان شـيئا مكتوبا. الواقع أنه لا يوجد عقلا ولا نقلا مـا يُحِيـل هـذا. وأمـا اعتراض الدكتور طه حسين مـثلا علـى الرائيـة الـتى ينسـبها صاحب "الأغانى" لأحد أصهار إسماعيل مـن العـرب بحجـة أنهـا مكتوبة بلغة لينة مفهومـة الألفـاظ مسـتقيمة القواعـد النحويـة والصرفية والعروضية كلغة العرب أيام الـنبى عليـه السـلام بمـا يفيد أن اللغة العربية قد ظلت كـل ذلـك الـزمن الطويـل دون تطـوير (فى الأدب الجـاهلى/ دار المعـارف/ ١٩٦٤م/ ١٨٢-

١٨٣، وبالمناسبة فعبارة "عليه السلام" هـذه فمـن عنـدى، إذ لم يحدث مرة أن صلى الدكتور طه على الـنبى فى ذلـك الكتـاب!)، فيمكن الجواب عليه بأننا لا نزال حتى الآن، ورغـم مـرور زمـن أكبر من الزمن الذى يفصل بين إسماعيـل والجاهليـة القريبـة مـن الإسلام، نفهم كثيرا من الشـعر الجـاهلى مـع اخـتلاف حياتنـا الآن عن الحياة آنذاك أكثر ممـا كانـت مختلفـة بـين العصـرين المذكورين، وبخاصة أن موضوع القصيدة المشـار إليهـا موضـوع إنسانى بسيط لا يتعلق بوصف الحصان ولا الناقـة ومـا إلى ذلـك مما يكثر فيه الغريب بالنسبة لنا لأن حياتنـا الآن تخلـو مـن الناقـة والحصان ولا نعرف أسماء أعضائهما ولا وجـوه الحسـن والسـوء فيها كما كان يعرفهـا الجـاهليون، بـل يتعلـق بحِـدْثان الـدهر وتقلبات الأيام وحتمية المـوت وعجـز البشـر عـن الوقـوف فى وجه تصاريف القدر مما يخلو عادة من حُوشِـىّ الألفـاظ ولا يجـد القارئ صـعوبة فى فهمـه. كمـا أن قواعـد النحـو والصـرف والعروض ما زالت باقيـة كمـا تركهـا لنـا الجـاهليون رغـم اختلاف ظروف حياتنا تماما عن حياتهم. ومـع هـذا فـلا بـد أن أسارع إلى التوضيح بأنى لا أقـول بالضـرورة إن تلـك القصـيدة صحيحة فعلا، إذ يحتاج الأمر إلى دراسـة أوسـع وأعمـق وأكثـر أناة مما فعل طه حسين المتسـرع دون سـبب وجيـه إلى الـرفض والإنكـار، لا لشـىء إلا لأن المستشـرق البريطـانى مرجليـوث

(كما سنوضح لاحقا) قد شاعت له حماقته وعصبيته على العرب والإسلام من قبله أن يحمل على الشعر الجاهلى كله لينسفه نسفا فجاء طه حسين فنسج على منواله وأنكر الشعر الجاهلى بدوره: كُلّه أو جُلّه! وقد ننتهى بعد هذا إلى قبول القصيدة كلها أو بعضها أو إلى رفضها جملةً أو إلى التوقف بشأنها.

وعلى أية حال فهذا نص ما قاله ابن سلام فى كتابه: "طبقات فحول الشعراء" فى سياق هجومه على ابن إسحاق صاحب سيرة النبى عليه السلام: "وكان ممن أفسد الشعر وهجَّنه وحمل كل غُثَاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مَخْرَمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر. قال الزهري: لا يزال في الناس عِلْمٌ ما بَقِيَ مَوْلَى آل مَخْرَمة. وكان أكثر علمه بالمغازي والسِّيَر وغير ذلك فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر. أُتِينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السِّيَر أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر. إنما هو كلامٌ مؤلَّفٌ معقودٌ بقوافٍ. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف السنين، والله تبارك وتعالى يقول: "فقُطِع دابر

القوم الذين ظلموا" (سورة الأنعام/ ٤٥) أي لا بقية لهم، وقال أيضا: "وأنه أهلك عادا الأولى* وثمودَ فما أبقى" (سورة النجم/ ٥٠- ٥١)، وقال في عاد "فهل ترى لهم مِنْ باقية؟" (سورة الحاقة/ ٨)، وقال: "ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم، لا يعلمهم إلا الله؟" (سورة إبراهيم/ ٩)؟ وقال يونس بن حبيب: أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه: إسماعيلُ بن إبراهيم صلوات الله عليهما. أخبرني مسمع بن عبد الملك أنه سمع محمد بن علي يقول: قال أبو عبد الله بن سلام، لا أدري أرفعه أم لا، وأظنه قد رفعه: أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه: إسماعيلُ ابن إبراهيم صلوات الله عليهما. وأخبرني يونس عن أبي عمرو بن العلاء، قال: العرب كلها وَلَدُ إسماعيل إلا حِمْيَر وبقايا جُرْهُم. وكذلك يُرْوَى أن إسماعيل بن إبراهيم جاورهم وأصهر إليهم. ولكن العربية التي عَنَى محمدُ بن عليٍّ اللسانُ الذي نزل به القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا. لم يجاوز أبناءُ نزار في أنسابهم وأشعارهم عدنانَ، اقتصروا على مَعَدّ. ولم يذكر عدنانَ جاهليٌّ قط غير لبيد بن ربيعة الكلابي في بيت واحد قاله. قال:

فإن لم تجد من دون عدنان والدًا ... ودون مَعَدٍّ فلْتَزَعْكَ العواذلُ

وقد رُوِيَ لعباس بن مِرْداس السُّلَميّ بيتٌ في عدنان قال:

وعَكّ بن عدنانَ الذين تلعّبوا   بمَذْحِجَ حتى طُرِّدوا كل مَطْرَدِ

والبيت مُرِيب عند أبي عبد الله، فما فوق عدنان أسماء لم تؤخذ إلا عن الكتب، والله أعلم بها، لم يذكرها عربي قط. وإنما كان مَعَدٌّ بإزاء موسى بن عمران صلى الله عليه أو قبله قليلا، وبين موسى وعاد وثمود الدهر الطويل والأمد البعيد. فنحن لا نُقيم في النسب ما فوق عدنان، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعرًا، فكيف بعاد وثمود؟".

وواضح أن ابن سلام يظن أن عادا وثمود كانتا قبل زمنه بآلاف السنين وأنه لم يبق منهما شيء. لكن ثمود لم يكن يفصل بينها وبين الإسلام فى الواقع أكثر من ألف سنة أو أقل، إذ يعود تاريخ الثموديين إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون، واستمروا بعده فترة، وكانوا يسكنون مدائن صالح وما حولها، وجاء فى القرآن الكريم أنهم قد أخذتهم الرجفة، إلا أنهم رغم هذا قد خلّفوا لنا كثيرا من النقوش فى بلادهم وخارج بلادهم (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ٣٣، ١١١)، مما يدل على أن فهم ابن سلام للآية الكريمة الخاصة باستئصالهم لم يكن فهما سليما. كذلك فاللغة التى كتبوا بها نقوشهم لا تختلف عن العربية الفصحى كما نعرفها، اللهم إلا فيما لا يقدم أو يؤخر

حسبما رأينا. كما أن ثمود على الأقل تتلو تاريخيا إسماعيل بن إبراهيم ولا تتقدمه كما سبق إلى وهم عالمنا الجليل، إذ إن إبراهيم وإسماعيل إنما سبقا ميلاد السيد المسيح بأزمان طوال، وليس بقرون قليلة كما هو الحال مع ثمود حسبما عرفنا قبل قليل، فضلا عن أنه لا يوجد فارق زمنى يُذْكَر بين ثمود وموسى عليه السلام حسبما يقول ابن سلام، فقد قرأنا آنفًا أن ثمود سبقت عيسى عليه السلام بعدة قرون، وهو ما يصدق على سيدنا موسى أيضا. كذلك فإسماعيل لا يمكن أن يكون هو أول من تكلم العربية طبقا لما يقوله ابن سلام، الذى يضيف مع ذلك أنه عليه السلام قد نسى لغته الأولى لصالح لغة الضاد، إذ السؤال هو: وكيف ينسى ذلك النبى الكريم لغته ويتخذ لغة أخرى إلا إذا كانت هذه اللغة الأخرى لها وجود آنذاك، وهو ما يعنى أنها سابقة على نسيانه للغته؟ وهذه اللغة هى لغة زوجته العربية. أى أن اللسان العربى كان موجودا فى ذلك الحين، ولم يكن إسماعيل أول من تكلم به كما قال ابن سلام، فالفرد (أىّ فرد) لا يمكنه استحداث لغة لم تكن، لأن اللغة تحتاج إلى أزمان وأزمان، وهى تنمو وتتطور وتتسع وتتعقد بالتدريج لا دفعة واحدة كما يوحى كلام ابن سلام رحمه الله.

وعلاوة على ذلك فقد ورد اسم عدنان عند شعراءَ آخرين غير الشاعرين اللذيْن ذكرهما عالمنا الجليل واللذيْن

تابعه فيما قاله عنهما د. جـواد علـى فى أول الفصـل الأربعـين بعد المائة (بعنوان "اللسـان العـربى") مـن كتابـه: "المفصَّـل فى تاريخ العرب قبل الإسلام". ومن هـؤلاء الشـعراء المهلـهل بـن ربيعة وليلى العفيفة وأميّة بن أبي الصـلت، الـذين يقولـون علـى التوالى:

يَـومٌ لَنـا كانَت رِئاسَةُ أَهـلِهِ　　　دونَ القَبـائِلِ مِن بَني عَدنـانِ

***

يا بَني الأَعمـاصِ إِمّا تَقطَعوا　　　لِبَني عَدنـانَ أَسبـابَ الرَّجا

....

قُل لِعَدنـان: فُدِيتُـم! شَمِّروا　　　لِبَني الأَعجـامِ تَشميـرَ الوَحَى

***

نَفَـوْا عن أَرْضِهِمْ عدْنانَ طُرًّا　　　وكانـوا للقبـائل قاهِرِينـا

وفى "مجمع الأمثال" للميدانى بيـتٌ شـعرىٌّ آخـرُ ورد فيـه اسم "عدنان"، نسبه المؤلف لعبد الله بن همام أحـد بـني عبـد الله بن غطفان، مضيفا أنه يُنْسَـب للنابغـة أيضـا، وهـو مـا عَـزَاه البغدادى فى "خزانة الأدب" لهذا الأخـير فقـط، وإن كـان قـد عاد فذكر أنه يُنْسَـب فى "الفـاخر" (للمفضـل بـن سـلمة) إلى الاثنين جميعا، مع تحديد الغطفـانى بأنـه عبـد الله بـن هُمَـارِق، ونصه:

بما انتهكوا من رب عدنانَ جهرةً　　　وعوفٌ يناجيهم، وذلكمُ جَـلَلْ

وفى "الإيناس بعلم الأنساب" يورد الـوزير المغـربى هـذين البيتين لسلمة بن قيس العُكْلِيّ:

سَيبلغُ قَـذْفي نَهْشَلاً أَنّ مَجْدها قصير وقولي شَتْمُه وقَصائِدهْ
ويأتِي على الفَوْزين دون مَحَجَّر ويَصْعَد في علكّ بن عَدنان ناشدُهْ

وبالإضافة إلى ذلك فقد مر بنا ما قاله عدد من الباحثين من أن الشعر الجاهلى الذى بين أيدينا لا يمكن أن يكون أول ما نظمته العرب من أشعار، بل لا بد أن تكون قد سبقته أشعار أخرى على مدى زمنى طويل حتى استوى الفن الشعرى على سُوقه. أما إلى أى مدى يمتد هذا الزمن فى الماضى بالضبط فعلمه عند الله، إذ لم يستطع حتى الآن أىُّ باحثٍ الإتيانَ بما يَشْفِى ويكفِى فى هذا السبيل.

وهذا كله من شأنه التخفيف من مخاوف ابن سلام والتهدئة من شكوكه التى نحترمها رغم كل شىء، إذ لم يكن الرجل فى تلك المخاوف ولا فى هذه الشكوك صاحب هوى أو مأرب، بل كان يبغى البحث عن بَرْد اليقين فى مجال من مجالات العلم، ولم يكن يقصد إحداث ضجيج مقعقع يلفت إليه الأنظار ولا أن يحارب العرب والمسلمين بتشكيكهم فى كل شىء من تراثهم وحضارتهم كما يفعل بعض المستشرقين ومن يعدو لاهثا خلفهم مقلدا لهم فى كل ما يفعلون. على أننى، كما سبق التنبيه، لا أقول إن الأشعار التى بلغتنا عن عاد وثمود وأشباههما لا بد أن تكون صحيحة بالضرورة، بل كل ما أبغى قوله هو أننا ينبغى أن نعيد النظر فيما قيل بخصوص الشك فى الشعر الجاهلى.

وهذه هى النقطة التى أريد أن أتناولها الآن. وقد كان ابن سلام هو أول من فصل القول من القدماء فى هذه القضية، وإليك بعض ما قاله فى هذا الصدد مما أصبح منطلَقا لمن جاء بعده (وبخاصة من المُحْدَثين عربا ومستشرقين) للشك فى شعر ما قبل الإسلام: بعضه أو كثير منه أو جُلّه أو كُلّه. قال: "وفى الشعر مصنوع مفتعَل موضوع كثير، لا خير فيه ولا حجة فى عربية ولا أدب يستفاد ولا معنى يُسْتَخْرَج ولا مثل يُضْرَب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر مُعْجِب ولا نسيب مستطرَف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شئ منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي. وقد اختلف العلماء بَعْدُ في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه".

ثم مضى مؤكدا أن "للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات: منها ما تَثْقَفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان. من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره. ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم، لا تعرف جودتهما بلونٍ ولا مسٍّ ولا طرازٍ ولا وَسْمٍ ولا صفة،

ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بَهْرَجها وزائفها وسَتّوقها ومُفْرَغها. ومنه البصر بغريب النخل، والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده مع تشابه لونه ومسّه وذَرْعه حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه، وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون جيدة الشطب نقية الثغر حسنة العين والأنف جيدة النهود ظريفة اللسان واردة الشعر، فتكون في هذه الصفة بمئة دينار وبمئتى دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر ولا يجد واصفها مَزِيدًا على هذه الصفة. وتوصف الدابة فيقال: خفيف العنان لين الظهر شديد الحافر فَتِيُّ السن نقيٌّ من العيوب فيكون بخمسين دينارا أو نحوها، وتكون أخرى بمئتى دينار وأكثر، وتكون هذه صفتها. ويقال للرجل والمرأة فى القراءة والغناء: إنه لنَديّ الحَلْق طَلّ الصوت طويل النَّفَس مصيب للَّحْن، ويوصف الآخر بهذه الصفة، وبينهما بَوْن بعيد، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بلا صفة ينتهى إليها ولا علم يُوقَف عليه. وإنّ كثرة المدارسة لتُعْدِي على العلم به، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به".

ثم يضرب على ذلك بعض الأمثلة من واقع الحياة الأدبية: "قال محمد: قال خلاد بن يزيد الباهلى لخلف بن حيان أبى محرز، وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله: بأى

شئ تردّ هذه الأشعار التي تُرْوَى؟ قال له: هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه؟ قال: نعم. قال: أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال: نعم. قال: فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت. وقال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه فما أبالى ما قلت أنت فيه وأصحابك! قال: إذا أخذتَ درهما فاستحسنتَه فقال لك الصراف إنه ردئ، فهل ينفعك استحسانك إياه؟".

ويبدو أن ابن سلام يتصور أن الشعر الصحيح لا بد أن يكون شعرا جيدا من الناحية الفنية والمضمونية بالضرورة، وهذا ما يوحى به قوله عما لا يطمئن له من شعر إنه "لا خير فيه ولا حجة فى عربية ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف"، مع أنه لا تلازم البتة بين الشعر الصحيح من جهة والجودة الفنية والفائدة الخلقية والاجتماعية من جهة أخرى، ولا بين الشعر المزيف وتفاهة الفن والمضمون كذلك، وهذا مما يعرفه كل أحد. أما قوله، عن بعض ما كان يُتَداوَل على أيامه من شعر لا ترتاح نفسه له ولا يرى صحته، إنه "قد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء" فقد يمكن التعقيب عليه بأن الشعر المرويّ عن أهل البادية لا بد أن ينتهى هو أيضا بعد

ذلك إلى التقييد فى الورق، فليست الكتابة إذن عارا على النصوص الشعرية ولا على من يأخذ بها، ولا ينبغى من ثم أن تُتَّخَذ تُكَأَةً لرفض شيء من تلك النصوص إلا إذا قام دليل قاطع على أنه زائف مصنوع. كما أن رواية الأعراب لشىء من الشعر ليست فى حد ذاتها برهانا على صحته، إذ البدو بشر من البشرِ فى نهاية المطاف، يجوز عليهم الكذب والصدق جميعا، ويقع منهم التزييف كما يقع منهم التحقيق، وفيهم الأمين الذى يُطْمَأَنّ له والخائن الذى يُجْفَل منه ولا يوثق به. ثم هل كان العرب كلهم أبناء بادية؟ ألم يكن فيهم من يسكن المدن؟ ألم يكن بين سكان المدن هؤلاء شعراء؟ بلى كان بينهم شعراء، وابن سلام نفسه قد أفرد لشعراء مكة ويثرب والطائف والبحرين قسما خاصا من كتابه الذى نحن بصدده، علاوة على من كان يعيش منهم فى بلاطَىِ الحيرة والغساسنة، فكيف نسى عالمنا الجليل هذا حين اشترط أن يكون الشعر الصحيح من رواية البدو، والبدو وحدهم؟ وهذا أكبر دليل على أن ما زعمه كليمان هوار من أن المدن العربية فى ذلك الحين كانت من شدة الاشتغال بالتجارة بحيث لم تكن هناك أية فرصة لترعرع الإبداع الأدبى فيها هو كلام لا يؤبه به البتة (Clément Huart, A History of Arabic Literature, P.6). وفوق هذا ألم يكن بين العرب من

يعتمد على الكتابة فى رواية الشعر الجاهلى؟ ثم لماذا ننسى أن كثيرا جدا من البدو العرب قد انتقلوا إلى العيش فى أمصار البلاد المفتوحة وأصبحوا بهذا من سكان المدن؟ أفإن تغيرت مساكنهم ينبغى أن يتغير الحكم عليهم ولا يُوثَق عندئذ بما يروونه من شعر الجاهليين؟

أما حديث ابن سلام عن قدرة العلماء المطلقة على فرز صحيح الشعر الجاهلى من زائفه بمجرد النظر فيه ففيه مبالغة كبيرة رغم معرفتنا بقيمة التخصص وضرورته، إذ إن أحكام العلماء التى تكلم عنها ابن سلام هنا لا تزيد عن أن تكون أحكاما انطباعية، ومعروف ما يمكن أن يعترى الأحكام الانطباعية من فساد مهما علت درجة صاحبها فى العلم والخبرة. ومن هنا كان لا بد للعالم من الرجوع إلى القواعد المرعيّة عند أهل كل صناعة، وتعريف القارئ عن طريق التطبيق العملى كيف اعتمد عليها فى الحكم على هذا النص الشعرى أو ذاك، وسَوْق البراهين التى تدل على ما يقول حتى تكون أمام الباحث الفرصة لتمحيص ما يقرأ، ومن ثم قبوله أو رفضه عن بيّنة، وهو ما لم يفعله ابن سلام للأسف فى كثير من الحالات كما فى النص الذى نناقشه الآن والذى ينسب للعلماء قدرات خارقة لا تعرف الفشل، أو لم يوفَّق فيه فى بعض الحالات الأخرى كما رأينا فى حديثه عما ينسب لعاد وثمود من

أشعار. إن كلام ابن سلام هنا ليشبه قول من يرى أن الطبيب ليس فى حاجة إلى تحليلات ولا أشعة ولا إلى الكشف على المريض، بل يكفيه أن يلقى نظرة عليه فيعرف للتوّ ما يعانى منه. وهو ما يتسبب فى وقوع كوارث كان من الممكن تدارك كثير منها وتجنُّب نسبة غير قليلة من حالات الوفاة أو تفاقم المرض لدرجة خارجة عن السيطرة مثلا لو أن الطبيب طامن من غُلَوَائه فى الثقة بعلمه وخبرته بعض الشىء. وكم كان يونس صادقا فى قوله التالى الذى استشهد به ابن سلام: "لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شئ واحد كان ينبغى لقول أبى عمرو بن العلاء فى العربية أن يؤخذ كله. ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك". كما أنه هو نفسه يحكم على خَلَفٍ الأحمر قائلا: "اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لسانا. كنا لا نبالى إذا أخذْنا عنه خبرا أو أنشدَنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه"، مع أن خَلَفًا هذا متَّهَم لدى بعض العلماء الآخرين بأنه وضّاع كبير للشعر. فما القول فى هذا؟ أليس هذا دليلا آخر على أن مسألة معرفة العلماء بالشعر الجاهلى ومقدرتهم على تمييز صحيحه من ملفَّقه مسألة نسبية؟ وإلا فلماذا اختلفوا فى الحكم على خَلَفٍ الأحمر إذن إذا كانت أحكامهم لا يخرّ منها الماء كما يريدنا ابن سلام أن نصدّق؟

ليس ذلك فقط، بل ها هو ذا ابن سلام نفسه يخبرنا بأن الاختلاف بين المختصين برواية الشعر الجاهلى كان شديدا، وأن هذا الاختلاف قد دفعه إلى الاقتصار على بعض ذلك الشعر وأصحابه دون البعض الآخر: "وقد اختلف الناس والرواة فيهم فنظر قوم من أهل العلم بالشعر والنفاذ فى كلام العرب والعلم بالعربية إذا اختلفت الرواة فقالوا بآرائهم، وقالت العشائر بأهوائها. ولا يُقْنِع الناسَ مع ذلك إلا الروايةُ عمن تقدم، فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا فألّفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه فوجدناهم عشر طبقات، أربعةُ رهطٍ كلٌّ طبقة متكافئين معتدلين". أما قوله عن ابن إسحاق: "وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غُثَاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر. قال الزهرى: لا يزال فى الناس عِلْمٌ ما بقى مولى آل مَخْرَمة. وكان أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لى بالشعر. أُتِينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر. إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ" فأرى أن فيه تجنيا عليه، إذ كيف السبيل

إلى معرفة أن الرجال والنساء المذكورين هنا لم يقولوا شعرا قط؟ الحق أن ذلك أمر يحتاج إلى دليل، وبخاصة أن أمامنا أشعارا تُنْسَب لهم، ونفيها عنهم هو الذى يحتاج إلى برهان، وأين هذا البرهان؟ ثم إن عالمنا الجليل يؤكد أنه قد ضاع من الشعر العربى الكثير والكثير، وهو ما كان ينبغى أن يحجزه عن التسرع فى إطلاق مثل تلك الأحكام! على أننى لا أقصد أن كل ما أورده ابن إسحاق فى السيرة النبوية من أشعار صحيح لا ريب فيه، بل قُصَارَى ما أقول إن الأمر لا ينبغى أن يُقْطَع فيه بتلك السهولة التى ينتحيها ابن سلام. ثم إننى لا أفهم على أى أساس حَكَم على الأشعار المنسوبة فى السيرة لعاد وثمود بأنها مجرد كلام معقود بقواف وليست شعرا. ألم يكن أحرى به أن يورد لنا الحيثيات التى نفى بها عن هذا الشعر الجودة الفنية، بل أنكر بناءً عليها مجرد دخوله ميدان هذا الفن؟ ومرة أخرى هل لا بد أن يكون كل شعرٍ صحيحٍ جيدا من الناحية الفنية؟

وهو يقول إن الشعر الجاهلى كان غزيرا شديد الغزارة، لكن "جاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولَهَتْ عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يَؤُولُوا إلى ديوانٍ مدوَّنٍ ولا كتابٍ مكتوب،

وأَلْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير. وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوانٌ فيه أشعار الفحول وما مُدِح هو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بنى مروان أو صار منه. قال يونس: فلما راجعت العربُ روايةَ الشعر وذِكْرَ أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قَلَّتْ وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا فى الأشعار التى قيلت. وليس يُشْكِل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولَّدون، وإنما عَضَّل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيُشْكِل ذلك بعض الإشكال. قال ابن سلام: أخبرنى أبو عبيدة أن ابن داوود بن متمّم بن نُوَيْرَة قَدِم البصرةَ فى بعض ما يَقْدَم له البدوى من الجَلَب والمِيرَة فنزل النحيت، فأتيته أنا وابن نوح العطاردى فسألناه عن شعر أبيه متمم، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته. فلما نَفِدَ شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويصنعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها. فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله. وكان أوّلَ من جمع أشعار العرب وساق

أحاديثها حمادُ الراوية، وكان غير موثوق به. وكان يَنْحَل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار. قال ابن سلام: أخبرني أبو عبيدة عن يونس، قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة وهو عليها فقال: ما أطرفتني شيئا. فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة، مديح أبي موسى. قال: ويحك! يمدح الحطيئةُ أبا موسى لا أعلم به، وأنا أروى شعر الحطيئة؟ ولكن دعها تذهب في الناس. قال ابن سلام: أخبرني أبو عبيدة عن عمر بن سعيد بن وهب الثقفي، قال: كان حماد لي صديقًا مُلْطِفًا فعرض عليّ ما قبله يوما، فقلت له: أَمْلِ عليَّ قصيدة لأخوالي بني سعد بن مالك لطَرَفة. فأَمْلَى عليّ:

إن الخليط أَجَدّ منتقَلُهْ ولذاك زُمَّتْ غُدْوَةً إبلُهْ
عهدى بهم في النَّقْب قد سندوا تَهْدِى صِعَابَ مَطِيِّهم ذُلُلُهْ

وهي لأعشى همدان. وسمعت يونس يقول: العجب ممن يأخذ عن حماد. وكان يَكْذِب ويَلْحَن ويَكْسِر".

وكلام ابن سلام عن تشاغل العرب عن الشعر بالإسلام والجهاد والفتوح معناه أولا أن العرب كانوا جميعا مجاهدين لا يستقر منهم في بلده ولا بيته أحد، وهذا بطبيعة الحال غير صحيح. إنما كان بعضهم يجاهد، وبعضهم يتاجر، وبعضهم يزرع، وبعضهم يصنع، وبعضهم يرعى، وبعضهم يعلّم أو يتعلم... إلخ كما هو الحال في أى مجتمع آخر. ومعناه ثانيا

أنهم عادوا لا يقولون الشعر ما داموا لا يروونه، إذ الرواية أسهل وأقل بَعْثًا على الحرج من النَّظْم. لكننا ننظر فنجد أنهم ظلوا يقولون الشعر حتى على أيام النبى عليه السلام، وفى أثناء الفتوح ذاتها. وهناك شعرٌ جِدُّ كثيرٍ قيل فيها كما نعرف جميعا. بل إن الرسول عليه السلام كان يقرّب إليه بعض شعراء المسلمين ويحثهم على قول الشعر فى الذَّبّ عن الدين الجديد ويشجعهم، فكان يقول لحسان: اهْجُهم (أى القرشيين)، وروح القدس معك. فكيف يقال إذن إن الإسلام قد شغل العرب عن رواية الشعر، حتى إذا انتهَوْا من الفتوح (والكلام هنا بالمناسبة مضطرب، وكأن الجهاد شيء آخر غير الفتوح!) ورجعوا إلى أنفسهم وما كانوا يحفظونه من الأشعار وجدوا أنهم قد نَسُوا نصيبا كبيرا جدا منها؟ وبالنسبة لابن متمم بن نويرة هل يعقل أن يأخذ فى ارتجال تلك الأشعار الكثيرة المتتابعة التى تشبه شعر جده بهذه السهولة كما يُفْهَم من الرواية الخاصة بذلك؟ ثم لماذا يصنع ذلك يا ترى؟ وهل شرط أن يكون شعر متمم على مستوى واحد من المتانة والرُّوَاء؟ أليس من الطبيعى أن يتفاوت شعر الشاعر فيكون بعضه قويا متينا، والآخر دون ذلك، كما هو الحال حتى فى شعر شاعر عبقرى مثل المتنبى، إذ نجد فى ديوانه مقطوعات وقصائد لا ترتفع إلى مستوى شعره الآخر الرائع فى سيف الدولة وكافور وفى التغنى بمفاخره وأحزانه

الذاتية؟ وقل مثل ذلك فى شعر أمير الشعراء أحمد شوقى. وهذان مجرد مثالين اثنين لا غير، وإلا فمعروف عند المشتغلين بالأدب والنقد أن ذلك ينطبق على سائر الشعراء.

أما بالنسبة لحماد وما اشتهر به من كذب ونحل فإنى أتساءل بدورى: إذا كان حماد على هذه الشاكلة من الاشتهار بالنحل والتلفيق، وكذلك باللحن والكسر فوق البيعة بما يعنى أنه من الشعر لا فى العير ولا فى النفير، فما الذى كان يضطرهم إلى اللجوء إليه دائما وسؤاله عما فى جَعْبته من جديد؟ ثم هل من الحتم اللازب أن يعرف بلال بن أبى بردة كل شعر الحطيئة، أو كانت ذاكرته قرصا مدمجا سُجِّل عليه كل شعر الشاعر الهجّاء فلا يندّ عنها شاردة ولا واردة من ذلك الشعر؟ كذلك أليس من حقنا أن نسمع رد المتهم على التهمة الموجَّهة إليه؟ لكن للأسف تسكت الرواية عند هذا الحد فلا تعطى المسكين الفرصة لإبداء وجهة نظره! ثم من يا ترى أنبأ الناس بما دار بين بلال وحماد من حوار واتفاقهما فى نهاية الأمر على ترك القصيدة المزيفة تذيع فى الناس؟ إن أيا منهما لا يمكن أن يكون هو من روى القصة، وإلا لكان كمن يحفر قبره بيده. كما أنه لم يكن هناك إلا هما وحدهما كيلا يقول قائل إن شخصا ثالثا هو الذى فضح الأمر. أما لو افترضنا بعد ذلك كله أنْ قد كان هناك شخص ثالث، فإنهما لم يكونا ليجرؤا

على قول هذا الكلام بمسمع منه حتى لا يشوها صورتهما فى عينه. وفى "الأغانى" أن المدائنى كان ينسب القصيدة المذكورة للحطيئة فعلا! فما الذى يمكن أن نقوله هنا؟ وهذا هو نص "الأغانى": "وذكر المدائني أن الحطيئة قال هذه القصيدة في أبي موسى، وأنها صحيحة. قالها فيه وقد جمع جيشا للغزو فأنشده: "جمعْتَ من عامرٍ فيه ومن أسدٍ"، وذكر البتين وبينهما هذا البيت وهو:

فما رَضِيتَهم حتى رَفَدْتَهمو بوائلٍ رَهْطِ ذي الجدَّيْن بسطامِ"

ثم هل يقدح خطأ حماد فى نسبة قصيدة أعشى همدان لطَرَفة فى أمانته بالضرورة؟ ألا يمكن أن تكون المشكلة مشكلة ذاكرة لا مشكلة ضمير؟ وهل هذا هو النص الشعرى الوحيد الذى أحاط به الخلاف حول نسبته لصاحبه حتى نذهب فنعلق المشنقة لحماد؟ ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام وجهة النظر الخاصة بأحد الطرفين دون الآخر، وكأن حمادا خَرِس فلم يُحِرْ جوابا وسلَّم بما قيل فى حقه. وأين هذا؟ وعجيب أن يقال فى حماد إنه كان ينحل شعر الرجل غيره: هكذا دون إبداء الأسباب. ترى لماذا كان يفعل ذلك؟ أكان مصابا بلُوثَةٍ فى عقله تجعله يتبرع من تلقاء نفسه بخداع الناس وإنفاق وقته وجهده فى ذلك "لله فى لله"؟ وأعجب من هذا أن يقال إنه كان يزيد فى الأشعار رغم ما اتُّهِم به فى ذات الوقت من أنه كان

يلحن ويكسر الشعر. يا له من أحمق! لكن ما القول فى الذين كانوا يصرون بعد هذا كله على البحث عنده دائما عن الجديد فى الشعر؟ أليسوا مثله حمقى بل أَعْرَق منه فى الحماقة وأَوْغَل؟ وأعجب من هذا وذاك أن يلقَّب هذا الكذاب الوضاع الخالى من الموهبة الشعرية بـ"الراوية"؟ إن مثل هذا اللقب ليس له فى الواقع من معنى إلا أنهم كانوا يحترمون روايته ويقدروها حتى إنهم لم يَرَوْا فيه إلا أنه "راوية"! وفى "الأغانى" أن المفضَّل الضَّبِّىّ قد وصفه بأنه "رجل عارف بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يُشْبِه به مذهب رجل ويُدْخِله فى شعره ويُحْمَل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء". أى أنه كان عالما بالشعر ذا بصيرة نقدية عجيبة فيه وصاحب موهبة وبراعة فى التقليد ومقدرة على خلط الأمور حتى لتتداخل الأشعار الصحيحة والزائفة على يديه فلا يميز بينها إلا عالمٌ خِرِّيت. فمن نصدق يا ترى؟ أنصدق من يرميه بالجهل الفاحش بالشعر وباللحن والكسر فيه، أم نصدق من يصوره بصورة العبقرى الجهبذ الذى لا يعجزه فى هذا الميدان شىء؟

وهناك خبران آخران غريبان عنه فى "الأغانى" مُفَادهما أنه بقى يكذب على الناس ويضع لهم الشعر الجاهلى المنحول على مدى عشرات السنين، على الأقل من أيام الخليفة الأموى

الوليد بن يزيد (الذى نجح فى امتحانٍ عقده لـه كـى يتثبت أنـه يحفظ فعلا لمن لا يعرفهم من الشـعراء مائـة قصـيدة علـى كـل حرف من حروف الألفباء) حتى عصر المهـدى ثـانى خلفـاء بـنى العباس حين اكتشف تلاعبه فنادى فى النـاس ألا يقبلـوا روايتـه، وكأن الدولة الإسلامية كان مـن مهامّهـا نقـد الأدب والكشـف عن الشعر المنحول! فهل يقبل العقـل أن يظـل الرجـل يضـحك على ذقون العرب كل هاتيـك العشـرات مـن السـنين دون أن يكشفه أحد قبل المهدى العباسى، وكأنـه يتعامـل مـع أمـة مـن الأفدام الأغتام البائسين؟ وأخيرا وليس آخـرا نجـد ابـن سـلام يبدأ كلامه قائلا إن الشعر العربى لم يعرف غـير الروايـة الشـفوية، ليعود فيضيف بعد قليل أنه كان هناك قسط كـبير منـه مقيـد فى ديوان عند النعمان بـن المنـذر وانتـهى مطافـه إلى أيـدى بـنى مروان. وذلك القسـط، حسـب كلامـه، هـو أفضـل الشـعر الجاهلى من الناحية الفنيـة لأنـه شـعر الفحـول ومـن مـدحوا النعمان وأسرته. وهذا تناقض واضح!

كذلك نقرأ فى "تاريخ بغـداد" لأبى بكـر بـن الخطيـب أن أبا عمرو الشيبانى، وهو أيضا راويةٌ كـوفىٌّ كحمـاد، كـان يجمـع شعر القبائل حتى إذا انتهى من شعر إحداها كتـب مصـحفا بخطـه ووضعه فى مسجد الكوفة. ومع هذا فقد كـان خصـومه يتهمونـه بالسَّرَف فى شرب الخمر رغـم إقـرارهم بأنـه ثقـة فى روايتـه.

ويعلق طه حسين قائلا: "وأكبر الظن أنه كان يؤجر نفسه للقبائل، يجمع لكل واحدة منها شعرا يضيفه إلى شعرائها" (طه حسين/ فى الأدب الجاهلى/ ١٧١)، وهو ما يعنى أن من البشر من يظل يقول: "عنزة" ولو طارت، ومنهم طه حسين، فها هو ذا الشيبانى قد اجتمع خصومه وأنصاره على توثيقه، بيد أن طه حسين لا يعجبه العجب، فيتهم الرجل بأنه كان يؤلف الشعر وينسبه إلى شعراء القبائل التى تدفع له. أما من أين أتى طه حسين بهذا الكلام، فينبغى أيها القارئ أن تخرّ على ما يقوله ساجدا موافقا ولا تسأل مثل هذا السؤال. وعجيب أن يسرف طه حسين فى الشك فى الشعر الجاهلى حتى ليزعم أنه كله تقريبا مصنوع صنعا، حاطبا هكذا فى حبل مرجليوث المستشرق البريطانى الخبيث مع بعض التلاوين التى لا تقدم ولا تؤخر، ثم يصدّق دون أدنى تفكير أو محاولة فى التثبت أية رواية تشكك فى علماء المسلمين، بل يخترع لبعضهم الاتهامات اختراعا كما رأينا فى حالة الشيبانى المسكين!

أيا ما يكن الأمر فإن ما قاله ابن سلام، وهو أكثر المؤلفين العرب القدماء شمولا وتفصيلا فى الحديث عن النحل والانتحال فى الشعر الجاهلى، لا يُعَدّ شيئا إلى جانب ما كتبه المستشرق البريطانى ديفيد صمويل مرجليوث فى بحثه الذى نشره فى عدد يوليه ١٩٢٥م من المجلة الآسيوية الملكية بعنوان

"The Origins of Arabic Poetry"، والـــذى انقض فيه على الشعر الجاهلى ينفيه كله نفيا باتــا لا يقبــل نقضــا ولا إبراما، ويتهم العلماء العرب فى العصـــر العباســى بــأهم قــد صنعوا ذلك الشعر صناعة ولفقوا له أسماء شــعراء فـــوق البيعــة. وجاء على إثره طه حسين فردد مقولتــه تلــك العجيبــة حَــذْوَك النعل بالنعل، اللهم إلا بعض الخيوط الرفيعــة الــتى لا تُــذْكَر، إذ كل ما هنالك أنه، فى الوقـــت الــذى يــزعم فيــه مرجليــوث أن "كل" الشعر الجاهلى منحول زائف، فإن طــه حســين يحــاول أن يبدو مستقلا عن متبوعه فيقول: "جُلّــه، إن لم يكــن كلــه". أمــا فيما عدا ذلك فقد أخذ طــه حســين مــن المستشــرق البريطــانى الموتور أدلته واتجاه بحثه. وعبثا يحاول أنصــار طــه حســين تبرئتــه والادعاء بأنه لم يأخذ شــيئا مــن مرجليــوث، رغــم أن الــدلائل والشواهد جميعها تنطق بأقوى لسان بأنه إنمــا أغــار علــى بحــث مرجليوث إغارة شاملة، وإن وشّاه بــبعض التزاويــق والحــذلقات التى ظن أنها يمكن أن تغطــى علــى ســرقته. بــل إن مرجليــوث نفسه قد اشترك فى اللعبة مدافعا عــن ناهــب فكرتــه زاعمــا أن البحثين قد صدرا تقريبا فى وقت واحــد، بينمــا يفصــل بينــهما عشرة أشهر كاملة، كما أن طه حسين فى كــل مــا كتــب قبــل ذلك التاريخ من مقــالاتٍ وكُتُــبٍ كــان يتحــدث عــن شــعر الجاهلية حديث المطمئن له تمام الاطمئنان. بــل إنــه فى آخــر مــا

كتب فى هذا الموضوع قبل مرجليوث، وكان ذلك فى الفصل الأول من كتابه: "قادة الفكر"، الذى سبق صدوره صدور بحث مرجليوث بشهرين تقريبا (فى إبريل ١٩٢٥م على وجه التحديد)، قد جعل من الجاهلية وأشعارها أساسًا لحضارة الإسلام، مؤكدا أنه لولا هذه الأشعار وأصحابها ما كان الخلفاء والعلماء والقواد المسلمون. وقد ألحَّ على هذه الفكرة إلحاحًا كبيرًا، فى الوقت الذى ذكر معها شكَّ بعض الباحثين الأوربيين المحدَثين فى وجود هوميروس. وهذا نص عبارته: "عَلاَمَ تقوم الحياة العربية فى بداوة العرب وأول عهدهم بالإسلام؟ على الشعر!... هل كانت توجَد الحضارة الإسلامية التى ظهر فيها مَنْ ظهر مِنَ الخلفاء والعلماء وأفذاذ الرجال لو لم توجَد البداوة العربية التى سيطر عليها امرؤ القيس والنابغة والأعشى وغيرهم من الشعراء الذين نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم؟" (قادة الفكر/ ط٩/ دار المعارف بمصر/ ١٠- ١١).
لكنه ما إن ظهر بحث مرجليوث ووصل إلى أيدى الباحثين والعلماء فى مصر حتى رأيناه ينتكس على رأسه وينقلب مائة وثمانين درجة مرددا عكس ما كان يردده طوال تلك السنين التى أربت على الخمس عشرة سنة منذ أول مقال وجدتُه يتناول فيه الكلام عن الشعر الجاهلى كما وضّحتُ فى بحث لى كتبتُه منذ أكثر من سبع عشرة سنة ونشرته على المشباك منذ

عدة سنوات بعنوان "نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلى: سرقة أم ملكية صحيحة؟".

وقد عقدتُ لبَحْثَيْ طه حسين ومرجليوث دراسة مستفيضة قارنت فيها بينهما وانتهيت إلى أن الدكتور طه لم يأت بشىء أساسى غير ما قاله المستشرق البريطانى، وهذه الدراسة متاحة لمن يريدها فى كتابى: "معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين": فكلاهما ينفى الشعر الجاهلى كله، وإن تظاهر طه حسين بأن من الممكن أن يكون بعض ذلك الشعر صحيحا. لكنها صحة نظرية لأنه فى ذات الوقت يحرص على إثارة الريبة فى ذلك الشعر جميعه متحججا بأنه يجرى فى ذلك على الشك المنهجى الذى يُنْسَب للفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت، وهو ما بينت أنه لا أساس له من الصحة، إذ إن طه حسين لم يفهم تلك الفلسفة ولا نجح فى تطبيقها على موضوعه، فقد دخل الساحة وفى ذهنه التشكيك فى الشعر الجاهلى لا لشىء إلا لأن مرجليوث قد شكك فيه، فكان لا بد له بدوره من الشك والتشكيك فى كل ما يتعلق بذلك الشعر كأنه صدى صوت المستشرق البريطانى أو بُوقُ فَمِه، مع الاطمئنان فى نفس الوقت إلى كل نص آخر ما دام يمكن الالتواء به لخدمة فكرته التى سرقها من مرجليوث بمباركة صاحبها كما رأينا. ولو كان يفهم فعلا ذلك الشك المنهجى،

أو على الأقل: لو كان مخلصًا وجادًّا فى تطبيقه على بحثه، لوقف من كل النصوص التى بين يديه موقف الاحتراز والارتياب إلى أن يظهرَ له أنها تستحق الاطمئنان حقا.

كما أن كليهما يهاجم الرواة الشفويين الذين يقول مؤرخو الأدب العربى بوجه عام إنهم هم الذين حفظوا للأجيال التالية أشعار الجاهلية، ويشكك فى مقدرتهم على أداء تلك المهمة. وفى الوقت ذاته ينفى كلاهما أن يكون العرب فى ذلك الوقت على معرفة بالكتابة بحيث يستطيعون أن يسجلوا ذلك الشعر لو كان له فعلا وجود، كى يحفظوه من الضياع. وبالمثل فكل منهما يعتمد فى نفيه لذلك الشعر على اختفاء اللهجات القبلية من قصائده ومجيئه كله فى قالب فصيح مما يشير إلى أن العرب كانوا ينظمون شعرهم قبل الإسلام بلغة واحدة هى اللغة الفصحى، وهذا ما يرفضه كلاهما ويرى أن الفصحى قبل الإسلام لم يكن لها وجود. كما يعتمد كل منهما على خلوّ ذلك الشعر من الموضوعات الدينية، اللهم إلا ما فيه من بعض العقائد والشعائر الإسلامية، وهو ما يدل على أنه إنما صُنِع بعد الإسلام صُنْعًا (انظر د. إبراهيم عوض/ معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين/ مطبعة الفجر الجديد/ القاهرة/ ١٩٨٧م/ ٥٦- ٧٧).

ومع هذا كله يأتى أحمد عبد المعطى حجازى فيفسر شك طه حسين فى الشعر الجاهلى على النحو التالى الذى لا أفهم كيف توصل إليه: "وإذا كان الرواة العرب ينسبون القصائد المعلقات لشعراءَ أفرادٍ كامرئ القيس وطَرَفة بن العبد وعنترة فقد ذهب عميد الأدب إلي أن الشعر الجاهلي منحول، أو هو بعبارة أدق نتاج جماعي يصور حياة الجماعة العربية البدوية ويجسد أخلاقها ويعبر عن نظرتها الخاصة للوجود بلغة طقسية قريبة من لغة الشعائر الدينية التي تصبح فيها الجماعة كيانا واحدا يتوحد فيه الأفراد وتتصل الأجيال"، وهو كلام لم يَدُرْ فى خاطر طه حسين ولا حتى فى الأحلام! إنما هو من أوهام حجازى المضحكة! (انظر مقاله فى "أهرام" الأربعاء ١١ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ - ٧ يونيه ٢٠٠٦م بعنوان "الشعر في حياتنا - الشعر ليس امتيازا خاصا").

ويجد القارئ ردا مفصلا وتفنيدا تاما لكل ما هَرَف به مرجليوث فى الدراسة المطولة التى ألحقتها بترجمتى لبحث ذلك المستشرق (ديفيد صمويل مرجليوث/ أصول الشعر العربى/ ترجمة وتعليق ودراسة د. إبراهيم عوض/ ط٢/ دار الفكر العربى/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م/ ١١٥- ١٦٢). وفى تلك الدراسة بينت أن دعوى مرجليوث القائلة بأن الشعر الجاهلى لم يكن له وجود وأن العرب لم يعرفوا نظم الشعر قبل العصر

الأموى هى دعوى متهافتة، ويكفى أن نقرأ فى ذلك الشعر الأموى نفسه الذى لا يشك فيه مرجليوث لحيظةً إشاراتٍ متكررةً إلى شعراء الجاهلية بوصفهم المثل الأعلى لشعراء العصر الأموى، علاوة على حديث القرآن الكريم المتكرر عن الشعر والشعراء، وهو الحديث الذى لا يمكن أن يكون معناه الكهانة والكهان كما يزعم مرجليوث على غير أساس كى ينفى معرفة العرب للشعر فى ذلك الوقت، إذ تحديت أى إنسان أن يأتينا بأى نص قديم يقول إن كلمة "الشعراء" فى ذلك الوقت كانت تعنى "الكهان". علاوة على أن وقائع التاريخ ورواياته تقول إن الشعراء كانوا موجودين بكل يقين قبل الإسلام وفى عصر الرسول عليه السلام على عكس ما يريد مرجليوث منا أن نقتنع. وبالمناسبة فقد سبقه كليمان هوار فربط على نحوٍ ما بين الشاعر من جهة والكاهن والساحر من جهة أخرى (انظر: **A History of Arabic Literature, PP.7-8**). ثم يزيد الطينَ بِلّةً أن يردد أحمد حسن الزيات هذا السخف، وأن يكون ترديده له فوق ذلك ترديد الواثق المطمئن الذى لا يرى فى الأمر أية غرابة. بل إن الطريقة التى ردده بها لَتُوهِم من لا يعرف خبيئة الأمر أن هذا الكلام هو رأيه هو، توصَّل إليه من تلقاء نفسه. وفضلا عن هذا فإنه لم يقدم لنا ما يدل على صحة ما يقول (انظر كتابه:

"تـــاريخ الأدب العـــربى"/ ٢٨- ٢٩). وعـــودةً إلى مرجليـــوث نقول إنه لمن العجيب أن يأتى باحث فى الشـــعر الجـــاهلى هـــو د. كريم الوائلى فيـــزعم أن المستشـــرق البريطـــانى لا ينكـــر وجـــود ذلك الشعر، بل يؤكد أنه كان موجودا، وكـــل مـــا هنالـــك أنـــه يشك فى الطريقة التى وصل بها إلينـــا، وهـــو مـــا يقلـــب كـــلام مرجليوث رأسا على عقـــب (انظـــر الفصـــل المســـمى: "توثيـــق الشعر الجاهلى" من كتابه: "الشعر الجـــاهلي- قضـــاياه وظـــواهره الفنية" المنشور على المشـــباك). ولا أدرى مـــن أيـــن لـــه بـــذلك الفهم الغريب! أما مسألة اللهجات الـــتى يطـــنطن بهـــا كـــل مـــن مرجليوث وتابعه المصـــرى المتفـــانى فى تعقـــب خطواتـــه الطائشـــة الهائشة الفائشة فيكفى هنـــا فى إدحـــاض مـــا زعمـــاه بشـــأنها أن نقول إن القرآن قد ذكر فى أكثر من آية أنه نـــزل بلســـان عـــربى، لا بلهجة قريش أو الحجاز مثلا، مما يبرهن أصـــلب برهـــان علـــى أنه كانت هناك لغة واحدة للعرب جميعا بخلاف مـــا ادعـــاه الاثنـــان بهتانًا ومَيْنًا من أن اللغة العربيـــة لم تصـــبح لســـانا لمـــن نســـميهم بـــــ"العرب" إلا بعد قيام الدولـــة الإســـلامية بـــدءا مـــن عصـــر الرسول صلى الله عليه وسلم. كما أننا لم نســـمع بتاتـــا أن العـــرب فى الجاهلية أو قبل قيام الدولـــة الجديـــدة بعـــد ذلـــك فى عصـــر المبعث كانوا يحتاجون إلى تراجمة بـــين بعضـــهم وبعـــض أو قامـــت عقبة تحول دون تفاهمهم. ثم إننا مـــا زلنـــا حـــتى الآن نســـتعمل فى

حياتنا اليومية لهجات متعددة تختلف عن الفصحى فى أشياء ليست بالهينة، لكننا حين نكتب أو نبدع نترك عادةً هذه اللهجات وراء ظهورنا ونلجأ إلى المستوى الفصيح، فما المشكلة فى هذا؟ بل إنى لأذهب إلى عكس ما يقول به كثير من الباحثين من أن العرب قبل الإسلام بقليل من الوقت نسبيا قد انتهوا إلى اصطناع لهجة قريش فى إبداعاتهم واتخاذها من ثم لغة أدبية لهم جميعا، إذ أرى أن الفصحى كانت موجودة منذ زمن طويل ينحو الخطباء والشعراء منهم نحوها تاركين عندئذ لهجاتهم المختلفة التى كانوا يخصصونها لموضوعات الحياة العادية كما هو الحال فى كل اللغات، وإلا فلو أخذنا بنظرية ارتقاء لهجة قريش عشية بزوغ الإسلام إلى احتلال موقع اللغة القومية للعرب كلهم لكان معنى هذا أن العرب قبل ذلك كانوا يصطنعون لغات مختلفة بعدد قبائلهم، وهو ما يقتضى أن كل قبيلة منهم كانت تمثل دولة مستقلة لها حدودها وقوميتها بحيث لا تتداخل مع أية قبيلة أخرى. وأين ذلك، وكيف، وهم لم يكونوا يستقرون فى موضع واحد قط، بل كانوا دائمى السعى وراء العشب والماء طول العام، والاختلاط من ثم فى كل أرجاء البادية؟ أو أنهم كانت لهم لغة أخرى غير العربية يستعملون فى أمورهم المعيشية لهجاتها المختلفة، تلك اللهجات التى أخذت لهجةُ قريشٍ منها موقعَ الصدارة قرب مجىء الإسلام وأضحت

بذلك لغتهم القومية بدلا من لغتهم الأولى. فهل كان للعرب لغة أخرى غير هذه التى بين أيدينا؟ فما هى تلك اللغة يا ترى؟ وما اسمها؟ وما الدليل على وجودها؟ وفوق هذا فإن أيا من مؤرخيهم أو خطبائهم أو شعرائهم لم يتحدث فى هذا الموضوع بتاتا، بل لم يشر إليه أى باحث مجرد إشارة.

وتبقى مسألة الدين، وفى الشعر الجاهلى إشارات متكررة إلى عدد من مظاهره وشعائره وقتذاك. وأقصى ما قد يمكن أن يقال فى هذا الصدد هو أن الشعر الجاهلى يخلو من القول المفصل فى أمور الدين، وهو ما يمكن أن يفسَّر بأن كثيرا من ذلك الشعر قد ضاع وأن المسلمين لم يجدوا فى أنفسهم ميلا إلى حفظه وترديده. وينبغى ألا ننسى أيضا أن خطب العرب وأمثالهم تخلو مثل الشعر، وربما أكثر من الشعر، من الحديث فى أمور الدين. أما القول بأن ذلك دليل على أنه مصنوع فى الإسلام فنتيجة غير لازمة ولا مسلَّمة، فضلا عن أن القول بها يستلزم أن تكون أمة العرب والمسلمين كلها على بكرة أبيها أمة من المزيِّفين والمتواطئين معهم، أو أمة من الكذابين الوضّاعين من جهة، ومن الأغبياء المغفلين من جهة أخرى حتى ليجوز أن يخترع المخترعون منها شعر عصر كامل وشعراءه فجأة، وكأن الأمة نامت ذات ليلة دون أن يكون هناك شعر جاهلى ولا شعراء جاهليون ثم استيقظت من مرقدها فإذا بين

يديها ذلك الشعر وشعراؤه، ورغم هذا لا يجد هؤلاء المخترعون المزيِّفون من يعقِّب على صنيعهم. ثم إن العرب قبل ذلك كله كانوا يعتمدون على ذاكرقم اعتمادا أساسيا حتى أضحت الذاكرة العربية من كثرة الاستعمال والثقة بها حادة الرهافة. أما الاقامات التى وُجِّهت إلى بعض الرواة فمن الممكن أن تكون كلاما مرسلا، بل لقد وجدنا بعضها لا يقوم على أساس، أو لا يقوم على الأقل على أساس متين. كما أن قول القرآن الكريم فى خطابه للكافرين: "أم لكم كتاب فيه تدرسون* إن لكم فيه لَمَا تَخَيَّرون؟" (القلم/ ٣٧) ليس معناه أن العرب لم يكونوا يعرفون شيئا عن القراءة والكتابة حسبما زعم مرجليوث بجهله وهلوانيته، بل الكلام فيه موجه إلى القرشيين وحدهم لا إلى العرب كلهم، إذ كان أهل مكة يسخرون من الجنة ومن المؤمنين بها قائلين إنه إن كان ثمة جنة ونعيم فلسوف يتمتعون رغم ذلك بما فيها من خيرات ولذائذ، فأنكر عليهم القرآن قولهم ذلك متسائلا: أَوَفِى أيديهم كتاب سماوى يقول بأنهم يوم القيامة سيتمتعون كما يزعمون بنعيم الجنة كالمؤمنين المتقين؟ ولقد أثبت الباحثون من عرب ومستشرقين معرفة العرب للكتابة والقراءة ولجوءهم إليها فى عملية تسجيل الشعر فى غير قليل من الأحيان (انظر فى ذلك مقال كرنكوف: "استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربى القديم"/

من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى"/ ٢٩٢- ٣٠٤، والفصل المطول المستفيض الذى عقده لذلك الموضوع ودعَمه بالشواهد الكثيرة والأدلة القوية د. ناصر الدين الأسد فى كتابه القيم: "مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية"/ دار المعارف/ ١٩٥٦م)... إلخ.

وقد انتهى الأمر بدراستَىْ مرجليوث وطه حسين عند الباحثين المحترمين إلى الانزواء فى دائرة النبذ والإهمال حتى فى نطاق المستشرقين أنفسهم الذين انقض بعضهم على بحث مرجليوث المتهافت السخيف فمزقوا أوصاله وأبرزوا ما فيه من تفكك ومجافاة للمنطق وأصول البحث العلمى، وهو نفس المصير الذى لاقاه كتاب طه حسين رغم القعقعات التى يحاول بعض من يُحْسَبون على الثقافة العربية أن يُحْدِثوها بين الحين والحين تلميعا له جاهلين أن ذلك الكتاب قد مات وشبع موتا منذ ثمانين عاما إثر تتالى الضربات القاضية عليه من أقلام العلماء الأثبات التى كشفت عواره وفضحت ما فيه من خَوَرٍ فكرىّ وركاكةٍ علمية وتسرعٍ أهوجَ إلى نتائج مقررة سلفا لا تؤدى إليها المقدمات التى ساقها صاحبه، وأن ما مات لا يعود للحياة إلا يوم الدين. وبالمناسبة فكثير من النصوص الشعرية التى شكك فيها طه حسين فى كتابه: "فى الشعر الجاهلى" ثم فى

خَلَفه: "فى الأدب الجاهلى" ليست نصوصا جاهلية بل إسلامية، وهذا من أعجب العجب! على أن قولنا إن المستشرقين الآخرين قد هاجموا نظرية مرجليوث الرعناء فى نفى الشعر الجاهلى كله لا يعنى أنهم لا يشكون أى شك فى ذلك الشعر. إنهم يشكون، بَيْدَ أن شكهم لا ينسحب على ذلك الشعر كله، بل على أشياء فيه لا تجعلهم يطمئنون تمام الاطمئنان إلى ما وصل إلينا منه رغم غربلة علمائنا القدامى لنصوصه، بل رغم تنطُّس هؤلاء العلماء فى تلك الغربلة أحيانا أكثر مما ينبغى كما أشرت إلى بعض ذلك فيما مضى. ويستطيع القارئ أن يقرأ عددا من أبحاث هؤلاء المستشرقين فى هذا المجال فى الكتاب الذى صدر للدكتور عبد الرحمن بدوى للمرة الأولى عام ١٩٧٩م عن دار العلم للملايين ببيروت بعنوان "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى" والذى يضم ترجمة عشرة من أبحاث كبارهم فى ذلك الموضوع مثل نيلدكه وشبرنجر وبلاشير، وقد مرت الإشارة إليه قبل قليل.

ولعل أهم ما تناولوه ووقفوا عنده مليًّا الطريقةُ التى كان يُرْوَى بها الشعر الجاهلى عادة، وهى الطريقة الشفوية، إذ فسروا فى ضوئها ما لوحظ على نصوص ذلك الشعر من اختلاف فى روايتها تقديما وتأخيرا وتغييرا لكلمة أو عبارة بكلمة أو عبارة أخرى، أو اختلافٍ فى نسبة نص معين إلى أكثر

من شاعر، أو تداخُل نَصٍّ لشاعرٍ ما مع نص لشاعر آخر يشترك معه فى الوزن والقافية ويقترب منه فى الموضوع الذى يعالجه... على أساس أن الذاكرة البشرية مهما كانت قوتها لا بد أن يصيبها الوهن والنسيان من حين لآخر، وهو ما يوافق ما قاله هاملتون جيب فى هذا الصدد فى كتابه: "Arabic Literature," (Oxford University Press, 1974, P.20). ولا شك أن فى بعض ما قالوه فى هذا السبيل شيئا من الوجاهة، إلا أنه لا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن اختلاف روايات الشعر الجاهلى لا يرجع كله إلى خيانة الذاكرة بالضرورة، بل ربما وردت أكثر من رواية لكثير من نصوصه عن الشاعر نفسه تبعا لاختلاف الأزمنة والظروف التى كان الشاعر يلقى فيها على الجمهور قصائده، إذ من المعروف أن المبدع لا يكف عن معاودة النظر فى إبداعاته والعمل على صقلها كلما واتته الفرصة. وأية فرصة أعظم من أن أشعاره لم يكن يتم تثبيتها كتابة إلا فى أحيان قليلة؟ وإذن فالفرصة مفتوحة له على مصراعيها كى يُدْخِل أى تغيير يريده فى الوقت الذى يشاء. وأنا أفعل ذلك فى مقالاتى ودراساتى المنشورة على المشباك ولم تُثَبَّت بَعْدُ على الورق، إذ بإمكانى كلما أعدت نشر ما كنت قد نشرته فى موقع آخر غير الموقع الأول أن أُدْخِل فيه من التغييرات والتصحيحات ما أشاء

وبمنتهى السهولة. بل إننا، حتى بعد أن يتم تثبيت نص أى كتاب لنا على الأوراق، نستطيع أن نعيد النظر فيه عند التفكير فى طبعه مرة أخرى. فإذا كان هذا يحدث فى أعمالنا المكتوبة، فما بالنا بإبداعات الشعراء الجاهليين التى لم تكن تُكْتَب فى العادة كما قلنا؟ (انظر فى هذا الصدد دراسة هـ. آلفرت: "ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة"/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه المذكور/ ٤١- ٨٦، ودراسة ف. كرنكوف: "استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربى القديم"/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى نفس الكتاب/ ٢٩٢- ٣٠٤، وبحث جيمس مونرو (James Monroe): "Oral Composition in Pre-Islamic Poetry" المنشور فى "Journal of Arabic Literature"/ ١٩٧٢م/ ٣/ ١- ٧، وترجمته العربية لفضل بن عمار العمارى بعنوان "النظم الشفوى فى الشعر الجاهلى"/ دار الأصالة/ الرياض/ ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).

وبطبيعة الحال فإن ضعف الذاكرة وألاعيبها ليست وحدها السبب فيما اعترى الشعر الجاهلى من تغييرات، فلست أحسب أن كل الرواة الذين أدَّوْا إلينا ذلك الشعر كانوا مخلصين أو حريصين على أن يقوموا بواجبهم على النحو

المطلوب، لأنهم فى نهاية المطاف بشر من البشر. وعلى دارس الشعر الجاهلى أن ينظر فى كل قصيدة على حدة وألا يرفضها إلا إذا قام فى نفسه من بواعث الشك ما لا يستطيع الرد عليه، كأن تكون القصيدة إسلامية حقا بحيث لا يمكن توجيهها بأى حال، أو أن يكون فيها من اضطراب التاريخ ما لا يستقيم معه أمرها البتّة. ومن يُرِدْ أن يرى كيف طَبَّقْتُ هذا الاختبار فى دراساتى فباستطاعته مراجعة الفصلين الخاصين بذلك من كتابيَّ: "عنترة بن شداد- قضايا إنسانية وفنية"، و"النابغة الجعدى وشعره". كذلك على الدارس أن يحصر شكه فيما يقبل الشك منها فلا يعمم ذلك الشك دون مسوّغ. وهناك قصائد منسوبة إلى آدم مثلا، ولا أظن عاقلا يصدق أن آدم كان يتكلم فى ذلك الزمن الموغل فى القدم بلسان العرب. صحيح أننا لا نعرف متى بدأ ظهور اللغة العربية ولا متى أضحت لغة لنظم الشعر، إلا أن هذا لا يعنى أن نصدق الشعر المنسوب لأبى البشر بتلك اللغة، فاللغات لا تظهر كاملة مرة واحدة، وآدم إنما يمثل أول فرد فى أول جيل من أجيال البشر على الأرض، فلا يعقل إذن أن تظهر العربية على يديه كاملة الفن وطرائق التعبير وكأنها نزلت من السماء لا ينقصها شىء. إن هذا ضد طبيعة الحياة كما نعرفها، وذلك إن صدّقنا أن

ذلك الجد البعيد كان يتحدث لغة من اللغات التى نعرفها أصلا!

أعود فأُبَلْوِر موقفى من قضية النحل والانتحال فى الشعر الجاهلى فأقول إن هناك بلا شك شعرا جاهليا منحولا، إلا أننى لا أتوسع فى ذلك ولا حتى توسع ابن سلام، الذى يبدو (بالقياس لبعض الباحثين المحدثين) من المعتدلين إلى حد بعيد. ذلك أن الأسباب التى استند إليها الباحثون فى الشك فى الشعر الجاهلى ليست دائما بالأسباب القوية التى تجعلنى أتشكك فى هذا الشعر على ذلك النطاق الواسع الذى يريده طه حسين مثلا، أو حتى على النطاق الذى كان يتحرك فيه ابن سلام حسبما وضحتُ فيما سبق من هذا الفصل. ومن هنا فإنى أميل إلى القول بأن باحثا كبيرا كالدكتور شوقى ضيف لم يقدم دائما المسوغات الكافية فى رفض عدد من قصائد الشعر الجاهلى، وأن السبب فى ذلك هو امتلاء نفسه بهاجس النحل والانتحال رغم وقوفه فى ذات الوقت فى وجه من يريدون إثارة عواصف الارتياب وأعاصيره فى ذلك الشعر: فمثلا نراه، رحمه الله، يشك شكا شديدا فى قصيدة النابغة الذبيانى: "بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما" لأنها، كما يقول، "نسيب خالص ولأن بها روحا إسلامية تتضح فى قوله مخاطبا صاحبته:

حيَّاكِ ربى، فإنا لا يحل لنا ... لهو النساء، وإن الدين قد عَزَما
مشمِّرين على خُوصٍ مزنَّمةٍ ... نرجو الإله ونرجو البر والطُّعَما

رغم أنها من رواية الأصمعى كما ذكر هو نفسه (العصر الجاهلى/ ٢٧٨). ولست أشاطر الأستاذ الدكتور شكه الشديد فى القصيدة، فإن مجيئها نسيبا خالصا لا يُعَدّ مسوِّغا لرفض نسبتها إلى الشاعر ضربة لازب، وإلا فهل عنده دليل على أن النابغة لا يمكن أن يقول شعرا خالصا فى النسيب؟ كما أن البيتين اللذين يصفهما بأنهما ذوا روح إسلامية لا يتّسمان فى حقيقة الأمر بشىء إسلامى حَصْرًا، إذ الكلام فيهما عن الإله والدين بعامة، وهو كلام يصدق على كثير من الأديان. وحتى لو كانا إسلاميين حقا وصدقا، فإن ذلك ليس بالسبب الكافى لرفض القصيدة كلها، بل لرفض البيتين فحسب. وهو نفسه لم يردّ بيتين لزهير بن أبى سلمى يؤمن فيهما باليوم الآخر والحساب ويؤكد معرفة الله تعالى بغيب النفوس واطلاعه المطلق على كل شىء (المرجع السابق/ ٣٠٣)، فهذا من هذا. ولا ننس أن النابغة كان يتردد على بلاط الحيرة والغساسنة، وكان ملوكهما نصارى. بل إن فى شعره، كما نعرف، كلاما عن بعض الأعياد والاحتفالات النصرانية.

وبالمثل نجد الأستاذ الدكتور ينكر صحة قصيدة الأعشى الدالية التى تقول كتب الأدب إنه كان قد أعدها لمدح الرسول عليه السلام قبل أن تلقاه قريش وتصده عن الذهاب إليه وإعلان الإيمان به، والتى تتضمن بعض التعاليم الإسلامية

والعبارات القرآنية، بحجة أنها "لا تتفق فى شىء ونفسية الأعشى"، وأنه لا يمكن أن "يؤمن بتعاليم القرآن على هذا النحو ثم ينصرف عن الرسول وهديه" حسب تعبيره (السابق/ ٣٤٢). يشير الاستاذ الدكتور إلى ما تحكيه كتب الأدب من أن الأعشى أعد العدة للوفادة على النبى عليه السلام وهو لا يزال فى مكة وجهّز فى مدحه قصيدة يقولها عند لقائه، إلا أن قريشا ما إن علمت بهذا الذى كان ينتويه حتى سارعت بمقابلته وعملت على تنفيره من الدين الجديد وصاحبه، فرجع من طريقه دون أن يفد عليه صلى الله عليه وسلم، ثم تتابعت الحوادث حتى مات ولم يدخل فى الإسلام. لكنْ من قال إن الأعشى كان فى خاطره الانصراف عن الرسول انصرافا نهائيا؟ ربما انصاع لكلام القرشيين ريثما تتاح له فرصة أخرى، أو ربما ضعف أمام ما أعطَوْه من مال فأخذه وانصرف مؤقتا انتظارا لظروف أفضل يستطيع أن يعلن فيها إسلامه دون خوف من ضغط أو إحراج. والناس ليسوا سواء فى قوة التمسك بما يؤمنون به، ولا كُلّهم على استعداد للبذل والتضحية العنيفة، ولا من طبيعتهم جميعا المسارعة إلى تنفيذ ما ينوون عمله. وعندى أن تفسير موقف الأعشى بذلك أقوى فى الإقناع من إنكار نسبة القصيدة له والقول بأنها منحولة. وثمة أمثلة أخرى كثيرة يسارع فيها الدكتور شوقى إلى إعلان شكه فى هذه

القصـــيدة أو تلـــك دون أن تكـــون التســـويغات الـــتى يســـوقها مُرْضِيةً للعقل، ولكنى أكتفــى بهــذين المــثلين دلـــيلا علـــى أنـــه، ككثير من الباحثين العــرب، قــد امــتلأ قلبــه بهــاجس النحــل والانتحال أكثر مما يصح رغم أنه قد رد هجــوم مرجليــوث وطــه حسين وبلاشير على الشعر الجاهلى وبــيّن مــا فى ذلــك الهجــوم من مغالاة لا تستقيم ومنطــق الأشــياء (الســابق/ ١٦٦- ١٧٥)، وإن لم يَعْنِ هذا بطبيعة الحــال أن كــل القصــائد الــتى ردهــا أو أبدى شكه فيها لا تستحق هذا الشك أو ذلــك الــرد. خلاصــة القول إن فى الشعر الجــاهلى شــعرًا صــحيحًا، وهــو الأغلبيــة الكبيرة، وفيه إلى جانب هذا شعر منحــول أيضــا، إلا أن المنحــول ليس بالكثرة ولا الاتساع الذى تــوحى بــه عــادةً كتابــاتُ مــن كتبوا فى ذلك الموضوع.

هذا، ويلفت النظر فى الشــعر الجــاهلى أن عــدد شــعرائه كبير هائل: منهم المشهور الطائر الشهرة كــامرئ القــيس وعنتــرة والأعشى وزُهَيْر بن أبى سُــلْمَى والنابغــة الــذُّبْيَانى وعمــرو بــن كلثوم وطَرَفة بن العبد وزرقاء اليمامــة، ومنــهم مــن لا يحظَــوْن بشىء من الشهرة كأبى حذيفة وأعصر بــن ســعد وأوس الهجيمــى وجناب بن منقذ وســبيع التميمــى وأرطــأة الفــزارى وابنــة أبى الجدعاء وكسرة بنت دوشن وجمــل الســلمية وزهــراء الكلابيــة وسُعْدَى الأسدية، ومنهم من كان بين ذلك قَوَامًا مثــل عَبِيــد بــن

الأبرص والمهلهِل بن ربيعة وعلقمة الفحل والمرقش الأكبر ولَقِيط بن يَعْمُر وعروة بن الورد وتأبَّطَ شرًّا والشَّنْفَرَى وعمرو بن قميئة وسلامة بن جندل وعبد يَغُوث الحارثى وكعب بن الأشرف النَّضَرِىّ وجليلة بنت مُرَّة وليلى العفيفة. ومنهم أصحاب المطوَّلات، ومنهم من لم يصلنا عنهم إلا مقطوعاتٌ أو نُتَفٌ أو أبياتٌ مفردة. ومنهم كذلك أصحاب الدواوين، ومنهم من لهم عدد صغير من القصائد والمقطوعات، ومنهم من ليس لهم إلا بعض أبيات أو أقل من ذلك. ومنهم من كان يَنْظِم فى أناةٍ وريْثٍ ويعيد النظر فى ما ينظمه قبل أن يذيعه فى الناس حتى ليقول ابن قتيبة فى "الشعر والشعراء" إن زهيرا كان ينفق فى إبداع القصيدة الواحدة وقتا طويلا، وإن الحُطَيْئَة (من الشعراء المخضرمين)، وسُوَيْد بن كُرَاع وعَدِىّ بن الرقاع (من شعراء بنى أمية) كانوا يتخذونه مثلا لهم يحتذون طريقته وينقّحون شعرهم قبل أن يذيعوه تنقيحا شديدا كما كان يصنع. ومنهم فى المقابل من لم يكن يعكف كل هذا الوقت الطويل على تهذيب ما ينظم بل كانوا يميلون إلى إذاعة ما يبدعون من شعر على الجمهور بمجرد ما يفرغون من نظمه، وهؤلاء يُسَمَّوْن: "أصحاب الطبع"، وهو ما تناوله الجاحظ فى كتابه: "البيان والتبيين"... وهكذا. ومن أولئك الشعراء من كان ملكا أو أميرا أو شيخ قبيلة كامرئ القيس والمهلهل

والأفوه الأودى وأبي قيس بن الأسلت وحاتم الطائي، ومن كان فارسا كسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وقيس بن الخطيم وعبدة بن الطبيب وأُحَيْحَة بن الجلاح، ومن كان حكيما كأميّة بن أبي الصلت وقس بن ساعدة، ومن كان صعلوكا كتأبَّطَ شَرًّا والسُّلَيْك بن السُّلَكة، ومن كان عبدا كعنترة بن شداد وسُحَيْم عبد بنى الحسحاس (وهو جاهلى إسلامى)، ومن كان يتخذ من المديح مرتزَقا كالنابغة والأعشى والمنخَّل اليشكرى وأبي زبيد الطائى...

ولم يترك شعراء الجاهلية موضوعا من الموضوعات إلا ونظموا فيه، فشَعَروا فى المدح والفخر والهجاء والرثاء والحماسة والوصف والخمر والنسيب والغزل والأطلال والرحلة والقصة والتمرّد على أعراف القبيلة والتجارب الشخصية والحكمة ومفارقات الحياة. أى أنهم قد نظموا أشعارهم فى الأمور الاجتماعية والشخصية على السواء، وذلك على عكس ما يردده بعض الدارسين من أن الشعر الجاهلى كان شعرا غَيْرِيًّا لا يعدو الشاعر فيه أن يكون ناطقا بلسان الجماعة، وكأن شخصيته قد أُلْغِيَتْ إلغاءً (ممن تناول هذه المسألة وقال بذلك القول المستشرق البريطانى جب فى كتابه: "Arabic Literature", P.28، إذ زعم أن غالبية شعراء الجاهلية كانوا يعبرون عن الأفكار والمشاعر الجماعية

أكثر مما يعبرون عن شخصياتهم الفردية. وقد ردد كذلك هذا القول د. عبده بدوى فى كتابه: "الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى"/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٩٨٨م/ ٣٩). وعلى هذا فقد صور لنا شعراء الجاهلية فى قصائدهم ومقطوعاتهم المجتمع العربى فى زمنهم، فذكروا الأماكن التى كانوا يترددون بينها أو يُلِمّون بها من مدن أو عيون ماء أو جبال وتلال أو بوادٍ، كما أوردوا أسماء قبائلهم ومشاهير الرجال بينهم، سواء كانت شهرتهم بسبب فروسيتهم وشجاعتهم فى الحروب أو بسبب كرمهم وأَرْيَحِيَّتهم أو بسبب بخلهم أو بسبب استبدادهم أو بسبب حكمتهم أو بسبب ما اشتهروا به من شعر أو خُطَب... وبالمثل تحدثوا عن كثير من الأحداث المهمة فى تاريخهم القريب والبعيد، وتناولوا بالذكر أنسابهم، وأوردوا بعض طقوس دينهم وأسماء أصنامهم، ورسموا كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ومثلهم العليا، وتحدثوا عن مناخ بلادهم من حَرّ وبَرْد وبَرَد ومطر وسيول وريح وغمام، ووصفوا أشجارها ونباتاتها وينابيع مياهها وحيواناتها وطيورها الوحشية والإنسية، وقدموا لنا كثيرا من التفاصيل عن الأوهام التى كانوا يتوهمونها والمهن التى كانوا يمتهنونها والهوايات التى كانوا يمارسونها ويقضون بها وقت فراغهم من حجامة وكهانة وزراعة ورعى وصيد وحدادة وتجارة ولعب

ولهو، كما تتضمن أشعارهم كثيرا جدا من أسماء الأعلام لديهم ذكرانا وإناثا.

وهذا يجرّنا إلى ما ادعاه د. طه حسين تسرعًا ودون تثبُّت فى كتابه: "فى الأدب الجاهلى" من أن الشعر العربى المنسوب إلى الجاهلية لا يصور الحياة العربية قبل الإسلام، وأننا إذا أردنا التماس تلك الحياة فعلينا بالقرآن، أما الشعر الجاهلى فهو شعر مزيف موضوع بعد الإسلام وَضْعًا، ومن ثم فإنه لا يفيدنا بشىء فى هذا المجال (فى الأدب الجاهلى/ ٧٠- ٨٠، وفى مواضع أخرى متناثرة من الكتاب). إنه يقول مثلا إن الشعر الجاهلى يخلو من الحديث عن النصرانية، مع أن هناك كلاما متكررا عن الرهبان والصلبان وبعض المناسبات النصرانية مما ينقض كلامه نقضا. كذلك يزعم الدكتور طه أن شعراء الجاهلية سكتوا فلم يذكروا الروم والفرس بشىء، بينما هناك مثلا قصيدة امرئ القيس الرائية التى يتحدث فيها عن رحلته إلى القسطنطينية وبعض المواطن التى مر بها هو ورفيقه، وكذلك قصيدة لقيط بن يعمر التى يحذر فيها قومه والعرب كلهم مما يدبره لهم كسرى من جيش يجهزه لغزو بلادهم واستذلالهم، وقصيدة الأعشى التى يتغنى فيها بانتصار العرب على الفرس فى يوم ذى قار. وعلى نفس الشاكلة يمضى طه حسين فيقول إن ما نظن أنه شعر جاهلى لم يتناول المشكلة

الطبقية، فى الوقت الذى يتضمن هذا الشعر فعلا صفحات كثيرة سطرها الشعراء الصعاليك، وهم الشعراء الذين خرجوا على قبائلهم وكونوا فى منقطعات البادية عصابات تغير على القوافل والأغنياء ثم يوزعون ما يحرزونه بهذه الطريقة على أنفسهم بالسويّة. كما أن تمدُّح الشعراء الأغنياء آنذاك بما كانوا يُسْدُونه إلى الفقراء والبائسين من حولهم هو لون آخر من تصوير هذا الجانب الذى يزعم طه حسين أننا نفتقده فى شعر الجاهلية. أما أن ذلك الشعر لا يُفِيض فى القول إلا حين يتناول البادية، بخلاف حياة المدن التى لم يمسها إلا مَسًّا رفيقا كما يقول، فهذا أمر طبيعى. ذلك أن بلاد العرب أوانذاك كانت تغلب عليها البداوة غلبة عنيفة، إذ إن معظم أرضها، كما هو معروف، صحراء قاحلة. وثمة دراسات كثيرة يتناول كل منها هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة الجاهلية بما يكذّب مقالة طه حسين، الذى كان لا يزال حديث عهد بالعودة من فرنسا حين كتب ما كتب فى هذه القضية، فكان يظن أنه جمع العلم من كل أطرافه رغم أنه لم يتخصص فى فرنسا فى الأدب العربى، بل فى تاريخ الإغريق والرومان، علاوة على أن الدكتوريّة التى أحرزها هناك إنما هى دكتورية السلك الثالث لا دكتورية الدولة التى تُعَدّ دكتوريّة حقيقية كاملة.

ومن هذه الدراسات تلك الأبحاث الرصينة التى رد بها العلماء الكبار على طه حسين لدى صدور كتابه الخديج: "فى الشعر الجاهلى" من أمثال مصطفى صادق الرافعى ومحمد لطفى جمعة ومحمد فريد وجدى ومحمد الخضر حسين ومحمد أحمد الغمراوى، وكذلك سلسلة المقالات التى كتبها د. أحمد أمين فى مجلة "الثقافة" تحت عنوان "جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى" وأكد فيها أن الأدب الجاهلى هو فى الواقع صورة صادقة لحياة العرب فى الجاهلية. ومنها أيضا الفصول التى خصصها كل من السباعى بيومى ود. شوقى ضيف ود. على الجندى، وعبد الله عبد الجبار مع محمد عبد المنعم خفاجى، لهذا الموضوع فيما وضعوه من كتب عن العصر الجاهلى، وكتابا د. أحمد الحوفى عن الحياة والمرأة فى شعر الجاهلية، وكتاب د. يوسف خليف عن شعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى، وكتاب د. سيد حنفى حسنين عن الفروسية فى ذلك العصر أيضا، فضلا عن الكتب والفصول الأخرى التى خصصها أصحابها للحديث عن الحكمة أو الحرب أو النسيب أو الحيوان أو النجوم أو الأنواء أو الخمر أو السُّود فى الشعر الجاهلى... إلخ. وقبل ذلك لدينا كتاب "الأصنام" لابن الكلبى، وهو يضم عددا غير قليل من الشواهد الشعرية المتعلقة بالأصنام وبيوتها وعبادة العرب لها، و"الأغانى" لأبى الفرج

الأصفهانى، الذى يتضمن كثيرا جدا من أخبار العرب فى الجاهلية ووقائعهم وحكاياهم مرفقةً بما يرتبط بها ويصورها من أشعار. وفى "معجم البلدان" وأشباهه من المعاجم ثروة شعرية هائلة تفوق الحصر فى وصف المواطن المختلفة فى جزيرة العرب من وديان وجبال وشعاب ومياه وقرى وذِكْر أسمائها وتحديد مواقعها. وصدق جرجى زيدان إذ يقول إن عرب الجاهلية قد صوروا "عاداهم وحيواناهم وأدواهم فى أشعارهم كما صورها المصريون والأشوريون واليونان والرومان على قصورهم ومعابدهم. وكما استخرج علماء الآثار عادات تلك الأمم وأخلاقها من آثارها المنقوشة أو المحفورة فالباحث فى شعر الجاهلية يستخرج منه عادات العرب وآدابهم وأخلاقهم وطبائعهم وسائر أحوالهم. ولذلك قال ابن خلدون إن الشعر ديوان علوم العرب وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلٌ يرجعون إليه فى الكثير من علومهم وحكمهم. ونزيد على ذلك أنه مستودع عاداهم وأخلاقهم وأدواهم وصنائعهم" (جرجى زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقى ضيف/ دار الهلال/ ١/ ٨١). وهذا هو نيكلسون يقول مثلا إن الشعر الجاهلى يفيض بالدراسات الدقيقة التى تتعلق بعالم الحيوان، ومن الممكن وصفه بأنه عبارة عن نقد للحياة والفكر

عند العــرب قبــل الإســلام (انظــر كتابــه: **A History of Arabic Literature, PP.78- 79**).

ومن القضايا المهمة التى تتعلق بالشعر الجـاهلى أيضـا بنـاء القصيدة. ولعل أول من افتـتح الكتابـة فى هـذا الموضـوع مـن مؤرخى الأدب ونقاده هو ابـن قتيبـة، الـذى قـال فى كتابـه: "الشعر والشعراء": "سمعت بعض أهـل الأدب يـذكر أن مُقَصِّـد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِّمَن والآثـار، فبكـى وشـكا وخاطب الرَّبْع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سـببًا لـذكر أهلـها الظاعنين عنها، إذ كان نازلـةُ العَمَـد في الحلـول والظعـن علـى خلاف ما عليه نازلة المَدَر لانتقالهم عن مـاءٍ إلى مـاءٍ وانتجـاعهم الكلأ وتتبعهم مسـاقط الغيـث حيـث كـان. ثم وصـل ذلـك بالنسيب، فشـكا شـدة الوجـد وألم الفـراق وفـرط الصـبابة والشوق ليُمِيل نحوه القلوب ويصرف إليـه الوجـوه وليسـتدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريـبٌ مـن النفـوس لائـطٌ بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبـة الغـزل وإلـف النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقًـا منـه بسـببٍ، وضاربًا فيه بسهمٍ حلالٍ أو حرامٍ. فإذا علم أنه قـد اسـتوثق مـن الإصغاء إليه والاستماع لـه عقّـب بإيجـاب الحقـوق فرحـل في شعره وشكا النَّصَب والسهر وسُرَى الليل وحَـرّ الهجـير وإنضـاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قـد أوجـب علـى صـاحبه حـق

الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكأفاة وهزّه للسَّمَاح وفضّله على الأشباه وصغّر في قدره الجزيل. فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعَدَل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يُطِل فيُمِلّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد... وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزلٍ عامرٍ أو يبكي عند مَشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي، أو يرحل على حمارٍ أو بغلٍ ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يَرِد على المياه العِذَاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جَرَوْا على قطع منابت الشيح والحَنْوة والعَرَارة".

وأول ما ينبغي التنبيه إليه هو أن الملاحظة السابقة ليست من بُنَيّات عقل ابن قتيبة على عكس ما هو شائع، إذ هو مجرد حاكٍ لها كما جاء فى بداية كلامه، وإن كان يُفْهَم من نهاية النص أن الرأى الذى يقول بأنه لا يحق للمتأخر من الشعراء أن يخرج على ما قرره السابقون منهم هو رأيه هو. فإن كان الأمر كذلك فمعناه أنه قد وقع دون أن يدرى فى شيء من التناقض، فقد قال فى مقدمة كتابه ذاك فى سياق الحديث عن الشعراء

الذين ترجم لهم فيه والأساس الذى استند إليه فى الحكم على مرتبة كل منهم: "ولم أسلك، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارًا له، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره. ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدُّمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخُّره. بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كُلاً حظه، ووفّرتُ عليه حقه. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيَّره، ويرذّل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأَى قائله! ولم يَقْصِر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خصّ به قومًا دون قومٍ، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثًا في عصره، وكل شريفٍ خارجيةً في أوله. فقد كان جريرٌ والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعَدّون مُحْدَثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المُحْدَث وحَسُن حتى لقد هممت بروايته. ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون مَنْ بعدهم لِمَنْ بعدنا كالخُرَيْمِيّ والعتّابي والحسن بن هانِئٍ وأشباههم. فكل من أتى بحسَنٍ من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه، ولم يَضَعْه عندنا تأخُّر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه. كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه". ومعنى

هذا أنه لا فضل للمتقدمين من الشعراء على التالين لهم، فلماذا يحرّم ابن قتيبة على هؤلاء إذن أن يخرجوا على ما قرره أولئك ونهجوا سبيله إذا كان الفريقان موهوبين كلاهما ولا يتفاضلان بهذا الاعتبار؟ كما أن الحياة لا تعترف بهذا التضييق الذى يريد بعض الناس أن يلزموا أنفسهم وغيرهم أيضا به، بل تتسع لألوان كثيرة مختلفة من الأذواق والمعايير، وبخاصة فى ميدان الفنون والآداب. وما دام الله سبحانه لم يجعل العقل والذوق والوجدان والإبداع قصرا على قوم دون قوم ولا على جيل دون جيل ولا على أمة دون أمة، فلماذا اشترط ابن قتيبة على اللاحقين من الشعراء أن يلغوا شخصياتهم الفنية ويحطبوا فى حبل من تقدمهم من نظرائهم؟

على أن الذى يهمنا من هذا النص حقا هو ما جاء فيه من أن تلك هى السبيل التى كان ينتهجها دائما أصحاب القصائد، وهو ما لا يوافقه الواقع، إذ هناك قصائد جاهلية كثيرة جدا لم يجر فيها ناظموها على هذه الخطة، بل تراهم يدخلون فى موضوعهم مباشرة، أو يستهلون شعرهم بشىء آخر غير الوقوف على الأطلال: كالنسيب مثلا كما فى قول المسيّب بن عَلَس:

كَلِفْتُ بِلَيْــلَى خَدِينِ الشبــا ب وَعالَجْتُ منها زَمانًا خَبَالا

أو الحديث عن فراق الحبيبة لانتقالها مــع قبيلتــها إلى مــنزل آخر كما فى قصيدة بشامة بن الغدير التى مطلعها:

إن الخليط أَجَدّ البَيْن فابتكروا لنيّةٍ ثم ما عاجوا وما انتظروا

(وهو ما يمكن تسميته بـــ"مقدمــة الفــراق" أو "المقدمــة الفراقية")، أو بالحديث عن الســهاد ومراعــاة النجــوم ومقاســاة الأرق والقلق (وهو ما أُطْلِق عليــه: "المقدمــة السُّــهْدِيّة")، ومنــه قصيدة النابغة المشهورة: "كِلِينِى لهمّ يا أُمَيْمَــةُ ناصــب" وقصــيدة عروة بن الورد: "أَرِقْتُ وصُحْبَتِي بمَضِيقِ عمــقٍ" وقصــيدة الممــزق العبدى:

أَرِقْتُ فَلَم تَخْدَع بِعَينَيَّ وَسْنَةٌ وَمَن يَلقَ ما لاقَيْتُ لا بُدَّ يَأرَقِ

أو بالرد على عتاب زوجته له على مــا يهينــه مــن مــال على الفقراء والمساكين مما ترى أن البيت أولى به كمــا هــو الحــال فى بعض قصائد حــاتم الطــائى، أو علــى تركــه بيتــه وأســرته والانطلاق فى الأرض كما فى بعض أشعار عــروة بــن الــورد، أو على احتفاظه بفرسه رغم حاجة البيــت إلى ثمنــه كمــا فى قصــيدة ابن المضلّل:

باتَت تَلــومُ عَلى ثــادِقٍ لِيُشْرَى فَقَدْ جَدَّ عِصيانُها

(وهو ما نستطيع أن نَسِمه مــثلا بـــ"المقدمــة العتابيــة")، أو بوصف الخمر مثلما هو الأمر فى معلقة عمرو بــن كلثــوم الــتى يبدؤها بالحديث عــن الخمــر ثم يخــرج منــه إلى الفخــر بنفســه وبقومه والتحدى للملك الحِيرىّ الذى ظن أن تمكنتــه النيــل مــن

كرامة الشاعر وأمه فكان فى ذلك حتفه الـوَحِىّ، ثم لا شىء فى القصيدة بعد ذلك، أو بالتحسر على أيام الشباب التى انصرمت ولم يعد لها من رجوع كما فى قصيدة علقمة بن عبدة التميمى: "طَحَا بكَ قلبٌ فى الحِسَان طَرُوبُ"... وغير ذلك من الابتداءات، وإن كان افتتاح القصيدة بالوقوف على الطلل أشهر من غيره من الافتتاحات.

وحتى إذا وقف الشعراء على الأطلال فإن كثيرا منهم لا يعقبون ذلك بالرحلة لا للممدوح ولا لأى شخص آخر، بل كثيرا ما لا يكون هناك ممدوح البتة، كما هو الوضع فى معلقة عنترة والملك الضِّلّيل مثلا. كذلك فكثير من هذا الشعر لا يزيد على أن يكون تصويرا لتجربة ذاتية حقيقية أو متوهَّمة لا صلة بينها بتاتا وبين الأغراض الشعرية التقليدية ولا البناء الفنى الذى تحدث عنه ابن قتيبة بأى حال، ومن ذلك بعض أشعار الشَّنْفَرى التى يصف فيها لقاءه بالغول وعراكه معها. واضحٌ إذن أن ما قاله ابن قتيبة لا يقتصر على شعر المديح، بل يقع فى شعر المديح وفى غيره. وحتى فى شعر المديح فإنه لا يقع عليه كله بل على بعضه فقط. أى أن ما يحسبه كثير من الباحثين نظاما صارما يتبعه الجاهليون والقدماء عموما فى بناء القصيدة لم يكن فى الحقيقة كذلك، بل كان يراعَى فى بعض قصائد المديح وحَسْب، لكنه لا يقتصر عليها بل يَشْرَكها فى ذلك كثير من

القصائد غير المَدْحِيّة أيضا كمعلقة امرئ القيس التي يتناول فيها مغامراته اللاهية مع النساء ويصف الحصان والسحاب والسيل، وكمعلقة طرفة التي يستهلها بالوقوف على أطلال خَوْلة رغم أنها ليست فى المديح ولا حتى فى الهجاء أو الرثاء أو أى موضوع من موضوعات الشعر التقليدية، بل فى التعبير عن التمرد على التقاليد والحيرة فى فهم الحياة، وكمعلّقة عنترة بن شداد التى يفخر فيها بشجاعته وفروسيته أمام حبيبته ويرسم صورة حانية لأَدْهَمه الذى اشتكى له حَرّ القتال وود لو يستطيع أن يرفع صوته بالكلام الواضح المبين كما يفعل البشر لولا عجزه عن التعبير اللغوى المقصور على أولئك البشر... وقد كان د. شوقى ضيف أكثر دقة وحذرا فى حديثه فى هذا السياق عن أسلوب الشعراء الجاهليين فى نظم قصائدهم، إذ قرر أنهم "كانوا يحرصون فى كثير من مطولاتهم منذ العصر الجاهلى على أسلوب موروث فيها، إذ نراها تبتدئ عادة بوصف الأطلال وبكاء الدِّمَن ثم تنتقل إلى وصف رحلات الشاعر فى الصحراء، وحينئذ يصف ناقته التى تملأ حسه ونفسه وصفا دقيقا فيه حذق ومهارة، ثم يخرج من ذلك إلى الموضوع المعين من مدح وهجاء أو غيرها. واستقرت تلك "الطريقة التقليدية" وثبتت أصولها فى مطولاته الكبرى على مر العصور" (د. شوقى ضيف/ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى/ ط٨/ دار

المعارف/ ١٨). فهو، كما نرى، يقول إنهم كـانوا يفعلـون ذلـك فى كثير من مطوّلاتهم لا فيها كلها ولا فى المـدائح منـها فحسـب. وهذا أقرب إلى الواقع (كما أشرنا قبل قليـل) ممـا جـاء فى نـص ابن قتيبة آنفا، هذا النص الذى فهمـه نيكلسـون علـى حرفيتـه فأساء الفهم والتقدير، إذ كتـب زاعمـا أن الشـاعر الجـاهلى لم يكن أمامه أى اختيار فيمـا يخـص النظـام الموسـيقى للقصـيدة العربية أو فى اختيار موضـوعاته وأسـلوب معالجتـها، ولم يكـن يجرؤ من ثم على الخروج على شيء من ذلـك، وإن عـاد فاسـتثنى بعض الحالات من هذه "التقاليد الجامدة" على حـد تعـبيره (انظـر كتابـه: A History of Arabic Literature, PP.77-78).

ومن القضايا المتعلقة بالشعر الجاهلى كذلك مـا قيـل عـن مكانة الشاعر فى ذلك العصر، فقد ذكـر ابـن رشـيق فى "بـاب احتماء القبائل بشعرائها" من كتابـه: "العمـدة فى محاسـن الشـعر وآدابه": "كانت القبيلة من العـرب إذا نبـغ فيهـا شـاعر أتـت القبائلُ فهنأتها، وصُنِعت الأطعمة، واجتمع النسـاء يلعـبن بـالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولـدان لأنـه حمايـةٌ لأعراضـهم، وذَبٌّ عـن أحسـابهم، وتخليـدٌ لمـآثرهم، وإشـادةٌ بذكرهم. وكانوا لا يهنئون إلا بغلامٍ يولَد أو شـاعرٍ ينبـغ فـيهم أو فرس تُنْتَج". وقد أخـذ مؤرخـو الأدب العـربى يستشـهدون

بهذه العبارة على أنها أمر مفروغ منه وأن ما ورد فيها إنما كان يقع حرفيا. ومن هؤلاء جلال الدين السيوطى (المُزْهِر فى علوم اللغة والأدب/ القاهرة/ ١٣٣٥هـ/ ٢/ ٢٩٣)، وجرجى زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية/ ٨٣)، والشيخ أحمد الإسكندرى والشيخ أحمد العنانى (الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه/ ٥٩)، ورينولد نيكلسون (**A History of Arabic Literature, P. 71**)، وأحمد حسن الزيات (تاريخ الأدب العربى/ ٤٤)، والسباعى بيومى (تاريخ الأدب العربى- فى العصر الجاهلى/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ١٤٢)، ود. على الجندى (فى تاريخ الشعر الجاهلى/ دار المعارف/ ٢٧٤)، وك. أ. فارق (**K. A. Fariq, History of Arabic Literature, Vikas Publications, Delhi- Bombay- Bangalore- Kanpur- London, P.43**)... إلخ. على أنى، رغم ذلك كله، لا أحسب أن هذا كان يقع حرفيا كما جاء فى كلام ابن رشيق، بل المقصود أن العرب كانوا يتفاخرون بشعرائهم كما يتفاخر أى منا بما تمتاز به أسرته أو قريته أو مدينته أو جامعته أو وطنه أو أمته، لا أن الحفلات كانت تقام فعلا ويلعب النساء بالآلات الموسيقية وما إلى ذلك، إذ لم يقابلنا خبر واحد عن قبيلة معينة احتفلت بأحد شعرائها على هذا النحو، إنما هو كلام عام مرسل، علاوة على أن أحدا لم يقل هذا القول قبل ابن رشيق،

وهو متأخر، إذ هو من أهل القرن الرابع الهجرى، فأين كان ذلك الكلام قبله؟ لقد كانت مكانة الشاعر الجاهلى بين قبيلته مكانة كبيرة بلا شك، وهذا كل ما أفهمه من نص ابن رشيق لا أكثر، إذ كان هو المحامى عن أعراضها والمذيع لمفاخرها والمالئ وقت فراغها بما ينشدها من شعر معجب يسليها ويمتعها والمحرك لمشاعرها والعازف على أوتار قلبها والمعزّى لها فى أوقات الملمات والمثير لحماستها عند الحروب والمُشْعِل نار الانتقام فى نفوسها... وهكذا، وإن لم يعن هذا أن الشعراء جميعا كانوا يفعلون كل ذلك، وفى كل الظروف والأوقات، بل كان هناك شعراء لا يتغنَّوْن إلا بما يجدونه فى قلوبهم بوصفهم أفرادا فى دنيا البشر لا أعضاء فى قبيلة معينة، كما كان هناك أيضا شعراء متمردون يشذون عن قبيلتهم فتخلعهم كما هو الشأن مثلا فى شعراء الصعاليك. هذا ما أفهمه من كلام ابن رشيق، أما الاحتفال بنبوغ الشعراء فى العصر الجاهلى فلا أدرى كيف يمكن تحديد الوقت الذى ينبغ فيه شاعر ما: أبأول شعر يقوله؟ لكن هذا ليس ما يُفْهَم من كلمة "نبوغ"! أم يكون بانتشار شهرته؟ لكن أمن الممكن تحديد وقت معين لذلك؟ أم يرجع الأمر إلى لجنة تعلن أنه بلغ النبوغ الشعرى؟ لكن متى كان الجاهليون يعرفون نظاما كهذا؟ الواقع أننا كيفما قلبنا تلك العبارة فلن نصل منها إلى شىء محدد يريح البال. ولهذا

كله أرى أن المقصود بها هو معناها الرمزى الذى أشرت إليه آنفا، وهو أن الشاعر الجاهلى كان بوجه عام ذا مكانة عالية بين قومه للأسباب التى ذكرناها.

أما قول نيلدكه إن الشاعر الجاهلى كان "نبى قبيلته وزعيمها فى السلم وبطلها فى الحرب، تَطْلُب الرأى عنده فى البحث عن مَرَاعٍ جديدة، وبكلمته وحدها تُضْرَب الخيام وتُحَلّ، كما كان يحدو الرحالة العطاش فى التنقيب عن الماء" (انظر حنا الفاخورى/ تاريخ الأدب العربى/ ٥٩) فكلام غير صحيح، إذ ها هم أولاء شعراء الجاهلية بين أيدينا، وقد قرأنا أشعارهم وتراجمهم فلم نجد شيئا مما يزعمه نيلدكه. إنما كانت قيادة القبيلة لشيخها، فإن تصادف أن كان شاعرا فبِها ونِعْمَتْ كما هو الوضع فى حال كُلَيْب بن رَبِيعة والفِنْد الزِّمّانى وعمرو بن كلثوم وأُحَيْحَة بن الجَلاّح ودُرَيْد بن الصِّمّة، وإلا فالشاعر فرد من أفراد القبيلة يسمع ما انتهى إليه قرارها ويلتزم به كما يلتزم غيره، مع رعاية مكانته المتميزة كما قلنا. وإلا فقد كان عنترة شاعرا، وشاعرا كبيرا، فهل كان قبيلته تتبع خطاه وترى ما يراه؟ كما كان طرفة أيضا شاعرا، ولم تكن قبيلته تعيره أدنى اهتمام من جهة الرياسة والرأى، إذ كان شابا لاهيا عابثا يصطدم بها ولا ينسجم مع أوضاعها حتى لِيمَ على تمرده لوما شديدا سجله هو نفسه فى معلقته. ولدينا الأعشى وزهير والنابغة وحسان، وغيرهم كثيرون من شعراء الجاهلية، ولم نقرأ أن أيا منهم كان سيد قبيلته يوما. ثم لقد كان هناك شعراء

رحالة ينتجعون الممدوحين، فهل كان على قبائلهم إذا ما ألمت بها مُلِمَّةٌ أن تنتظرهم حتى يؤوبوا من أسفارهم فيشيروا عليها بما ينبغى أن تصنعه؟ كما أن القبيلة الواحدة كثيرا ما كان لها أكثر من شاعر، فمن منهم يا ترى كان هو السيد المطاع الذى تأخذ برأيه وتنصاع لمشورته؟ أم هل كان لكل قبيلة شيوخٌ عِدّة؟ وما القول فى الشعراء المتمردين على قبائلهم؟ أكانت تلك القبائل تتخذ منهم شيوخا لها رغم ذلك؟ وأخيرا متى كانت الموهبة الشعرية والشخصية الحكيمة المهيبة التى تعنو لها رقاب الآخرين صِنْوَيْن متلازمين حتى يكون كل شاعر جاهلى سيدا لقبيلته بالضرورة؟ ألا ما أكثر ما يشيع فى دنيا الأدب العربى من مقولات (وبخاصة ما كان منها صادرا عن المستشرقين) إذا ما تحراها الدارس أو وقف إزاءها وقفة المتسائل فسرعان ما ينكشف زيفها وما فيها من مجافاة للمنطق ووقائع الحياة!

القَصَص

ينقل د. أحمد أمين فى كتابه: "فجر الإسلام" (ط١٢/ مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٧٨م/ ٣٦) عن المستشرق البريطانى ديلاسى أوليرى (**De Lacy O'Leary**) فى كتابه: "**Arabia Before Muhammad**" أن العربى ضعيف الخيال جامد العواطف، لكنه يعقب على ذلك بأن الناظر فى شعر العرب، وإن كان لا يرى فيه أثرا للشعر القصصى أو التمثيلى أو الملاحم الطويلة التى تُشِيد بذِكْر مفاخر الأمة كـ"إلياذة" هوميروس و"شاهنامة" الفردوسى، يلاحظ رغم ذلك براعة الشاعر العربى فى فن الفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز، وهو مظهر من مظاهر الخيال. كما أن بكاء ذلك الشاعر للأطلال والديار، وذِكْره للأيام والحوادث، ووَصْفه لشعوره ووجدانه، وتصويره لالتياعه وهيامه، كل ذلك دليل على تمتعه بالعواطف الحية.

ويردد أحمد حسن الزيات شيئا قريبا مما نقله أحمد أمين عن أوليرى، وإن اختلفت مسوِّغاته، إذ من رأيه أن مزاولة هذا الفن تقتضى الروِيّة والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال، كما تتطلب الإلمام بطبائع الناس، وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم، فضلا عن احتياجها إلى التحليل والتطويل، على حين أنهم أشد الناس اختصارًا للقول، وأقلهم تعمقًا في البحث،

مع قلة تعرضهم للأسفار البعيدة، والأخطار الشديدة. ثم إن هذا الفن هو نوع من أنواع النثر، والنثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر، وفكّر في تدوين شيء من القصص (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ ٣١، ٣٩٣).

بَيْدَ أن عددا من كبار النقاد ومؤرخى الأدب عندنا تولّى تفنيد هذه التهمة المتسرعة: ومن هؤلاء الدكاترة زكى مبارك، الذى أكد أن العرب "كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون" (د. زكى مبارك/ النثر الفنى فى القرن الرابع/ دار الكتب المصرية/ ١٩٣٤م/ ١/ ١٩٧). كما رد عمر الدسوقى باستفاضة فى كتابه: "فى الأدب العربى الحديث" (مطبعة الرسالة/ ١٩٤٨م/ ٣٣١- ٣٤٧) على هذه الفِرْية العنصرية وأدحضها على أساسٍ علميّ وفلسفيّ مبينا أن ما كتبه العرب وما ترجموه من قصصٍ فى القديم والحديث ينبئ بجلاء عما يتمتعون به من خيال ومهارة فنية فى هذا السبيل. بل يذهب أحمد أمين أيضا إلى أنه كانت هناك صلة بين عرب الجاهلية وآداب غيرهم من الأمم كالإغريق والفرس تمثلت فى أهم

أخذوا بعض القَصَص فاحتفظوا به يروونه ويتسامرون به على الحال التى نقلوه عليها دون تبديل، أو صاغوه فى قالب يتفق وذوقهم، علاوة على قصصهم الأصيل الذى لم يأخذوه عن غيرهم مما نجده فى "أيام العرب" وما يسميه بـ"أحاديث الهوى" (انظر د. أحمد أمين/ فجر الإسلام/ ٦٦- ٦٨).

ويقول محمود تيمور فى كتابه: "محاضرات فى القصص فى أدب العرب: ماضيه وحاضره" (معهد الدراسات العربية العالية/ القاهرة/ ١٩٥٨م/ ٢٦): "سارعنا إلى الإنكار على الأدب العربى أن فيه قصة، وما كان ذلك الإنكار إلا لأننا وضعنا نُصْبَ أعيننا القصةَ الغربيةَ فى صياغتها الخاصة بها وإطارها المرسوم لها ورجعنا نتخذها المقياس والميزان، وفتشنا عن أمثالها فى أدبنا العربى فإذا هو خِلْوٌ منها أو يكاد. وشَدَّ ما أخطأنا فى هذا الوزن والقياس، فللأدب العربى قَصَصٌ ذو صِبْغةٍ خاصةٍ به وإطارٍ مرسومٍ له، وهو يصور نفسية المجتمع العربى وخلاله فلا يقصّر فى التصوير. وإننا لنشهد فيه ملامحنا وسماتنا وضّاحة، وكأننا لم نفقد فى مجتمعنا العربى حتى اليوم ما يكشف عنه ذلك القَصَص من ملامحَ وسماتٍ على الرغم من تعاقب العصور وتطاول الآماد. وهو فى جوهره وثيق الصلة بالوشائج الإنسانية التى هى جوهر القَصَص الفنى، وإنْ تباينت الصياغة واختلف الإطار". ومن الطريف أن تيمور كان يرى

عكس هذا الرأى قبلا زاعما أن البيئات الصحراوية ينقصها الخيال وأن ما تركه لنا العرب فى هذا الميدان شىء ضئيل لا قيمة له، وإنْ صنّف هذا التراث رغم ذلك إلى قَصَصٍ عاطفى وقَصَصٍ حربىّ وبطولىّ وقَصَصٍ علمىّ فلسفىّ (انظر محمود تيمور/ نشوء القصة وتطورها/ المجلة الجديدة/ سبتمبر ١٩٣٦م/ ٥٢، ٥٤- ٥٦، ٦١، ومقدمته لمجموعة "الشيخ سيد العبيط"/ المطبعة السلفية/ القاهرة/ ١٩٢٦م/ ٤١).

وفى ذات السياق يبدى محمد مفيد الشوباشى استنكاره من أنه "لا يزال بيننا أناس ينكرون على العرب كل ميزة حضارية وينظرون بعين الاستهانة والازدراء إلى آياتهم الباهرة فى ميادين الأدب والفن والعلم. وقد شملت استهانتهم وزرايتهم، فيما شملتا، القصةَ العربية القديمة! وسَنَدهم فى هذا أن قِصَص العرب كانت إما أخبارا أو حكايات أو شعرا روائيا، فهى لا تشبه القصة الحديثة التى نعرفها بحال، وعلى ذلك لا تستحق أن تسمى: قِصَصًا" (محمد مفيد الشوباشى/ القصة العربية القديمة/ سلسلة "المكتبة الثقافية"/ إبريل ١٩٦٤م/ ٣). وبحقّ يقرر د. محمد حسين هيكل أن فن القصص قد عرفته جميع الأمم القديمة والحديثة، وأن "القصة"، كما نعرفها اليوم، ليست إلا شكلا من الأشكال التى اتخذها هذا الفن على مدى تاريخه الطويل، وأن هذا الشكل سوف

يتطور ولا شك فى المستقبل إلى صور وألوان أخرى. أما بالنسبة إلى الأدب العربى القديم فهو يؤكد حُفُوله بالأعمال القصصية المعبرة عن أوضاعِ العصور التى ظهرت فيها وملامحِها شعرا ونثرا (انظر د. محمد حسين هيكل/ ثورة الأدب/ ط٣/ مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٦٥م/ ٦٧- ٧٣. وانظر كذلك مقاله: "رأى فى القصة العربية"/ الهلال/ أغسطس ١٩٤٨م/ ١١٦).

ويفيض د. محمود ذهنى، على مدى عشرات الصفحات من كتابه: "القصة فى الأدب العربى القديم"، فى مناقشة دعوى افتقار الذهن العربى إلى الخيال وخلو أدبنا القديم من الفن القصصى، مقدما عددا من الأدلة العقلية والنصوصية: منها مثلا ما ورد فى كتب التاريخ والحديث والتفسير من روايات عن النضر بن الحارث، الذى كان يحارب دعوة الرسول عليه السلام من خلال جلوسه مجلسه صلى الله عليه وسلم بين مشركى قريش وتلاوته عليهم حكايات الأكاسرة وقُوّادهم ورجال دولتهم بغية صرف قلوبهم عن الدين الجديد ومحاولة تخليصهم من تأثيركتابه المعجز. ومنها ورود كلمات "قَصَّ" و"يقُصّ" و"قصة" و"قَصَص" فى لغة العرب وكتاباتهم مما يدل على معرفتهم بهذا اللون من الأدب. ومنها ما يقوله المؤرخون من أنه كان لمعاوية رجال موكَّلون بالكتب التى تتحدث عن

أخبار العرب وسياسات الملوك الماضين يقرؤونها عليه كل ليلة. ومنها امتلاء كتب الأدب العربى بالحكايات والنوادر والقصص التى تدور حول عاداتهم وأحوال معيشتهم ومعاركهم وأساطيرهم، أو حول أخبار العجم وملوكهم وسيرتهم فى رعاياهم، أو حول المغامرات والمكايد التى يحيكها البشر بعضهم لبعض... إلخ (انظر كتابه: "القصة فى الأدب العربى القديم"/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ١٩٧٣م/ ٥٣- ١٤٤). والواقع أن ما قاله د. ذهنى صحيح مائة فى المائة، فمن يرجع إلى كتب الأدب العربى القديم سوف يهوله المقدار الضخم للقِصَص التى تتضمنها تلك الكتب، وكثير منها يعود إلى العصر الجاهلى أبطالاً وموضوعاتٍ وتواريخ. ومن يُرِدْ أن يتحقق من هذا يمكنه مثلا النظر فى كتاب "قصص العرب" لمحمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى بأجزائه الثلاثة، وهذا الكتاب يحتوى على مئات من القصص يخصّ العصرَ الجاهلىَّ منها قدرٌ غير قليل، وإنْ لزم القول بأنه لا يتضمن مع ذلك جميع القصص العربية ولا معظمها بل عيّنات منها فحَسْب، كما أنه لا يتعرض للقصص الطويلة بحال، بل يجتزئ بالقصص ذات الحجم الصغير، تلك القصص التى ينطبق على عدد غير قليل منها شرائط القصة القصيرة كما نعرفها الآن. وهذا مجرد مثال ليس إلا.

وعلى أساسٍ مما مر ينبغي أن نقرأ ما كتبه فاروق خورشيد من أن "العلماء مُجْمِعون على أن العرب فى الجاهلية كانت لهم قصص كثيرة ومتعددة، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التى تدور حول أجدادهم وملوكهم وفرسانهم وشعرائهم. وكتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى يكاد يكون ذخيرة كاملة من القَصَص الذى تتناقله الناس عن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم... وليس كتاب "الأغانى" هو المرجع الوحيد فى هذا، بل إن المكتبة العربية غنية بأمثال "الأمالى" و"صبح الأعشى" و"العِقْد الفريد" و"الشعر والشعراء" وكتب التراجم والطبقات بما لا يدع مجالا للشك فى أن الفن القصصى قد تناول الحياة الجاهلية فى كل مظاهرها، إلا أن الدارسين المُحْدَثين رفضوا بكل بساطة أن يعتبروا هذه القصص فنا نثريا مميزا له أصوله الجاهلية، واعتمدوا فى هذا على أن كل هذه الكتب إنما دُوِّنتْ فى العصر العباسى الذى يبعد بعدا زمنيا كبيرا عن العصر الجاهلى". ويمضى فاروق خورشيد مبينا أن الذين قاموا بتدوين أخبار الجاهليين فى العصر العباسى قد اعتمدوا، إلى جانب الرواية والحفظ، على ما خلفته الجاهلية من كتابات ومدوَّنات، إذ كان التدوين والكِتَاب معروفين عند الجاهليين، "فقد يكون من المعقول" كما يقول "أن ينقل الراوى قصيدة شعر، أما أحداث تاريخ وحكاية حياة

فهذه تحتاج إلى تدوين فى نقلها" (فاروق خورشيد/ فى الرواية العربية/ ط٣/ دار الشروق/ ١٤٠٣هـ- ١٩٨٢م/ ٢٧-٢٨). بل إنه ليرى أنّ "الفن الجاهلى الأول كان هو القصة والرواية، أما ما عدا هذا من صُوَرٍ كالخطابة والسجع فلا تعدو أن تكون استجابة لحاجة مؤقتة من حاجات الحياة، ودَرْسُها أقرب إلى دَرْس اللغة منه إلى دَرْس الأدب" (المرجع السابق/ ٧٤). ومن كلام خورشيد هذا نخرج بأن عرب الجاهلية لم يكونوا يعتمدون فى حفظ قصصهم على الذاكرة فقط بل على الكتابة فى المقام الأول.

فإذا جئنا إلى الدكتور شوقى ضيف وما أثبته فى كتاب "العصر الجاهلى" فى هذا الصدد ألفيناه يؤكد أن عرب الجاهلية "كانوا يشغفون بالقصص شغفا شديدا، وساعدهم على هذا أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حين يُرْخِى الليلُ سدولَه يجتمعون للسمر، وما يبدأ أحدهم فى مضرب من مضارب خيامهم بقوله: "كان وكان" حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعضهم معه فى الحديث. وشباب الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدَّرات وراء الأخبية، كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة"، بَيْدَ أنه يستمر قائلا إنهم لم يكونوا يدونون قَصَصهم، بل يتناقلونه شفاها، إلى أن تم تدوينه فى العصر العباسى، ومن ثم لم يصلنا كما كان الجاهليون

يروونه. وهذا نص كلامه: "ليس بين أيدينا شيء من أصول هذا القصص الذى كان يدور بينهم، غير أن اللغويين والرواة فى العصر العباسى دوّنوا لنا ما انتهى إليهم منه. وطبيعى أن تتغير وتتحرّف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلة التى قطعتها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته" (العصر الجاهلى/ ٣٩٩). فعندنا إذن من يقول إن الجاهليين كانوا يدونون تاريخهم وقصصهم كتابة، ومن يقول إنهم لم يكونوا يصنعون شيئا من ذلك. وصاحب هذا الرأى الأخير، وهو الدكتور شوقى ضيف، لا يكتفى بذلك بل يردّ ما جاء عن هشام بن محمد الكلبى من أنه رأى فى بِيَع الحيرة بعض مدوَّناتٍ استخرج منها تاريخ العرب، لأنه متهم فى كثير مما يرويه على حد تعبيره. وهو ما لا يُعَدّ دليلا كافيا، إذ حتى لو كان هذا الاتهام صحيحا فليس معناه أنه كان يكذب فى كل شيء ولا يقول الصدق أبدا، وبخاصة أن ما قاله عن مدوَّنات الحيرة لا يدخل فى باب الخرافات التى لا يقبلها العقل، فقد كان من العرب من يكتب حسبما هو معروف لنا جميعا، وبالذات فى مملكة الحيرة التى كانت تتبع إمبراطورية الفُرْس أصحاب الكتابة والسجلات والدواوين.

وقد أوردنا فى الفصل الخاص بالشعر الجاهلى من هذا الكتاب أنه كان لدى ملوك الحيرة ديوان يضم أشعار فحول الجاهلية ومدائح من مدحهم من شعرائها، وهو يظاهر ما قاله ابن الكلبى ويعضّده. أما قول الأستاذ الدكتور عقب ذلك إنه "حتى لو صحت روايته فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدوَّنات لم يكن مكتوبا بالعربية، إنما كان مكتوبا بالسريانية، التى كانت شائعة فى الحيرة قبل الإسلام" فهو مصادرة على المطلوب، إذ معنى كلامه هذا أن كلام ابن الكلبى ليس صحيحا لأنه ليس صحيحا. كيف؟ إنه، بعد أن يفترض أن ما قاله ذلك العالم المسلم صحيح، يعود فيقول إنه لا يمكن أن تكون الكتابات التى رآها عربية بل سريانية. وهو ما يفيد أنه لا يزال يكذب لأنه إنما كان يقصد أنه قرأ ذلك بالعربية، إذ لم يكن يعرف السريانية، وإلا لعُرِف ذلك عنه أو لقال إنه استعان فى الاطلاع على ما فيها بمن يعرف السريانية. كما أن سياق الكلام يدل على أن المراد كتابات عربية. ومعنى هذا أنه يقول إنه قرأ الكتابات المذكورة بالعربية، على حين يقول واقع الأمر إنها كانت مكتوبة بالسريانية التى لم يكن يعرفها. أى أنه لم يقرأها على هذا الاحتمال أيضا، وأنه قد كذب هنا كذلك! لكن هل يمكن أن يكون ما قاله د. شوقى فى حق ابن الكلبى سليما؟ أما أنا فلست أستطيع أن أوافق أستاذى الذى أكن له

كل الاحترام لأن الذى أعرفه أن مملكة الحيرة كانت مملكة عربية، فلماذا تتحدث مملكة كهذه بلسان السريان لا بلسان العرب؟ كما أن الشعراء العرب الكبار فى الجاهلية كانوا يقصدون ملوكها ويمدحونهم أيضا بالعربية لا بالسريانية، والأستاذ الدكتور لا ينكر هذا بل يثبته فى كتبه التى تتعرض لشعر تلك الحقبة ككتابه الذى بين أيدينا وكتابه عن "الفن ومذاهبه فى الشعر العربى" مثلا. وفوق هذا فإن أسماء ملوكها أسماء عربية لا سريانية. أما إن ثبت مثلا (أقول: مثلا!) أن السريانية كانت تستعمَل فى بعض الطقوس الدينية فهذا شىء آخر غير ما نحن بصدده. إذن فلماذا يجب أن يكون القصص المذكور مكتوبا هو بالذات بالسريانية؟

وثمة خبر كذلك أورده المسعودى فى "مروج الذهب" عن معاوية يدل على أنه كان هناك منذ خلافته على الأقل تدوينٌ كتابيٌّ لما كان الجاهليون يروونه من قصص وحكايات وأسمار، وأن هذا التدوين من ثَمَّ لم ينتظر حتى مجىء العصر العباسى كما يقول د. شوقى ضيف. وهذا هو النص المذكور، وقد ورد فى سياق كلام المسعودى عن المنهج الذى كان معاوية يتبعه فى إنفاق ساعات يومه نهارا وليلا، وهو خاص بسماع العاهل الأموى أخبار العرب وأيامها فى الجاهلية: "ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم

وملوكها وسياستها لرعيتها وسِيَر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطُّرَفُ الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتَّبون، وقد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها، فتمرّ بسَمْعه كلَّ ليلة جُمَلٌ من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم". ولدينا أيضا كتاب "أخبار عَبِيد بن شَرِيّة الجُرْهُمِيّ في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"، الذى سجل فيه مؤلفه ما كان يقع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان من حوارات تاريخية، وكان معاوية قد استقدمه ليستمع منه إلى أخبار ملوك اليمن. ويذكر ابن النديم أن عَبِيدًا وَفَد على معاوية فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأَمْر افتراق الناس في البلاد، وكان قد استحضره من صنعاء اليمن، فأجابه إلى ما سأل، فأمر معاوية أن يدوَّن ذلك ويُنْسَب إلى عبيد. وهو الكتاب الذى يؤكد المسعودى أن صاحبه هو الوحيد الذى صح وفوده على معاوية من رواة أخبار الجاهلية. قال: "ولم يصحّ عند كثير من الأخباريين من أخبار من وَفَد على معاوية من أهل الدراية

بأخبار الماضين وسير الغابرين العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر عَبِيد بن شَرِيّة وإخباره إياه عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعُّب الأنساب. وكتاب عَبِيد بن شرِيّة متداوَل في أيدي الناس مشهور".

ترى هل بإمكاننا القول بأن تدوين القصص الجاهلى لم يتأخر به الزمن إلى عصر العباسيين على عكس ما يقول به د. شوقى ضيف؟ ذلك أننا هنا أمام دليل مكتوب يقول إن هذا التدوين قد بدأ منذ أول العصر الأموى، وإن كنا لا نستطيع الجزم على وجه اليقين كما صنع فاروق خورشيد بأن ذلك التدوين قد بدأ فى الجاهلية فعلا، بالضبط مثلما لا نستطيع الجزم بعكسه أيضا. لكن إلى أى مدى نستطيع القول بأن ما كتبه عَبِيد بن شَرِيّة هو قصص جاهلى فعلا؟ إنه يتحدث مثلا عن قوم عاد وما أنزله الله بهم بسبب عصيانهم وكفرهم كما نقرأ فى القرآن المجيد، فهل كان الجاهليون يعرفون ما أورده القرآن فى هذا الصدد من تفصيلات زادتها القصة تفصيلات أخرى كثيرة لم ترد فى الكتاب المجيد؟ وهل كانوا يعرفون فى ذلك الصدد مثل التعبير التالى: "سبع ليال وثمانية أيام حسوما حتى تركتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية" حسبما ورد فى كتاب عبيد، وهو تعبير قرآنى ورد فى سورة "الحاقّة" عند رواية المولى سبحانه قصة هلاكهم؟ ومن ثَمّ فهل نَعُدّ ما تركه لنا عبيد

قَصَصًا جاهليًّا أضاف هو إليه تفصيلات إسلامية؟ أم هل نعده قصصا إسلاميا تام الإسلامية على أساس أن الجاهليين، وإن كانوا قد سمعوا بعاد، لم يكن عندهم علم بما وقع بهم تفصيلا من مصائبَ جَرّاءَ كفرهم وتمردهم؟ هذا أمر من الصعب البَتُّ فيه. كذلك لا بد من الإشارة إلى أن القَصَص الجاهلى لم يكن نثرا فحسب، بل كان شعرا أيضا. كما أن كثيرا من القصص العربى المأثور عن الجاهلية أو الذى يتخذ من الجاهلية موضوعا له يختلط فيه الشعر والنثر، وليس نثرا صافيا.

وأول شيء نتعرض له الآن هو: ما مدى تطابق هذه النصوص القصصية مع ما تركه لنا الجاهليون من تلك النصوص؟ فأما النصوص القصصية الشعرية فيغلب على الظن أنها أقرب إلى ما تركه العرب فعلا، على أساس أن الشعر سهل الحفظ بسبب ما يقوم عليه من تركيز ونغم موسيقى، اللهم إلا إذا ثبت أن ثمة تزييفا أو تلاعبا فى النص. وأما النصوص النثرية فحتى لو قبلنا ما تقوله بعض الروايات من أنه كان هناك قصص جاهلى مكتوب فإن هذا لا يسوغ أبدا إطلاق مثل ذلك القول وتعميمه على كل القصص، إذ كانت الكتابة فى الجاهلية محصورة فى نطاق ضيق مما يستبعد الدارس معه التوسع فى كتابة مثل تلك النصوص التى لا علاقة لها بالمعاهدات أو الرسائل الرسمية وما أشبه، وبخاصة إذا علمنا أن مواد الكتابة لدى

العرب آنذاك كانت نادرة وبدائية فى غالب الأمر. كذلك قد يقال إن الأسلوب الذى صيغت به تلك النصوص القصصية لا ينسجم بوجه عام مع ما نعرفه من النصوص النثرية الجاهلية على قلتها من خطبٍ وأمثالٍ وأسجاعِ كهانٍ، بل ينسجم بالأحرى مع الكتابة العربية بعد تطورها فى العصر العباسى الذى دقت فيه الأفكار ولانت فيه الأساليب ورقت وتلونت ووضح فيها روح التحضر، إلا أنه يمكن مع هذا الرد بأن أسلوب القصص بطبيعته أسلوب بسيط منساب لا يعرف الوعورة ولا الاحتفال اللذين نجدهما فى كثير من الأشعار والخطب الجاهلية أو غير الجاهلية. لكن إلى أى مدى ابتعدت تلك النصوص عن الروايات الأصلية التى كان يتداولها أهل الجاهلية؟ الواقع أنه يصعب جدا، بل يستحيل فى الظروف الحالية القطع بشىء من هذا، وإن كنا نتصور أن الموضوعات قد بقيت كما هى أو ظلت قريبة مما كانت عليه فى الأصل. أما سبب القطع بأن تلك النصوص قد نالها قدر من التحوير فذلك راجع إلى أنها نصوص نثرية لا تعلق بالذاكرة علوق الشعر، الذى رأينا فى الفصل الخاص به أنه هو أيضا لم يسلم تماما من التغييرات الراجعة إلى ما يعترى الذاكرة البشرية من ضعف أو التباس على الأقل. كما أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى بذل الجهد والاهتمام فى حفظ النصوص القصصية مثلما هو الحال

فى القرآن الكريم، وكذلك حديث النبى عليه السلام ولكن بدرجة أقل، ولا كانت النصوص القصصية مسجوعة كمواعظ الحنفاء وأحاديث الكهان، أو قصيرة موقَّعة كالأمثال. وفضلا عن هذا فإن القَصَص الجاهلى لا يرتبط بشخص بعينه قد ألّفه على عكس الشعر الذى يُنْسَب، إلا فى الشاذ النادر، إلى هذا الشخص أو ذاك، أما القِصَص فإنها فى الأغلب نتاج جماعى، والجماعة لا تهتم بالتدقيق فى حفظ إبداعها قدر اهتمام الأفراد بإنتاجهم كما هو معروف. بل إنى لأؤكد أن القصاصين أنفسهم هم أول من أدخل التحويرات والتغييرات فى تلك النصوص طبقا لما هو معروف من حكايتهم لها كل مرة بطريقة مختلفة قليلا أو كثيرا عن المرة السابقة بحكم ضعف الذاكرة البشرية والحالة النفسية التى يكونون عليها والجو الذى يحيط بهم أثناء قيامهم بعملية القص... إلخ. فإذا كان هذا هو حال المبدع نفسه، فما بالنا براوى هذا الإبداع؟ ويبقى البناء الفنى لهذا القصص الجاهلى، ولا أظننا بقادرين على البت فى السؤال الخاص بمدى بقاء ما وصلنا من قصص جاهلى على حالته الفنية التى خلّفها لنا قُصّاص الجاهلية. ذلك أننا لا نملك أى مستندات كتابية تصور لنا ما لحقه من تطور رغم ما قيل من أنه كانت هناك بعض الوثائق القصصية المكتوبة التى تركها لنا

الجاهليون فى هذا الفن يوما، إذ العبرة بما فى اليد الآن لا بما كان فى أيدى القدماء.

والآن إلى الموضوعات التى تناولتها القصة الجاهلية. ولسوف نسترشد بما اشتمل عليه كتاب "قَصَص العرب" الذى سلفت الإشارة إليه على رغم علمنا بأنه لا يقتصر على القصص الجاهلى وحده. ذلك أن ما يصدق على قصص العرب فى الإسلام من هذه الناحية يصدق أيضا بوجه عام على قصصهم قبله، اللهم إلا ما كان مختصا بهذا أو ذاك دون قَسِيمه، وهو أمر من السهل معرفته فى معظم الأحيان لأول وهلة. ومن ينظر فى فهرس الكتاب الذى نحن بصدده يجد أن أصحابه قد قسموا القصص العربية إلى: قِصَصٍ تستبين بها مظاهرُ حياتهم وأسبابُ مدنيتهم بذكر أسواقهم وأجلاب تجارتهم والمساكن التى كانت تؤويهم وسائر ما كان على عهدهم من دلائل الحضارة ووسائل العيش، وقِصَصٍ تتضمن معتقداتهم وأخبار كهانهم وكواهنهم وتبسط ما كانوا يعرفون من حقائق التوحيد والبعث والدار الآخرة وما كانوا يتوسلون به من إقامة الأوثان وتعهدها بألوان الزُّلْفَى والقربان، وقصص تجلو علومهم ومعارفهم وتتوضَّح منها ثقافتهم وما كان متداوَلا بينهم من مسائل العقل والنقل التى هدتهم إليها فطرهم أو ألهمتها إليهم تجارِبهم، وقصص يُرَى منها ما كانوا يتغَنَّوْن به من المكارم

والمفاخر وما كانوا يتذمَّمون بـه مـن المنـاقص والمعَـرّات سـواء أكان ذلك يتصل بكل منهم فى نفسـه أم فيمـا يتصـل بـالأقربين من ذَوِيه أم فيما يضم أهل قبيلته أم فيمـا يشـمل النـاس جميعـا، وقصص تعدد غرائزهم وخصالهم فتكشف مـا طُبِعـوا عليـه مـن وفرة العقل وحدة الذكاء وصـدق الفراسـة وقـوة الـنفس ومـا أهّلتهم له طبيعة بلادهم وأسلوب حيـاتهم مـن شـريف السـجايا وممدوح الخصال، وقصص تشرح مـا أُثِـر عنـهم مـن عـادات وشمائل فى الأسباب الدائرة بينهم وتبين مـا انتـهجوه فى مـواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وأعراسـهم ممـا يمثـل حيـاتهم الاجتماعيـة أصدق تمثيل، وقصص تمثل أحوال المرأة العربية ومـا تجـرى عليـه فى تربية أطفالها ومعاشـرتها زوجهـا ومعاونتـها لـه فى الحيـاتين الاجتماعية والمدنيـة بالسـعى فى سـبيل الـرزق والاشـتراك فى خوض معامع الحـروب والأخـذ بقسـط مـن الثقافـة الأدبيـة السائدة فى ذلك العهد، وقصص تمثـل ذلاقـة لسـانهم وحكمـة منطقهم وما ينضاف إلى ذلك من فصـاحة اللفـظ وبلاغـة المعـنى وجمال الأسلوب وحسن التصرف فى الإبانـة والتعـبير، وقصـص تَسرُد بـارع مُلَحهـم ورائـع طُـرَفهم فى جوابـاتهم المـسْكِتة وتصرفاتهم الحكيمة وتخلصاتهم اللبقـة ممـا يـدل علـى حضـور الذهن وسرعة البديهة وشدة العارضة، وقصص تعـرب عمـا يقـع بين العامة والملوك والقواد والرؤساء والقضـاة ومـن إلـيهم مـن

كل ذى صلة بالحكم والحكّام مما يتناول حِيَلهم فى المنازعات والخصومات ويوضح طرائقم فى رفع الظُّلامات ورَجْع الحقوق وما يجرى هذا المجرى، وقصص تصور احتفاظهم بأنسابهم واعتزازهم بقبائلهم وتمجيدهم للأسلاف وتعديدهم ما تركوا من مآثر وما أدى إليه ذلك من مفاخر ومنافرات، وقصص تنقل ما كانوا يتفكهون به من أسمار ومطايبات ومناقدات وأفاكيه مما نال به المحدِّثون والندماء سَنِىّ الجوائز والخِلَع من الخلفاء والوزراء وما ارتفعت به مكانتهم عند السادة والوجوه فى المجتمعات والمنتديات، وقصص تؤرخ مذكور أيامهم وتفصّل مشهور وقائعهم ومقتل كبرائهم وتصف الحروب والمنازعات التى كانت تدور بين قبائلهم أخذا بالثأر وحماية للذِّمَار، وقصص تحكى ما كان للجند من أحداث وأحاديث فى الغارات والغزوات والفتوح مصوِّرةً نفسياتهم وأحوالهم واصفةً تطوراتهم العقلية والخلقية بنشأة الدولة العربية وانفساح رقعتها مفصِّلةً عُدَدهم وآلاتهم وأسلحتهم فى حياتهم الجديدة. ومن الواضح مثلا أن العناوين التى يرد فيها ذكر الخلفاء أو الوزراء أو الدولة العربية وحياتهم الجديدة هى من القصص التى تنتمى إلى تاريخهم الإسلامى لا الجاهلى. ومن الواضح أيضا أن واضعى الكتاب قد ركزوا فى تلك العناوين على الجوانب الطيبة فى الشخصية العربية تعصبا منهم للعرب، وكأن العرب

كانوا بلا عيوب، وهو ما يكذبه الواقع ومنطق الحياة، بل يكذبه قبل ذلك كله ما نقرؤه فى تلك القصص نفسها التى بين أيدينا، وإن كنا نتفهم الدوافع التى حَدَتْ بالمؤلفين إلى انتهاج تلك الخطة، إذ كانوا يرَوْن الهجوم الظالم الذى يشنه على أمة العرب أعداؤها الخارجيون وأذنابهم من بين أَظْهُرنا فى الداخل، فأرادوا أن يقولوا إن العرب لم يكونوا يوما بهذا السوء الذى يصورهم به هؤلاء وهؤلاء، بل كانت لهم دائما حسناتهم الباهرة وإنجازاتهم الرائعة المعجبة التى يضارعون بها كثيرا من الأمم الأخرى، إن لم يتفوقوا فيها عليهم.

وقد رجع واضعو الكتاب إلى عشرات الكتب التراثية كى ينقلوا منها ما ضمّنوه كتابهم من قصص. والناظر فى عناوين المراجع والمصادر المذكورة فى فهارس ذلك الكتاب يجد أن بعض تلك الكتب تاريخى، وبعضها أدبى، وبعضها قصصى، وبعضها يتعلق بسيرة هذا الشخص أو ذاك، وبعضها من كتب الأمالى، وبعضها من الكتب التى تشرح الأمثال، وبعضها من كتب الموسوعات، وبعضها من كتب الطرائف، وبعضها من دواوين الشعر ومجموعاته وشروحه، وبعضها من كتب التراجم العامة أو الخاصة، وبعضها من كتب السياسة، وبعضها من كتب الشواهد اللغوية... إلخ. ولعل من المستحسن أن نورد هنا بعض أسماء تلك الكتب: فمنها مثلا "أخبار الأذكياء" لابن

الجوزى، و"الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، و"الأمالى" للشريف الرضى، و"الأوراق" للصُولى، و"بلاغات النساء" لأحمد بن أبى طاهر، و"جمهرة أشعار العرب" لأبى زيد الخطابى، و"الحيوان" للجاحظ، و"زهر الآداب" للحصرى، و"صبح الأعشى" للقلقشندى، و"العقد الفريد" لابن عبد ربه، و"الكامل فى الأدب" للمبرِّد، و"الكامل فى التاريخ" لابن الأثير، و"المحاسن والمساوئ" للبيهقى، و"المستطرَف من كل فن مستظرَف" للأبشيهى، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموى، و"نقائض جرير والفرزدق" لأبى عبيدة، و"نهاية الأَرَب" للنويرى... وهلمّ جَرًّا.

والآن إلى شواهد من القَصَص الجاهلى الذى أوردتْه لنا كتب الأدب ودواوين الشعر: ونبدأ بقصيدتَىْ تـأبَّطَ شَرًّا فى لقائه بالغول حيث يتحدث عن ذلك الوحش الخرافى حديث المصدِّق بوجوده، إذ كان الإيمان بالغول واحدا من الاعتقادات الجاهلية. وقد يكون تأبط شرا توهَّم رؤية الغول فعلا ثم أضاف إلى وهمه بعض التفاصيل والتحابيش، أو يكون قد اخترع القصة كلها اختراعا، وقد...، وقد... إلا أن الأبيات مع ذلك تصور اعتقادا كان سائدا بين الجاهليين كما ذكرنا، أو فلنقل: إنها تصور خرافة من خرافاتهم. ومعروف أن أهل الريف فى بلادنا إلى وقت قريب كانوا هم أيضا يؤمنون بالغول، وأذكر

أننى كنت فى طفولتى أرتعب من ذكر تلك الغول، إذ كان اعتقادنا أنها تنبش القبور وتأكل جثث الموتى، فكنت أتخيلنى وقد مِتّ ووُسِّدْتُ الثرى فى القبر وتركنى أهلى ومضَوْا إلى بيوتهم لتنفرد بى الغول فى الظلام تأكل لحمى أكلا وتنهش عظامى نهشا، وأنا من العجز فى حالة تامة! وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الاعتقاد قد تقلص إلى حد بعيد ولم أعد أسمع بشىء من ذلك مع انتشار التعليم ودخول الكهرباء القرية. وربما كان تكرُّر حديث شاعرنا فى قصيدتين على الأقل عن الغول راجعا إلى أنه كان كثيرا ما يجوب الصحراء فى الظلام الدامس وحيدا، إذ كان صعلوكا متمردا لا يأوى إلى المجتمعات، بل كان يشكل، مع أمثاله من الصعاليك المتمردين، عصابات لقطع الطريق، فكانت حياتهم قلقا وخوفا وتشردا مستمرا. فإذا أضفنا الجهل الذى كان سائدا آنذاك فى المجتمع العربى تبين لنا أن انتشار مثل تلك الخرافة بين الجاهليين أمر طبيعى تماما، وبخاصة فى ظروف شخص كتأبَّطَ شرًّا.

وقد تكرر ذكر "الغول" فى شعر العرب قبل الإسلام بما يدل على أن هذه الخرافة كانت تسكن عقول الجاهليين كما قلنا: فمن ذلك قول طارقة الشاعرة الجاهلية، حين اقترن زوجها بامرأة أخرى، إنه قد اتخذ بدلا منها "هوجاء مقّاء كشِبْه

الغول". ومنه قول امرئ القيس هكما بغريم له كان يهدده بالقتل:

أَيَقتُلُني وَالمَشْرَفِيُّ مُضاجِعي وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ؟

وقول زهير بن أبي سلمى يصف ناقته:

تُبادِرُ أَغوالَ العَشِيِّ وَتَتَّقي عُلالَةَ مَلوِيٍّ مِنَ القِدِّ مُحصَدِ

والآن إلى القصيدتين اللتين قص فيهما تأبَّطَ شَرًّا حكايته مع الغول، وفيهما يتبدى قصاصا بارع التصوير والتشويق والفكاهة والمقدرة على إجراء الحوار والتحول من السرد إلى الحديث بين بَطَلَيْ قصته فى اقتدار ومهارة، إلى جانب انتقاله فى القصيدة الأولى من الفعل الماضى إلى التعبير بالفعل المضارع عما مضى من وقائع بينه وبين الغول بما يجعلنا نشعر أننا نشاهد حوادث تقع الآن تحت أعيننا لا أمورا مضت وانقضت، كما فى قوله: "فشَدَّت... فأَهْوَى لها كَفِّى... فأَضْرِبُها... فخَرَّتْ":

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيَانَ فَهْمٍ بِمَا لاَقَيْتُ عِنْدَ رَحَى بِطَانِ
بِأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِي بِشُهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَقُلْتُ لَهَا: كِلاَنَا نِضْوُ أَيْنٍ أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّي لِي مَكَانِي
فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَى لَهَا كَفِّي بِمَصْقُولٍ يَمَانِي
فَأَضْرِبُهَا بِلاَ دَهَشٍ فَخَرَّتْ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ
فَقَالَتْ: عُدْ، فَقُلْتُ لَهَا: رُوَيْدًا مَكَانَكِ إِنَّنِي ثَبْتُ الْجَنَانِ
فَلَمْ أَنْفَكَّ مُتَّكِئًا عَلَيْهَا لأَنْظُرَ مُصْبِحًا مَاذَا أَتَانِي
إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسٍ قَبِيحٍ كَرَأْسِ الْهِرِّ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ

وَسَاقًا مُخْدَجٍ وَشَــوَاةُ كَلْــبٍ ... وَثَــوْبٌ مِنْ عَبَـــاءٍ أَوْ شِنَــانِ؟

***

وأدهــمَ قد جُبــتُ جلبابــهُ ... كَمَا اجْتَــابَتِ الْكَاعِــبُ الْخَيْعَلاَ

إلَى أَنْ حَــدَا الصُّبْــحُ أَثْنَــاءَهُ ... وَمَـــزَّقَ جِلْبَــابَــهُ الأَلْــيَـــلاَ

عَلَــى شَيْــمِ نَــارٍ تَنَوَّرْتُهَـــا ... فَبِــتُّ لَهَـــا مُدْبِــرًا مُقْبِــلاَ

فَأَصْبَحْتُ وَالْغُــولُ لِي جَــارَةٌ ... فَيَــا جَــارَتَا، أَنْتِ مَــا أَهْــوَلاَ

وَطَالَبْتُــهَا بُضْعَهَــا فَالْتَــوَتْ ... بِوَجْـــهٍ تَهَــوَّلَ فَاسْتَــغْــوَلاَ

فقلتُ لها: يا انظــري كي تَرَيْ ... فــولّت، فكنــتُ لهــا أغْــوَلا

فطارَ بقحف ابنة الجــــــــ ... ـنِّ ذوسَفَاسِقَ قَدْ أخلقَ الْمِحْملاَ

إذا كَــلَّ أمهيتُــهُ بالصَّــفَــا ... فَحَــــدَّ وَلَــمْ أُرِهِ صَيْــقَــلاَ

عظَــاءَةُ قَفْــرٍ لَهَـــا حُلَّتَــا ... نِ مِــنْ وَرَقِ الطَّلْــحِ لَمْ تُغْــزلاَ

فمن ســالَ: أين ثوت جــاريَ؟ ... فـــإنَّ لهـــا باللِّــوى منــزلا

وأما الشاهد الثانى فمن شعر للنابغة الذبيانى يصف فيه مطاردة الكلاب للثور الوحشى حين يطلقها صاحبها عليه أثناء اصطياده لها. ومثل تلك القصة التى تتكرر كثيرا فى الشعر الجاهلى تدل على شيوع صيد الثور الوحشى فى بلاد العرب قبل الإسلام. والأبيات مأخوذة من معلقة الشاعر المشهورة، ولا ينبغى أن يفوتنا ما تتميز به تلك الأبيات من وصف مفعم بالحيوية والدقة فى التشبيه والتنبه للتفصيلات الموحية. ولا بد من التنبيه ثانية إلى أن القصة التى نحن بصدد الكلام عنها لا

تستقل بقصيدة كاملة، بل تشكل فقط جزءا من قصيدة أكبر، شأنها فى ذلك كشأن أغلب القصص الجاهلى الشعرى:

كأنَّ رَحْلي، وقد زالَ النّهارُ بنا ... يومَ الجليلِ على مُستأنسٍ وحِدِ
من وحشِ وجرةَ موشيٍّ أكارعهُ ... طاوي المصيرِ كسيفِ الصّيقل الفَرَدِ
سرتْ عليه من الجوزاءِ سارية ... تُزجي الشّمالُ عليه جامدَ البَرَدِ
فارتاعَ من صوتِ كلّابٍ فباتَ لهُ ... طوعَ الشّوامتِ من خوفٍ ومن صَرِدِ
فبثّهنّ عليهِ واستمرّ بهِ ... صُمْعُ الكُعوبِ بريئاتٌ من الحَرَدِ
وكان ضُمْرانُ منه حيثُ يُوزِعُهُ ... طَعْنَ المُعاركِ عند المُحْجَرِ النّجُدِ
شكَّ الفَريصةَ بالمِدْرى فأنفذَها ... طَعْنَ المُبيطرِ إذ يَشفي من العَضَدِ
كأنّه، خارجا من جنبِ صَفْحَتِهِ ... سَفّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عندَ مُفْتأدِ
فظلَّ يَعْجمُ أعلى الرَّوْقِ مُنقبضًا ... في حالكِ اللونِ صدقٍ غيرِ ذي أودِ
لما رأى واشقٌ إقعاصَ صاحبهِ ... ولا سَبيلَ إلى عَقلٍ ولا قَوَدِ
قالت لهُ النفسُ : إني لا أرى طمعًا ... وإنّ مولاكَ لم يسلمْ ولم يصدِ

كذلك تصور الأبيات التالية، وهى لامرئ القيس، واقعة من وقائع الصيد، إلا أن الفريسة هنا أرنبٌ بَرّىّ لا ثورٌ وحشى، ثم تنتهى بالحديث عن تناول الطعام بعد انتهاء المطاردة بالنجاح، فهى إذن قصة من قصص القنص واللهو:

كأنّ غُلامي إذْ عَلا حَالَ مَتْنِهِ ... عَلى ظَهْرِ بَازٍ في السّماءِ مُحَلّقِ
رَأى أرْنَبًا فانقَضّ يَهْوِي أمَامَهُ ... إلَيْهَا وَجَلاّهَا بِطَرْفٍ مُلَقْلَقِ
فقُلتُ لَهُ:صَوِّبْ وَلا تَجْهَدَنّهُ ... فيذرك من أعلى القطاة فتَزْلَقِ
فأدبرنَ كالجَزْعِ المفصّلِ بينه ... بجِيدِ الغُلامِ ذي القميصِ المُطوَّقِ
وَأدرَكَهُنّ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ ... كغيثِ العَشِيّ الأقهبِ المتودّقِ
فصاد لنا عَيْرًا وثورًا وخاضبًا ... عِداءً وَلَمْ يَنضَحْ بماءٍ فيَغْرَقِ

وَظَلَّ غُلامي يُضجِعُ الرُّمحَ حَوْلَه ... لِكُلِّ مَهَاةٍ أوْ لأحْقَبَ سَهْوَقِ
وقام طوال الشخص إذ يخضبونه ... قِيَامَ العَزِيزِ الفَارِسيِّ المُنَطَّقِ
فَقُلنَا: ألا قَد كانَ صَيْدٌ لِقَانِصٍ ... فخَبُّوا عَلَينا كُلَّ ثَوْبٍ مُزَوَّقِ
وَظَلَّ صِحَابي يَشْتَوُون بنَعْمَةٍ ... يصفّون غارًا باللكيكِ الموشّقِ

أما الأبيات التى نحن مقبلون عليها الآن، وهى للمَلِك الضِّلِّيل أيضا، فتتوسع فى الحديث عن نزوله هو وأصحابه فى بعض الطريق بغية الأكل والاستراحة حيث نصبوا لأنفسهم ما يشبه الخيمة يستترون بها، ثم راحوا بعد ذلك يتناولون ما أعدوه من شواء لم يجدوا بدا حين انتهوا منه من مسح أيديهم فى أعراف خيولهم لعدم وجود مناديل معهم. كذلك لم يَفُت الشاعرَ التلفتُ حوله وتسجيلُ ما كان يراه من حيوان وحشى يقف على مقربة منهم ويتطلع إليهم بعيونه التى تشبه حبات الجَزْع غير المثقوب كما يقول، والجَزْع حجر كريم تُتَّخذ منه العقود التى تزين نحور الجميلات، وهو تشبيه عجيب. وهناك كلمة ليست شائعة الاستعمال فى الأدب العربى حتى فى القديم منه هى كلمة "نَمُشّ"، ولها علوق بالقلب رغم ذلك. وهى قريبة من "نَمَسّ"، وإن لم يقتصر معناها على مجرد المس، بل تضم إليه أيضا معنى مسح اليد فى شىء خشن بغية إزالة ما علق بها من دسم. وهذه هى الأبيات:

وقلت لفتيانٍ كرامٍ: ألا انزلوا ... فعَالَوْا علينا فَضْلَ ثوبٍ مطنَّبِ
وأوتاده مازِيَّةٌ، وعِمَاده ... رُدَيْنِيَةٌ فيها أسنَّةُ قُعْضُبِ

وأطنــابه أشطان خُوصٍ نجـائبِ وصهــوته من أَتْحَميٍّ مُشَــرْعَبِ
فَلَمّا دَخَلنــاهُ أَضَفــنا ظُهــورَنا إِلى كُلِّ حــارِيٍّ جَديــدٍ مُشَطَّبِ
فظــلّ لنا يــوم لذيــذ ونعمــة فقُــلْ في مَقيلٍ نَحْســه متغـيِّبِ
كأنَّ عيــون الوحش حول خبائنا وأرحُلِنا الَجْــزعُ الذي لم يثقَّــبِ
نَمُشّ بأعــراف الجيــاد أكُفّنــا إذا نحن قمــنا عن شــواء مضَهّبِ
إلى أن تروّحْنــــا بــلا متعنّتٍ عليــه كسِيد الردهــة المتــأوِّبِ

ونظل مع امرئ القيس فى لهوه، ولكن فى غير ميدان القنص، أو قل: إنه فى ميدان القنص أيضا، إلا أنه قنص من نوع آخر، قنص المرأة لا قنص الحيوان. وفى الأبيات التى سنوردها من فَوْرنــا يــروى لنــا الشاعر، صدقًا أو كذبًا، بعض مغامراته فى دنيا النساء حيث يتبــدى شخصا عابثا فاجرا لا يرعوى عن فاحشة، بل يباهى بما يجترحه مــن عدوان على الحرمات والأعراض حين يتسلل فى جنح الليل البهيم إلى حيث اتَّعَد مع إحدى صواحبه فى الخلاء، أو إلى حيث يقــتحم علــى أخرى خباءها، وهى تناشده أن يتركها ولا يفضحها، إلا أنها مناشدة غير صادقة فيما يبدو، وإلا ما استجابت له رغم ذلك وتمادت معــه فيما أراده منها... إلخ. وهو فى كل ذلك يصف حبيباته وصفًا حيًّــا عجيبًا ويحكى ما وقع منهن ومنه غير متحرج من شىء، مُورِدًا كــثيرا من التفصيلات الدالة التى تعيد لنا المنظر والحدث كأنهما ابنا اللحظة، مشهِّرًا بهن لما مَرَد عليه من استهتار، إذ كان ابنَ مَلِكٍ لا يبالى بما يأتى أو يَدَع. وعجيب أنه، حين يصور ما يقع من النساء من تصــرفات أو

ما يصدر عنهن من كلام، قادر على تقمصهن فكأن امرأة هي الـتي تتكلم أمامنا أو تتصرف لا أننا نقرأ شعرا:

ويـوم دخلتُ الخِدْرَ خـدر عُنَيْـزَةٍ	فقـالت: لكَ الويـلات إنـكَ مُرجلـي
تقولُ وقد مالَ الغَبيـطُ بنـا معـًا:	عَقَـرْتَ بعيري يا امـرأ القيس، فانـزلِ
فقُلتُ لهـا: سيري وأرْخـي زِمامَـهُ	ولا تُبعـديني مـن جَنَـاك المعلّـلِ
فمِثلكِ حُبْلى قد طَرَقْـتُ ومُرْضِـعٍ	فألهيتُـها عـن ذي تمائـمَ مُحْـوِلِ
إذا ما بكى من خلفـها انْصَرَفَتْ لـهُ	بشِـقٍّ، وَتحـتي شِقُّـهـا لـم يُحَـوَّلِ
ويـومًا على ظهر الكثيـبِ تعـذَّرت	عَـليّ وَآلَـتْ حَلْفَـةً لـم تَحلَّـلِ
أفاطِمُ، مهـلاً بعـضَ هـذا التدلُّـلِ	وإن كنتِ قـد أزمـعت صَرْمي فأجملي
وَإنْ تكُ قـد ساءتكِ منـي خَليقَـةٌ	فسُـلّي ثيـابي مـن ثيابـكِ تَنسُـلِ
أغَـرّكِ منـي أنّ حُبّـكِ قاتـلي	وأنكِ مهـما تأمـري القلـب يفعـلِ؟
ومَا ذَرَفَـتْ عَيْنـاكِ إلا لتضْرِبـي	بسَهْمَـيكِ في أعشـارِ قَلْـبٍ مُقَتَّـلِ
وبيضـةِ خِـدْرٍ لا يُـرامُ خباؤهـا	تَمتّعـتُ من لَهْـوٍ بها غيـرَ مُعجَـلِ
تجـاوزْتُ أحْراسًـا إليهـا ومَعْشَـرًا	عليّ حِراصًـا لو يُسِـرّون مقتلـي
إذا ما الثـريا في السـماء تعرضـت	تعـرُّضَ أثنـاء الوشـاح المفصَّـلِ
فجِئتُ وقـد نَضَّـتْ لنَـوْمٍ ثيابَهـا	لدى السِّـترِ إلاّ لِبْسَـةَ المُتَفَضِّـلِ
فقـالت: يمـين الله مـا لـكَ حيلـةٌ	ومـا إن أرى عنـك الغـوايةَ تنـجلي
خَـرَجْتُ بها أمـشي تَجُـرّ وَراءَنـا	على أثَرَيْنـا ذَيْـلَ مِـرْطٍ مُرَحَّـلِ
فلـما أجزْنا ساحـةَ الحـيِّ وانتحى	بنـا بطـنُ خَبْتٍ ذي حِقـافٍ عَقَنْقَـلِ
هصرتُ بِفَـوْدَيْ رأسهـا فتمايلـت	عـليّ هضيـمَ الكَشحِ ريّـا المُخلخَـلِ
مُهَفْهَفَـةٌ بَيْضـاءُ غيـرُ مُفاضَـةٍ	ترائبهـا مصقولـة كالسَّجَنجَـلِ
كبِكْرِ المُقانـاةِ البَيـاضِ بصُفْـرَةٍ	غذَاهـا نميرُ المـاء غيـر المحلّـلِ

تصـدّ وتُبْـدي عـن أسيـلٍ وتتّقـي ... بنـاظرَةٍ مـن وَحْش وَجْـرَةَ مُطْفِـلِ
وجِيد كجِيـد الرئم ليـس بفاحِـش ... إذا هـيَ نَصّـتْهُ وَلا بمُعَـطّلِ
وفـرعٍ يُغَشّي المتنَ أسـودَ فاحـم ... أثيـثٍ كقِنْـو النخلـةِ المتعثكـلِ
غدائـرهُ مستشـزِراتٌ إلـى العُـلَى ... تضِـلّ المـداري في مُثَنًّى ومُرْسَـلِ
وكَشْـحٍ لطيـفٍ كالجديـل مخصَّـرٍ ... وسـاقٍ كأنبـوبِ السَّقِـيّ المُذلَّـل
وتَعْـطو بـرَخْصٍ غيرِ شَثْـنٍ كأنّـهُ ... أسـاريعُ ظَبـيٍ أو مساويـكُ إسْحـلِ
تُضيء الظـلامَ بالعشـاء كأنهـا ... منـارةُ مُمْسَـى راهـبٍ متبتّـلِ
وتُضْـحي فَتيتُ المِسـكِ فوق فراشها ... نـؤومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ
إلى مثـلها يرنـو الحليـمُ صبابـةً ... إذا مـا اسبكَرّتْ بيـنَ درْعٍ ومِجْـوَلِ
تسـلّتْ عَمـايات الرجالِ عن الصِّبـا ... ولـيسَ صِبـايَ عـن هواهـا بمُنْسَـلِ
ألا رُبّ خَصْـمٍ فيكِ ألْـوَى رَدَدتُـه ... نصـيحٍ عـلى تَعْذالـه غيـر مُؤتَـلِ

وتبقى الأبيات التالية، وهى لسلامة بن جندل، وفيها يصور انتصار قومه على أعدائهم ساردا ما وقع لكل واحد من كبار محاربى أولئك الأعداء: فمنهم من صُرِع فى التراب، ومنهم من نجّاه الفرار من الهلاك، إذ نالته طعنة كان من شأنها أن تُرْدِيَه قتيلا لولا أن أجله لم يحن بعد، ومنهم من وقع أسيرا فى أيديهم فاقتادوه إلى مضاربهم مكبلا بالأغلال تتفرج عليه نساء القبيلة ويشمتن به وبقومه. وكما نرى فهو يطلعنا فى كل لوحة على صورة من صُوَر تلك الهزيمة التى مُنِىَ بها هؤلاء الأعداء. والملاحظ أنها مجرد سرد ووصف لا حوار فيها ولا

توسع فى التفاصيل، إلا أن الروح القصصية ظاهرة فيها رغم ذلك:

ومَن كانَ لا تُعتَدُّ أيامُهُ لهُ — فأيَّامُنا عَنَّا تُجَلِّي وتُغرِب
جَعلَنا لَهمْ ما بَينَ كُتلة رَوْحَة — إلى حيثُ أوفى صوَّتيه مثقِّبُ
غداةَ تركنا في الغبار ابن جحدرٍ — صَرِيعا، وأطرافُ العَوالي تَصَبَّبُ
لَقُوا مِثلَ ما لاقَى اللُّجَيْمِيُّ قَبلَهُ — قتادة لَمَّا جاءنا وهو يطلبُ
فآبَ إل حجرٍ، وقد فضَّ جمعهُ — بأخبثِ ما يأتي به متأوِّبُ
وقد نالَ حدُّ السيفِ منْ حُرِّ وجهِهِ — إلى حيثُ ساوى أنفهُ المتنقِّبُ
وجشَّامةُ الذُّهليُّ قد وسجتْ به — إلى أهلِنا مَخزومةٌ، وهْوَ مُحْقَبُ
تَعرَّفُهُ وسْطَ البُيوتِ مُكَبَّلاً — ربائبُ من أحسابِ شيبانَ تثقبُ
وهوذةَ نجّى بعدَ ما مالَ رأسهُ — يَمانٍ إذا ما خالَطَ العَظمَ مِخدَبُ
فأمسَكَهُ مِن بَعدِ ما مال رأسُهُ — حِزامٌ على ظَهرِ الأغَرِّ وقَيقَبُ
غداةَ كأنَّ ابني لجيمٍ ويشكرًا — نعامٌ بصحراءِ الكديدينِ هُرَّبُ

وننتقل إلى القصص النثرى الجاهلى، وهأنذا أورد بعضا من نماذجه المبثوثة فى كتب الأدب المختلفة، ونبدأ بكتاب "أخبار النساء" لابن الجوزى الذى نقرأ فيه القصة التالية، وهى قصة من قصص العشق والمؤامرات تتمتع بمستوى فنى راق: ففيها العقدة، وفيها التشويق، وفيها الرسم المتقن للشخصيات، وفيها الحوار المحكم الموجز المُنْبِى عن طبيعة المتحدثين، وفيها النهاية التى تجمع بين المفاجأة وعدم مصادمة منطق الحياة فى نفس الآن. وهى ترينا أن الطبيعة البشرية، مهما يكن من علوّ

نفس صاحبها، لا تسلم عادةً من بعض العيوب التى قد تكون عيوبا مخيفة كما هو الحال فى أمر النعمان بن المنذر. كما تقوم العقدة فيها على المكر وأخذ الآخرين بالحيلة الخفية الدقيقة التى تخدع المحتال عليه وتوهمه أنها تبغى مصلحته، ليكتشف فى النهاية بعد أن تقع الفأس فى الرأس، أنه كان ضحية حيلة مزعجة حيكت بمهارة شديدة فلم يتبين له ساعتَها وجهُ الحق فيها. ولا ينبغى أن يفوتنا هنا النص على اختلاط النثر والشعر فى القصة، وإن اقتصر العنصر الشعرى هنا على بيت واحد فى النهاية. ولنلاحظْ كيف رُوِيَت القصة كما كانت تُرْوَى الأحاديث النبوية والأخبار التاريخية وكثير من حكايات العرب وأقوالهم، وذلك باتباع أسلوب العَنْعَنَة، إذ بدأت على النحو التالى: "حكى الهيثم بن عَدِيّ عن الكَلْبِيّ قال: كان مُلْك النّعمان بن المنذر أربعين سنةً لم يُرَ منه في مُلْكه سقطة غير هذه: وذلك أنّه ركب يومًا فنظر إلى امرأةٍ خارجةٍ من الكنيسة فأعجبه جمالها وحسنها وهيئتها، فقال: علَيَّ بِعَدِيّ بن زيد، وكان كاتبَه وخاصّتَه. فقال له: يا عَدِيّ، قد رأيت امرأةً لئن لم أظفر بها إنّه هو الموت. فلا بدّ في أن تتلطّف في الجمع بيني وبينها. قال: ومن هي؟ قال: قد سألتُ عنها فقيل لي: امرأة حَكَم بن عوف، رجلٌ من أشراف أهل الحيرة. قال: فهل أعْلَمْتَ بذلك أحدًا؟ قال: لا. قال: فاكتمه. فإذا أصبحتَ

فجُدْ بكلّ كرامةٍ لنَزيلِك. يريد حَكَم بن عوف. فلمّا أذِن للنّاس بدأ به وأكرمه وأجلسه معه على سريره، فأَعْجَب النّاسَ حالُه وتحدّثوا به. فلمّا أمسى فأذِن للنّاس بدأ به فأكرمه وأجلسه معه وكساه وجمّله، ففعل به ذلك أيّامًا. ثمّ قال له عدي: أيّها الملك، عندك عشر نسوةٍ، فطلّقْ أقلّهنّ عنك منزلةً ثمّ قل له: فليتزوّجها. ففعل، فلمّا دخل عليه قال له: يا حكم، إنّي قد طلّقت فلانةً لك فتزوَّجْها. فقال حكم لعدي: ما صنع الملك بأحد ما صنع بي، ولا أدري بم أكافئه. فقال له عدي: طلِّق امرأتك كما طلّق امرأته. ففعل، وحَظِيَ عدي بها عند الملك، وعلم الرّجل أنّه مَكَر به في امرأته. وفيها يقول بعض أهل الحيرة:

ما في البريّة من أنثى تعادلها   إلاّ التي أخذ النّعمان من حَكَمِ"

أما القصة التالية، وهى مأخوذة من كتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، فبطلها كُلَيْب بن ربيعة، وهو شيخ قبيلة مستبد لا يبالى بكرامة أحد ولا بحقوقه، بل يعامل الجميع بعَسْفٍ وتعالٍ واحتقار لا يُعْفِى أحدا من ذلك ولو كان صهرا له، مما أدى فى النهاية إلى أن قتله أخو زوجته واضعًا بذلك أخته فى كرب عظيم، إذ كانت بين نارين: نار الحزن على مقتل زوجها، ونار الخوف من انتقام أهله من أخيها. يقول أبو الفرج فى ذلك:

"وكان السبب في قتل كليب بن ربيعة... أن كُلَيْبًا كان قد عَزَّ وساد في ربيعة فبَغَى بَغْيًا شديدًا. وكان هو الذي يُنْزِلهم منازلهم ويرحِّلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره. فبلغ من عزه وبَغْيه أنه اتخذ جَرْو كلب، فكان إذا نزل منزلاً به كَلأٌ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه. وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يَرِدُها أحد إلا بإذنه أو مَنْ آذَنَ بحرب، فضُرِب به المثل في العز فقيل: أعزّ من كُلَيْب وائل. وكان يحمي الصيد ويقول: صيد ناحية كذا وكذا في جواري، فلا يصيد أحد منه شيئًا. وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس، ولا يحتبي أحد في مجلسه غيره، فقتله جساس بن مرة... وكان كليب بن ربيعة ليس على الأرض بَكْرِيٌّ ولا تَغْلِبِيٌّ أجار رجلاً ولا بعيرًا إلا بإذنه، ولا يحمي حِمًى إلا بأمره، وكان إذا حمى حِمًى لا يُقْرَب. وكان لمُرّة بن ذُهْل بن شيبان بن ثعلبة عشرة بنين جسّاسٌ أصغرهم، وكانت أختهم عند كليب. وخالة جساسٍ البَسُوسُ، فجاءت فنزلت على ابن أختها جساس فكانت جارةً لبني مُرّة، ومعها ابن لها، ولهم ناقة خوّارة من نَعَم بني سعد، ومعها فَصِيل. أخبرني علي بن سليمان قال: قال أبو برزة: وقد كان كليب قبل ذلك قال لصاحبته أخت جساس: هل تعلمين على الأرض عربيًّا أمنع مني ذِمّةً؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة

فقالت: نعم أخي جساس ونَدْمانه ابن عمه عمرو المزدلف بن أبي ربيعة بن ذُهْل بن شيبان. وزَعَم مقاتل أن امرأته كانت أخت جساس. فبينا هي تغسل رأس كليب وتسرّحه ذات يوم إذ قال: مَنْ أَعَزُّ وائل؟ فصمتت، فأعاد عليها. فلما أكثر عليها قالت: أخواي جساس وهمام! فنزع رأسه من يدها وأخذ القوس فرمى فصيل ناقة البسوس خالة جساس وجارة بني مُرّة فقتله، فأغمضوا على ما فيه وسكتوا على ذلك. ثم لقي كليبٌ ابنَ البسوس فقال: ما فعل فصيل ناقتكم؟ قال: قتلتَه وأخليتَ لنا لبن أمه. فأغمضوا على هذه أيضًا. ثم إن كليبا أعاد على امرأته فقال: من أعز وائل؟ فقالت: أخواي. فأضمرها وأسرّها في نفسه وسكت حتى مرت به إبل جساس فرأى الناقة فأنكرها، فقال: ما هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس. قال: أوقد بلغ من أمر ابن السعدية أن يُجير عليَّ بغير إذني؟ ارم ضرعها يا غلام. قال فراس: فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها، وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر، فقال: احلبوا لها مكيالَيْ لبنٍ بمحلبها، ولا تذكروا لها من هذا شيئًا. ثم أغمضوا عليها أيضًا. قال مقاتل: حتى أصابتهم سماء، فغدا في غِبّها يتمطر. وركب جساس بن مرة وابن عمه عمرو بن الحارث بن ذهل، وقال أبو برزة: بل عمرو بن أبي ربيعة، وطعن عمرو كليبًا فحطم صلبه. وقال أبو برزة: فسكت

جساس حتى ظعن ابنا وائل، فمرت بكر بن وائل على نِهْيٍ يقال له: شبيث، فنفاهم كليب عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على نِهْيٍ آخر يقال له: الأحصّ، فنفاهم عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على بطن الجَرِيب فمنعهم إياه فمضَوْا حتى نزلوا الذنائب، واتّبعهم كليب وحَيُّه حتى نزلوا عليه. ثم مر عليه جساس وهو واقف على غدير الذنائب فقال: طردتَ أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا! فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون. فمضى جساس ومعه ابن عمه المزدلف. وقال بعضهم: بل جساس ناداه فقال: هذا كفعلك بناقة خالتي. فقال له: أوَقَدْ ذكَرْتَها؟ أما إني لو وجدتها في غير إبل مُرّة لاستحللت تلك الإبل بها. فعطف عليه جساس فرسه فطعنه برمح فأنفذ حضنيه، فلما تداءمه الموت قال: يا جساس، اسقني من الماء. قال: ما عَقَلْتَ استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه؟ قال أبو برزة: فعطف عليه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة فاحتزّ رأسه".

والآن أود من القارئ أن يطالع القصة التالية التى تختلف عما مر بنا حتى الآن من قصص، إذ هي قصة رمزية بعضُ أبطالها من الحيوان الذى يتكلم كما يتكلم الآدميون، ويشعر كما يشعر الآدميون، ويجادل كما يجادل الآدميون، وعنده الحكمة والحذر كما عند الآدميين. جاء فى كتاب "الأمثال"

للمفضَّل الضَّبِّيِّ: "زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما فأجدبت بلادهما، وكان قريبًا منهما وادٍ فيه حية قد حمته من كل واحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المُكْلِئ فرعيْتُ فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية. ألا ترى أن أحدًا لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكتْه؟ قال: فوالله لأهبطنّ. فهبط ذلك الوادي فرعى إبله به زمانًا، ثم إن الحية لدغته، فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبنّ الحية فأقتلها أو لأتبعنّ أخي. فهبط ذلك الوادي فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أني قتلتُ أخاك؟ فهل لك في الصلح فأدَعَك بهذا الوادي فتكون به وأعطيك ما بقيت دينارًا في كل يوم؟ قال: أفاعلةٌ أنتِ؟ قالت: نعم. قال: فإني أفعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضيرها، وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر ماله ونمت إبله حتى كان من أحسن الناس حالا. ثم ذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟ فعمد إلى فأس فأحَدّها ثم قعد لها فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، فلما رأى ذلك وتخوف شَرّها نَدِم وقال لها: هل لكِ فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: كيف

أعاودك وهذا أثر فأسك، وأنت فاجر لا تبالي العهد؟ فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهورًا من أمثال العرب".

ومن هذا النص يتبين لنا أن قَصَص الحيوان فى الأدب العربى لم ينتظر حتى يضع ابن المقفع كتابه: "كليلة ودمنة"، إذ ها هم أولاء الجاهليون يجعلون من الحيوانات أبطالا لقصصهم، ويُنْطِقونهم بذات اللغة التى يتحدثونها، ويُضْفُون عليهم سائر الخلال البشرية كما سلف القول. وهناك قِصَصٌ جاهليةٌ أخرى عن الحيوان: منها قصة قيام الضَّبّ بالقضاء فى الخصومة التى كانت بين الأرنب والثعلب، وقصة الضب والضفدع، وقصة الغراب الذى أراد أن يقلد العصفور، وقصة النعامة التى ذهبت تطلب قرنين، وقصة بِرّ الهدهد بأمه، وقصة الرَّخَم الحكيم. وكذلك قصة الغراب والديك، وفيها أن الديك كان نديما للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن بعد أن رهن صديقه عند الخمار، لكنه غدر به فبقى فى الحبس. وهناك أيضا قصة الضبع والذئب، وملخَّصها أن الضبع وجدت تمرة فاختلسها الذئب فلطمته فتحاكما إلى الضب، فقالت: يا أبا الحِسْل. قال: سميعًا دعوت. قالت: جئناك نحتكم إليك. قال: في بيته يُؤْتَى الحَكَم. قالت: إني التقطت تمرة. قال: حُلْوًا جنيتِ. قالت: إن الثعلب أخذها. قال: حَظٌّ نفسه بَغَى. قالت: لطمتُه. قال:

أَشْفَيْتِ، والبادي أظلم. قالت: فلطمني. قال: حُرٌّ انتصر لنفسه. قالت: اقْضِ بيننا. قال: قضيت"... وغير ذلك مما يجده القارئ فى "الحيوان" للجاحظ و"الشعر والشعراء" لابن قتيبة و"الأذكياء" لابن الجوزى و"خزانة الأدب" للبغدادى وغيرها.

وأترك هنا القارئ مع القصة التالية، وأبطالها من الملوك ورجال البلاط، وتدور حول ضعف البشر أمام نداء قلوبهم حتى لو عرفوا أن فى ذلك حتفهم. وهى قصة الزَّبَّاء وجَذِيمة الأبرش المشهورة، وقد أخذناها من كتاب ابن الجوزى: "الأذكياء": "قال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كان جَذِيمة بن مالك ملكًا على الحيرة وما حولها من السواد. مَلَكَ ستين سنة، وكان به وَضَح، وكان شديد السلطان يخافه القريب ويهابه البعيد، فنُهِيَت العرب أن يقولوا: الأبرص، فقالوا: الأبرش. فغزا مليحَ بن البرء، وكان ملكًا على الحضر، وهو الحاجز بين الروم والفرس، وهو الذي ذكره عَدِيّ بن زيد في قصيدة منها هذا البيت:

وأخو الحضْر إذ بناه وإذ دجلة تُجْبَى إليه والخابور

فقتله جذيمة وطرد الزباء إلى الشام فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان حسنة البيان شديدة السلطان كبيرة الهمة. قال ابن الكلبي: لم يكن في نساء عصرها أجمل منها. وكان اسمها فارغة، وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها، وإذا نشرته جلَّلها فسُمِّيَتْ: الزباء.

قال الكلبي: وبُعِث عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتل أبيها فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها ومَلَكَتْها، فأزالت جذيمةَ الأبرش عنها وابتنت على الفرات مدينتين متقابلتين من شرقي الفرات ومن غربيه وجعلت بينهما نفقًا تحت الفرات. وكان إذا راهقها الأعداء أوت إليه وتحصنت به. وكانت قد اعتزلت الرجال فهي عذراء، وكان بينها وبين جذيمة بعد الحرب مهادنة. فحدَّث جذيمة نفسَه بخِطْبتها فجمع خاصّته فشاورهم في ذلك، وكان له عبد يقال له: قصير بن سعد، وكان عاقلاً لبيبًا، وكان خازنَه وصاحبَ أمره وعميدَ دولته. فسكت القوم وتكلم قصير فقال: أَبَيْتَ اللعن أيها الملك، إن الزباء امرأة قد حرَّمت الرجال فهي عذراء لا ترغب في مال ولا جمال، ولها عندك ثأر، والدم لا ينام. وإنما هي تاركتك رهبةً وحذارَ دولة. الحقد دفين في سويداء القلب له كُمُون ككُمُون النار في الحَجَر، إن اقتدحتَه أَوْرَى، وإن تركته توارى. وللمَلك في بنات الملوك الأكْفاء متَّسع، ولهن فيه منتفَع. وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظّم شأنك، فما أحد فوقك. فقال جذيمة: يا قصير، الرأي ما رأيتَ، والحزم فيما قلتَه، ولكن النفس تواقة إلى ما تحب وتهوَى، ولكل امرئ قَدَرٌ لا مفر له منه ولا وَزَر. فوجَّه إليها خاطبًا وقال: ائت الزباء فاذكر لها ما يرغّبها فيه وتصبو إليه. فجاءها خِطْبته، فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له: انْعَمْ بك عَيْنًا وبما جئتَ به وله. وأظهرتْ له السرور به والرغبة فيه

وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كنتُ أضربتُ عن هذا الأمر خوفًا أن لا أجد كفؤًا. والملك فوق قدري، وأنا دون قدره، وقد أجبتُ إلى ما سألَ ورغبتُ فيما قال. ولولا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرتُ إليه ونزلتُ عليه. وأهدتْ إليه هديةً سَنِيّة: ساقت العبيد والإماء والكُرَاع والسلاح والأموال والإبل والغنم، وحملتْ من الثياب والعَيْن والوَرِق. فلما رجع إليه خطيبه أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى من اللطف وظن أن ذلك لحصول رغبة، فأعجبته نفسه وسار من فوره فيمن يثق به من خاصته وأهل مملكته، وفيهم قصيرٌ خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عَدِيَ اللَّخْمِيّ، وهو أول ملوك الحِيرة من لخم. وكان مُلْكه عشرين ومائة سنة، وهو الذي اختطفته الجن وهو صبي، وردَّته وقد شب ونبر. فقالت أمه: أَلْبِسوه الطوق. فقال خاله جذيمة: شب عمرو عن الطوق، فصارت مثلاً. فاستخلفه وسار إلى الزباء فلما صار ببقَّة نزل وتصيد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأي من أصحابه فسكت القوم وافتتح الكلامَ قصيرُ بن سعد، قال: أيها الملك، كل عزم لا يؤيَّد بحزم فما يكون. فلا تثق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعتقد الرأي بالهوى فيَفْسُد، ولا الحزم بالمنى فيَبْعُد. والرأي عندي للملك أن يعتقب أمره بالتثبت ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمور تجري بالمقدور لعزمتُ على الملِك عزمًا بَتًّا ألاّ يفعل. فأقبل جذيمة على الجماعة فقال: ما عندكم أنتم في هذا الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا

من رغبته في ذلك وصوّبوا رأيه وقَوَّوْا عزمه. فقال جذيمة: الرأي للجماعة، والصواب ما رأيتم. فقال قصير: أرى القدَر يسابق الحذَر، ولا يطاع لقصيرٍ أمر. فأرسلها مثلاً. وسار جذيمة، فلما قرب من ديار الزباء نزل وأرسل إليها يعلمها بمجيئه، فرحبت وقربت وأظهرت السرور به والرغبة فيه، وأمرت أن يُحْمَل إليه الأنزال والعلوفات، وقالت لجندها وخاصة أهل مملكتها وعامة أهل دولتها ورعيتها: تلقَّوْا سيدكم ومَلِك دولتكم. وعاد الرسول إليه بالجواب بما رأى وسمع، فلما أراد جذيمة أن يسير دعا قصيرًا فقال: أنت على رأيك؟ قال: نعم، قد زادت بصيرتي فيه. أفأنت على عزمك؟ قال: نعم، وقد زادت رغبتي فيه. قال قصير: ليس للأمور بصاحب، من لم ينظر في العواقب. وقد يُسْتَدْرَك الأمر قبل فواته. وفي يد المَلِك بقية هو بها مسلَّط على استدراك الصواب، فإن وثقتَ بأنك ذو مُلْك وعشيرة ومكان فإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك ومكانك وألقيتَها في يَدَيْ من لست آمَنُ عليك مكره وغدره. فإن كنتَ ولا بد فاعلاً لهواك تابعًا فإن القوم إن تلقَّوْك غدًا فِرَقًا وساروا أمامك وجاء قوم وذهب قوم فالأمر بَعْدُ في يدك، والرأي فيه إليك. وإن تلقَّوْك رَزْدَقًا واحدًا وأقاموا لك صفين حتى إذا توسطتهم انقضوا عليك من كل جانب فأحدقوا بك فقد ملكوك وصرتَ في قبضتهم. وهذه العصا لا يُشَقّ غبارها. وكانت لجذيمة فرس تسبق الطير وتجاري الريح يقال لها العصا. فإذا كان كذلك فتملَّكْ ظهرها، فهي ناحية بك إن ملكت

ناصيتها. فسمع جذيمة ولم يردّ جوابًا، وسار. وكانت الزباء لما رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمة غدًا فتلقَّوْه بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وشماله، فإذا توسط جمعكم فتعرّضوا عليه من كل جانب حتى تُحْدِقوا به، وإياكم أن يفوتكم. وسار جذيمة وقصير عن يمينه، فلما لقيه القوم رزدقًا واحدًا أقاموا له صفين، فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب انقضاض الأجدل على فريسته فأحدقوا به، وعلم أنهم قد ملكوه. وكان قصير يسايره فأقبل عليه وقال: صدقتَ يا قصير. فقال قصير: أيها الملك، أبطأتَ بالجواب حتى فات الصواب. فأرسله مثلاً. فقال: كيف الرأي الآن؟ قال: هذه العصا، فدُونَكَها لعلك تنجو بها. فأنِفَ جذيمة من ذلك وسارت به الجيوش. فلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأسر وأيقن بالقتل جمع نفسه فصار على ظهر العصا وأعطاها عِنَاهَا وزجرها، فذهبت تَهْوِي به هُوِيّ الريح. فنظر إليه جذيمة وهي تطاول به، وأشرفت الزباء من قصرها فقالت: ما أحسنكَ من عروس تُجْلَى عليّ وتُزَفّ إليّ، حتى دخلوا به إلى الزباء ولم يكن معها في قصرها إلا جَوَارٍ أبكارٍ أتراب. وكانت جالسة على سريرها وحولها ألف وصيفةٍ كل واحدة لا تشبه صاحبتها في خلق ولا زي، وهي بينهن كأنها قمر قد حفّت به النجوم تزهو. فأمرت بالأنطاع فبُسِطَتْ، وقالت لوصائفها: خذوا بيد سيّدكن وبَعْل مولاتكنّ. فأخذن بيده فأَجْلَسْنه على الأنطاع بحيث يراها وتراه وتسمع كلامه ويسمع كلامها، ثم

أمرت الجواري فقطعن رواهشه، ووضعت الطَّسْت تحت يده، فجعلت تشخب في الطست، فقطرت قطرة على النِّطْع، فقالت لجواريها: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: لا يحزنك دم أراقه أهله. فلما مات قالت: والله ما وَهَى دمُك ولا شَفَى قتلُك، ولكنه غَيْضٌ من فَيْض. ثم أمرت به فدُفِن. وكان جذيمة قد استخلف على مملكته ابن أخته عَمْرَ بن عدي، وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر ويقتفي الأثر عن خاله، فخرج ذات يوم فنظر إلى فارس قد أقبل يهوي به فرسه هُوِيَّ الريح، فقال: أما الفرس ففرس جذيمة، وأما الراكب فكاهيمة. لأمر ما جاءت العصا. فأشرف عليهم قصير فقالوا: ما وراءك؟ قال سعى المقدَّر بالملِك إلى حتفه، على الرغم من أنفي وأنفه، فاطلب بثأرك من الزباء. فقال عمرو: وأي ثأر يُطْلَب من الزباء، وهي أمنع من عُقَاب الجو؟ فقال قصير: قد علمتَ نصحي كان لخالك، وكان الأجل رائده. والله لا أَنِي عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس أو أُدْرِك به ثأرًا أو تُخْتَرَم نفسي فأُعْذَر. ثم إنه عمد إلى أنفه فجدعه ثم لحق بالزباء على صورة كأنه هارب من عمرو بن عدي. قيل لها: هذا قصير بن سعد عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك. فأذنت له فقالت: ما الذي جاءك إلينا يا قصير، وبيننا وبينك دم عظيم الخطر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام، لقد أتيتُ فيما يُؤْتَى مِثْلُك في مثله. ولقد كان دم الملك يطلبه حتى أدركه. وقد جئتك مستجيرًا بك من عمرو بن عدي، فإنه اتهمني بخاله وبمشورتي عليه

بالمسير إليك، فجدع أنفي وأخذ مالي وحال بيني وبين عيالي وتَهَدَّدني بالقتل. وإني خَشِيتُ على نفسي فهربت منه إليك. أنا مستجير بـك ومستند إلى كهف عزكِ. فقالت: أهلاً وسهلاً، لك حق الجوار وذمـة المستجير. وأمرتْ به فأُنزِل، وأَجْرَتْ له الأنزال ووصلتْه وكسَتْه وأخدمتْه وزادت في إكرامه. وأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه، وهـو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها، وكانت ممتنعة بقصرٍ مَشيدٍ على باب النفق تعتصم به فلا يقدر أحد عليها. فقال لها قصير يومًـا: إن لي بالعراق مالاً كثيرًا وذخائر نفيسة مما يصلح للملوك. وإن أذنتِ لي في الخروج إلى العراق وأعطيتِني شيئًا أتعلل به في التجارة وأجعلـه سببًا للوصول إلى مالي أتيتك بما قدرتُ عليه من ذلك. فأذنـت لـه وأعطته مالاً، فقدم العراق وبلاد كسرى فأطرفها من طرائفه وزادهـا مالاً إلى مالها كثيرًا، وقدِم عليها فأعجبها ذلك وسَرَّها وتَرَتَّـبَ لـه عندها منزلة. وعاد إلى العراق ثانية فقدِم بأكثر من ذلك طُرَفًـا مـن الجواهر والبَزّ والخَزّ والديباج، فازداد مكانه منـها وازدادت منزلتـه عندها ورغبتها فيه. ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفـق الذي تحت الفرات والطريق إليه. ثم خرج ثالثة فقـدِم بـأكثر مـن الأُولَيَيْن ظرائف ولطائف فبلغ مكانه منها وموضـعه عنـدها إلى أن كانت تستعين به في مهمّاتها وملمّاتها، واسترسلت إليـه وعوّلـت في أمورها عليه. وكان قصير رجلاً حسن العقل والوجه حصـينًا لبيبًـا أديبًا، فقالت له يومًا: أريد أغزو البلد الفلاني من أرض الشام، فاخرجْ

إلى العراق فأْتِني بكذا وكذا من السلاح والكُرَاع والعبيد والثيـاب. فقال قصير: ولي في بلاد عمرو بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح والكُرَاع والعبيد والثياب، وفيها كذا وكذا، وما يعلم عمرو بها، ولو علمها لأخذها واستعان بها على حربك. وكنت أتربص به المنون وأنا أخرج متنكرًا من حيث لا يعلم فآتيك بها مع الذي سألتِ. فأعطته من المال ما أراد وقالت: يا قصير، الـمُلْك يحسن لمثلك، وعلى يد مثلك يصلح أمره. ولقد بلغني أن أمر جذيمة كان إيرادُه وإصدارُه إليكم، وما تَقْصُر يدك عن شيء تناله، ولا يقعد بك حال ينهض بي. وسمع بها رجل من خاصة قومها فقال: أسدٌ خادرٌ، وليث ثائر قد تحفز للوثبة. ولما رأى قصير مكانه منها وتمكّنه من قلبها قال: الآن طاب المصَاع. وخرج من عندها فأتى عَمْرَ بن عدي فقال: قد أصبتَ الفرصة من الزباء، فانهض فعجِّل الوثبة. فقال له عمرو: قل أَسْمَع، ومُرْ أفعل، فأنت طبيب هذه القرحة. فقال: الرجال والأموال. قال: حكمك فيما عندنا مسلَّط. فعمد إلى أَلْفَيْ رجل من فتيان قومه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعير في الغرائر السود وألبسهم السلاح والسيوف والحَجَف وأنزلهم في الغرائر وجعل رؤوس المسوح من أسفالها مربوطة من داخل، وكان عمرو فيهم. وساق الخيل والعبيد والكُرَاع والسلاح والإبل محملة، فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير. ولما قرب من المدينة حمل الرجال في الغرائر متسلحين بالسيوف والحَجَف وقال: إذا توسطت الإبل مدينة الزباء

فالأمارة بيننا كذا وكذا، فاخترطوا الرُّبُط. فلما قربت العِير من مدينة الزباء رأت الإبل من قصرها تتهادى بأحمالها فارتابت بها. وقد كان وُشِيَ بقصير إليها وحُذِّرَتْ منه، فقالت للواشي به: إن قصيرًا اليوم منا، وهو ربيب هذه النعمة، وصنيعة هذه الدولة. وإنما يبعثكم على ذلك الحسدُ. ليس فيكم مثله. فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به إليها، فقالت:

ما للجمال مَشْيِها وئيدًا؟ أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفانًا باردًا شديدًا أم الرجال في الْمُسُوح سُودا؟

ثم أقبلت على جواريها فقالت: أرى الموت الأحمر في الغرائر السود. فذهبت مثلاً. حتى إذا توسطت الإبلُ المدينة وتكاملت ألقَوْا إليهم الأمارة فاخترطوا رؤوس الغرائر، فسقط إلى الأرض ألفا ذراعٍ بألْفَيْ باترٍ طالب ثأر القتيل غدرًا. وخرجت الزباء تَمْصَع تريد النفق، فسبقها إليه قصير فحال بينهما وبينه. فلما رأت أنْ قد أُحِيط بها ومُلِكَتْ التقمت خاتَمًا في يدها تحت فَصّه سُمّ ساعة، وقالت: بيدي لا بيدك يا عمرو. فأدركها عمرو وقصير فضرباها بالسيف حتى هلكت، وملكا مملكتها واحتويا على نعمتها. وخَطّ قصير على جذيمة قبرًا وكتب على قبره هذه الأبيات يقول:

مَلِكٌ تمتّعَ بالعساكر والقنا والمشرفيّةِ، عِزُّه ما يُوصفُ
فسعت منيّته إلى أعدائه وهو المتوّجُ، والحسام المرهفُ

الأمثـال

"الأمثال" جمع "مَثَل"، وهو جملة من القول مقتطَعة من كلام أو مرسلَة لذاتها تُنقَل مما وردت فيه إلى مُشَابِهه دون تغيير بغية الاستشهاد بها. وبعض الأمثال قد يكون مسجوعا متوازنا، وإن لم يكن هذا شرطا لا بد منه. وتمتاز هذه الجملة بأنها تلخَص الموقف أو الجدال أو التعليق وتَحْسِمه على خير وجه، وبأنها قصيرة لا تتجاوز بضع كلمات، وبأنها من الحيوية والسلاسة وحلاوة الصياغة وبراعة التصوير وتعدُّد الأبعاد بحيث يُكْتَب لها السيرورة والانتشار على ألسنة الناس، وبأنها لا تخلو فى كثير من الأحيان من موعظة أو حكمة.

وقد كتب حنا الفاخورى زاعما أن الأمثال الجاهلية، لكونها "كلام الشعب فى جميع طبقاتهم، فقد جاءت فى أكثرها غير مصقولة كما فى قولهم: أول ما أَطْلَعَ ضَبٌّ ذَنَبَه" (حنا الفاخورى/ تاريخ الأدب العربى/ ٢٠٢). وهذا حكمٌ جُزَافٌ لا معنى له ولا دليل عليه، وليس فى عبارة المثل الذى أورده ما يدل على ركاكة أو ضعف فى الصياغة البتة، بل تجرى على فحولة الصياغة العربية. وفى كتب النحو والصرف كلام عن هذا التركيب يجده القارئ فى نهاية باب المبتدإ والخبر، إذ يذكر العلماء عدة مواضع يجب فيها حذف الخبر منها أن يكون المبتدأ مضافا إلى مصدرٍ عاملٍ فى اسمٍ مفسِّرٍ لضميرٍ له حال لا

يصح ورودها خبرا، مثل: "أَكْثَرُ شُرْبِى السَّوِيق ملتوتا" و"أَخْطَبُ ما يكون الأمير قائما"، والمثل الذى بين أيدينا يقترب جدا من المثال الأخير كما نرى، إلا أن المعمول هنا (وهو "ذَنَبه") مفعول لا حال. ولو أردنا أن نصوغ المثل صياغة عاديّة لقلنا: "أول شيء يُطْلِعه الضَّبُّ من جحره هو ذَنَبُه". وعلى هذا فكلام الفاخورى مجرد دعوى فارغة من المضمون. وقد أكد د. شوقى ضيف بحق أن "طائفة من هذه الأمثال تدخل فى الصياغة الجاهلية البليغة، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صيفى وعامر بن الظَّرِب، وكان خطباؤهم المُفَوَّهون كثيرا ما يعمدون إلى حشدها فى خطاباتهم". بل إننى لأزعم، دون أدنى مبالغة فيما أحسب، أن معظم هذه الأمثال هى نموذج للصياغة البليغة الجزلة بعكس ما يهرف به الفاخورى. أما قول الدكتور شوقى ضيف إن "بعض الأمثال تخالف قواعد النحو والتصريف" فربما يكون كلامنا أدق لو قلنا إنها قد تخالف ما نعرفه من هذه القواعد، إذ كان الواجب أن يجعل علماء النحو والصرف تلك الأمثال مصدرا من المصادر التى اعتمدوا عليها فى استخلاص قواعدهم لا أن يحكّموا تلك القواعد فى مثل هذه النصوص الجاهلية التى يصعب أن يكون قد دخلها تغيير يُذْكَر، إن كان قد دخلها أى تغيير على الإطلاق كما قال الأستاذ الدكتور نفسه (د. شوقى

ضيف/ العصر الجاهلى/ ٤٠٤، ٤٠٨)، على عكس ما يؤكد ك. أ. فارق (K. A. Fariq) فى الصفحة الثالثة والثلاثين من كتابه: "History of Arabic Literature"، إذ يقول إن النثر الجاهلى كله (بما فيه الأمثال طبعا)، شأنه شأن الشعر فى ذلك العصر، قد دخله تحريف كثير من قِبَل الرواة، الذين زيفوه وبدّلوه وأضافوا إليه وحذفوا منه وشوّهوه، وذلك دون أن يدعم زعمه هذا بأى برهان، على الأقل فيما يخص الأمثال التى، نظرا لإيجازها الشديد وكثرة ترديدها واستمرار الاستشهاد بها والحرص التام على استعمالها كما نُطِق بها لأول مرة دون أى تحوير، يصعب جدا جدا أن ينالها شىء من هذا الذى قال. وسوف نتوسع بعض التوسع فى معالجة النقطة الخاصة بدعوى مخالفة الأمثال الجاهلية لقواعد النحو والصرف فيما بعد.

ونبدأ بالجانب اللغوى: وهناك ألفاظ كان الجاهليون يعرفونها ويستعملونها ولا يجدون فيها غرابة، لا فى وَقْعها على الأذن ولا فى وقعها على الذهن، ولا تشكّل لهم من ثَمّ أية صعوبة فى فهم دلالتها، بَيْدَ أن الأمر الآن قد تغير، فأضحت تلك الألفاظ لا تستعمل، وآضَتْ بحاجة إلى من يشرح للقراء معانيها، إذ اللغة تتطور كما يتطور كل شىء فى الحياة، فيموت بعض ألفاظها ولو إلى حين، وتجدّ عليها ألفاظ لم تكن معروفة

من قبل، أو على الأقل لم تكن شائعة الاستعمال كما هو الحال الآن... وهكذا.

وقد استطعت أن ألتقط بعضا من تلك الألفاظ التى تحتاج إلى من يشرحها للقارئ العصرى، إما لأنها غريبة عليه تماما، وإما لأنها، وإن لم تكن غريبة عليه فى ذاتها، فهى غريبة عليه بمعناها القديم، إذ أصبحت تعنى فى لغتنا الحالية معنى آخر غير الذى كان لها قبلا، أو هى غريبة عليه بصيغتها لكونه يعرف لذلك المعنى صيغة أخرى. ومن هذا النوع من الألفاظ "الاحتلاط: الغضب" (أوَّل العِىّ الاحتلاط)، و"القَيْن: الحداد" (إذا سمعتَ بسُرَى القَيْن فإنه مُصْبِح)، و"الصَّرِيح: اللبن الذى ليس فوقه رُغْوَة" (أَبْدَى الصريحُ عن الرُّغْوة)، و"العِذْرة: العُذْر"، و"الحَقِين: الوَطْب الذى يُحْقَن باللبن" (أَبَى الحَقِينُ العِذْرة)، و"ارْجَحَنّ: مال" و"الشّاصِى: الرافع رجله" (إذا ارْجَحَنّ شاصيًا فارفع يدا)، و"القِدْح: السهم الذى كانوا يستقسمون به، أى يحاولون أن يعرفوا به الغيب حسبما كانوا يتوهمون" (أَبْصِرْ وَسْمَ قِدْحك)، و"الشِّرْب: نصيب الشخص أو الحيوان من الماء" (آخِرُها أقلُّها شِرْبا)، و"العِقْى (وجمعه "أَعْقاء"): ما يخرج من الصبى عند ولادته" (احْذَر الصبيان لا تُصِبْكَ بأعقائها)، و"الذِّلّ (وجمعه "أذلال"): السهولة" (أَجْرِ الأمور على أذلالها)، و"الحَسّ: الاستئصال"، و"الأَسّ: الأصل"

(أَلْصِق الحَسّ بالأَسّ)، و"السَّلَى: مشيمة الحُوَار، وهو الجَمَل الوليد" (انقطع السَّلَى فى البطن)، و"الوَذَم: سيور تُربَط بها أطراف العَرَاقِيّ، وهى الخشبتان اللتان تكونان على حافة الدلو يُحْمَل منهما، أو الخشبتان اللتان تصلان بين وسط الرَّحْل والمؤخّرة، والمفرد: عَرْقُوَّة" (أَمِرَّ دون عُبَيْدَة الوَذَمُ: لم يستشره أحد فى الأمر لهوان شأنه)، و"البَعَاع: المتاع والثقل" (ألقى عليه بَعَاعَه: ألقى عليه نفسه من حُبّه له)، و"الزُّخَارِىّ: النبت عند ارتفاعه" (أخذت الأرض زُخَارِيَّها: اكتملت وبلغت الغاية)، و"الرَّطِيط: التذمر" (أَرِطّى، إن خيرك فى الرَّطِيط)، و"العَقَنْقَل: المُصْران" (أعط أخاك من عَقَنْقَل الضَّبّ: أعطه من كل ما معك مهما يكن تافها)، و"حَظَبَ يَحْظُب: سَمِنَ" (أُعْلُل تَحْظُب)، و"النَّجِيث: ما كان خافيا فظهر" (بدا نجيث القوم)، و"الحُذَيّا: العطيّة" (بين الحُذَيّا والخُلْسَة: إما أن تعطيه مما معك وإما اختلسه منك، أى أنه لا فَكَاك من أخذه منك ما معك)، و"الطِّرِّيقة: اللين والضعف"، والعِنْدَأْوَة: العِنَاد" (تحت طِرِّيقته عِنْدَأْوَة)، و"الثَّأْطَة: الطين" (ثأطةٌ مُدَّتْ بماء: بمعنى "زاد الطينَ بِلّة")، و"الجَدْح: الشُّرْب" ("جَدْحَ جُوَيْنٍ من سَوِيقِ غيره". وجُوَيْن: اسم شخص، والسَّوِيق نوع من الطعام)، و"القُذَّة: الريشة التى تركَّب على السهم" (حَذْوَ القُذّة بالقُذّة)، و"هَرَاق: أَرَاق" ("خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَى سِقاؤه، ومَنْ هُرِيق

بالفلاة ماؤه"، لأنه لا أمل فى صلاحه)، و"اليَلْمَع: السراب" (أَخْذَل من يَلْمَع)، و"الدَّبَرِىّ: الذى يأتى بعد فوات الأوان" (شرّ الرأى الدَّبَرِىّ)، و"الحَقْحَقَة: السَّيْر السريع الشديد" (شرّ السير الحَقْحَقَة)، و"الجِرْوة: النَّفْس" (ضَرَب على الأمر الفلانى جِرْوَته: وطَّن نفسه عليه)، و"الهِلْباجة: النؤوم الكسلان، أو الثقيل الجافى" (أعجز من هِلْباجة)، و"غَشَمْشَم: غَشُوم" (غشمشمٌ يَغْشَى الشجر: يُفْسِد كل شىء ولا يبالى، كالثور فى محل الخزف)، و"القُرَاب: القُرْب" (الفِرَار بقُرَابٍ أكيس: الفرار قبل التورط فى المهلكة أفضل من التمادى فى الأمر)، و"القَطُوف: البطىء المتأنى فى مشيته"، و"الوَسَاع: المسرع السابق" (القَطُوف يَبْلُغ الوَسَاع: قد يلحق المتأنى المتعجِّلَ)، و"الكِفْت والوَثِيَّة: القِدْر الصغيرة والكبيرة" (كِفْتٌ إلى وَثِيَّة: تقال لمن لا يكتفى بتحميل صاحبه المكروه الكبير، بل يُلْحِق به مكروها آخر)، و"البِضَاع: الجِمَاع" (كمعلِّمة أمها البِضَاع)، و"جَلَل: صغير" (كلُّ شىءٍ أخطأ الأنفَ جَلَل)، و"اليَهْيَرّ: السراب" (أكْذَب من اليَهْيَرّ)، و"لِحَام: لحوم" (لكنْ لِحَامٌ بشَرْمَةَ لا تُجَنّ)، "بَلِلْت: ابْتُليت" (ما بَلِلْتُ من فلان بأَفْوَقَ ناصِل: ظهر أنه رجل صعب المراس. والأفوق الناصل: السهم المكسور)، و"وَدَّعَ نفسه: أراحها. وهو مأخوذ من الدَّعَة لا من التوديع" (من لم يَأْسَ على ما فات ودَّعَ نفسه)، و"العَبَكَة: ما

يعلق بأصواف الغنم من بَعْرها" (ما أُباليه عَبَكَةً)، و"مُخْرَنْبِق لِيَنْبَاع"، أى لاطئ بالأرض ينتهز فرصة ليثب على عدوه، و"تعَظْعَظَ: اتَّعَظ" (لا تَعِظِينى وتَعَظْعَظِى).

وثمة جانب فى الأمثال يحسن أن نتناوله ضمن ما نتناول منها هنا، ألا وهو الألفاظ العارية. والواقع أن مثل هذه الألفاظ لا تظهر بقوة فى الأمثال الجاهلية ولا فى الأمثال العربية الفصيحة بوجه عام، وربما لم يكن هناك منها فى الأمثال الجاهلية التى وقعت لى فى كتاب "جمهرة الأمثال" لأبى هلال العسكرى إلا "الضُّرَاط" و"الاسْت" و"الخُرْء"، فضلاً عن قلة ورود هذه الألفاظ فى حد ذاها. وقد كنت أحسب أن مثل هذا النوع من الألفاظ سيكون كثيرا فى كلام الجاهليين نظرًا لخشونتهم وبداوتهم وعدم احتشام وثنيتهم، إلا أن الواقع جاء شيئا آخر غير ما كنا نتصور، على الأقل طبقا لما تقوله أمثالهم فى هذا الشأن. وهذه بعض شواهد على ورود هاتين اللفظتين فى تلك الأمثال: "أَضَرِطًا وأنت الأعلى؟"، "أَضَرِطًا آخر اليوم؟"، "اسْتُ البائن أعلم"، "استٌ لم تُعَوَّد المِجْمَر"، "قد يَضْرِط العَيْرُ والمِكْواة فى النار"، "خَرِئَتْ بينهم الضبع".

وهناك، إلى جانب ما مرّ، صيغ صرفية وتراكيب نحوية لم تعد تستخدم الآن، مثل استعمال "ليس" فى موضع حرف العطف "لا" كما فى المثل التالى: "إنما يَجْزى الفتى ليس الجمل"،

وهو استعمال لـ "ليس" لا يعرفه كثير منا، يضاف إلى استعمالها أداة استثناء كما فى قولنا: "قام الطلاب ليس عَلِيًّا"، أى قاموا إلا عَلِيًّا. ومن هذه التراكيب أيضا حذف خبر "أَنَّ" رغم عدم تقدم ما يدل عليه، إلا أنه مفهوم من السياق كما فى الشاهد التالى: "أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أُسَيْمِرًا"، إذ المعنى أن هذا المكان هو فعلا المكان الذى يسمَّى "شرجًا"، إلا أن الأُسَيْمِر (أى شجرات السَّمُر) التى كنت أعبدها فيه ليست موجودة. وتمام الكلام إذن هو: "أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أُسَيْمِرًا كنت أعبدها من قبل كانت هناك". ولعل القارئ قد تنبه إلى تصغير صيغة الجمع فى "أَسْمُر" (جمع "سَمُرَة")، وتصغير صِيَغ الجمع كما هى (أى دون ردّها إلى صيغة المفرد أوّلاً) ممنوع بوجه عام فى اللغة العربية حسبما هو معروف، اللهم إلا ما نَصَّ عليه الصرفيون، وهو جموع تكسير القِلّة، ومنها صيغة "أَفْعُل" التى بين أيدينا. كذلك يعرف الملمّون بالنحو العربى أن هناك مواضع تحذف فيها "كان" واسمها، لكن ليس من بينها "إلا"، التى نلاحظ فى الشاهد التالى كيف أن قائل المثل قد حذف بعدها "كان" واسمها مثلما يحذفهما العرب بعد "لو" كما فى قول الرسول الكريم مثلا: "التمس ولو خاتَمًا من حديد"، أى ادفع أى مهر حتى لوكان هذ المهر مجرد خاتَمٍ من حديد لا قيمة له، وكذلك بعد "إنْ" المكرَّرة كما فى مثل قوله عليه

السلام: "الناس مجزِيُّون بأعمالهم: إنْ خَيْرًا فخَيْرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ"، أى إن كان العمل المجزِيّون به خيرًا فالجزاء خَيْرٌ، أو كان هذا العمل شرًّا فالجزاء شَرٌّ. ونَصّ المثل هو: "إلاّ حَظِيَّةً فلا أَلِيَّةٌ"، أى "إذا لم يكن أمرك هو الحظوة عند من تريد أن يكرمك فلا تَأْلُ أن تتودد له". ومن الشواهد التى جاءت فيها " كان" واسمها محذوفين قولهم فى المثل التالى: "قد قيل ذلك إنْ حقًّا وإنْ كذبًا"، أى قيل ما قيل، وانتهى الأمر، سواء كان الكلام المَقُول حقا أو كذبا. كذلك انظر إلى المثل التالى: "أنا غَرِيرُك من الأمر" (ومعناه: "أنا عالم بالأمر علمًا يجعلنى أجيبك فى أى أمر منه حتى لو كان سؤالك على حين غِرّة") كيف أدى التركيبُ فيه إلى المعنى المقصود رغم أنه لا يدل عليه دلالة مباشرة لا تُحْوِج إلى شرح. وهناك أيضا المثل التالى بتركيبه الذى لا يقابلنا فى فصحانا المعاصرة رغم استمراره فى العاميّة: "أَعْوَرُ، عَيْنَكَ والحَجَرَ"، فهو يدل على التحذير من خطر يتهدد المخاطب، وهو هنا الحجر الذى يمكن أن يصيب عين الأعور، مع ملاحظة أن كلا من المهدِّد (الحجر) والمهدَّد (العين) منصوب كما هو واضح. وهو تركيب لا يستعمل الآن إلا فى العامية كما قلت، بل لا أظنه من التراكيب التى تقابلنا فى النصوص القديمة كثيرا. ولا تنس أن أداة النداء قد حُذِفت كذلك فى النص، إذ الأصل: "يا أعور"، والمقصود: "أيها

الأعور، احذر أن يصيب عينَك الوحيدةَ الباقيةَ حجرٌ يذهب ببصرها أيضا فتصبح أعمى تماما".

أما فى قولهم: "أَحَشَفًا وسُوءَ كِيلة؟" فقد حُذِف الفعل وفاعله، وهو استنكار لجمع الشخص بين خَلّتين سيئتين فى تعامله مع الناس بدلا من الاقتصار على واحدة منهما ليست فى ذاتها بالقليلة. ومثله قولهم فى مثلٍ آخر: "أغَيْرَةً وجُبْنًا؟"، وهو مثل تقوله الزوجة لرجلها الذى يغار أشد الغيرة عليها، لكنه من الجبن بحيث لا يحاول الدفاع عنها إذا تعرض عِرْضه للعدوان. وهناك صيغة صرفية قابلتنى فى الفعل: "أَنْجَدَ" من قولهم: "أَنْجَدَ من رأى حَضَنًا" (إشارةً إلى الوصول إلى الغاية)، وهى صيغة "أَفْعَلَ" للفعل الماضى المشتق من اسم بلدٍ ما أو مدينةٍ من المدن، كقولهم: "أَعْرَقَ، وأَشْأَمَ، وأَعْمَنَ، وأَيْمَنَ، وأَمْنَى"، أى وصل العراق أو الشام أو عمان أو اليمن أو مِنًى أو شارف الوصول. و"حَضَنٌ" اسم جبل مشهور فى نجد. وثمة صيغة جمعية لا نستخدمها عادةً فى الموضع الذى جاءت فيه، وهى صيغة "أفعال" فى قولهم: "أجناؤها أبناؤها" (جمع "جانٍ" و"بانٍ") بدلا من "جُنَاتُها بُنَاتُها"، أى أن من جَنَوْا عليها (أى هدموها) هم أنفسهم الذين سبق أن بَنَوْها. وهى صيغةٌ جمعيةٌ قليلةُ الاستعمال فى هذا الموضع حسبما قلنا كما فى "صاحِب: أصحاب" و"شاهِد: أشهاد"، ولكنها ليست خاطئة كما قد

يُفْهَم من كلام د. شوقى ضيف، الذى علق على هذا المثل قائلا إن "القياس "جُنَاتُها بُنَاتُها" لأن "فاعِلاً" لا يُجْمَع على "أفعال"..." (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ٤٠٨)، وفاته أن القرآن نفسه قد استخدم "أشهاد" فى موضعين منه (هود/ ١٨، وغافر/ ٥١)، ومثلها "أصحاب"، التى تكررت فيه نَيِّفًا وسبعين مرةً، وهما جمع "شاهِد" و"صاحِب" على التوالى، وليس بعد قول الله قول. كذلك ذكر عباس أبو السعود فى كتابه: "الفيصل فى ألوان الجموع" (دار المعارف/ ١٩٧١م/ ٤٠) أنه ورد عن العرب أيضا "قابِس: أَقْباس" و"جاهِل: أَجْهال". أما فى قولهم: "إذا جاء الحَيْن، حَارَ العين" فنلاحظ تذكير الفعل: "حَار" رغم إسناده لمؤنث، وهو استعمال صحيح لأن لفظة "العين"، وإن كانت مؤنثة، فتأنيثها مجازى، أى أنها ليست كائنا حيًّا له عضو أنوثة كالمرأة والدجاجة مثلا، ومن ثم جاز فى لغة الضاد تذكير فعلها.

ومن التركيبات اللافتة للنظر اكتفاؤهم بالحال فقط من بين أركان الجملة جميعا كما فى المثلين التاليين: "أضَرِطًا وأنت الأعلى؟"، "أضَرِطًا آخر اليوم؟". أما فى قولهم فى المثل التالى: "اقْلِبْ قَلابِ" (أى اقلب الكلام وعُدْ إلى ما قلتَه من قبل. وهو مثل يُضْرَب للرجل تكون منه سقطة فيتداركها بأن يقلبها عن جهتها ويصرفها عن معناها) فعندنا صيغة "فَعَالِ" التى تعنى

"افْعَلْ"، مثل "دَرَاكِ"، "نَــزَالِ"، أى أَدْرِكْ، وانْــزِلْ. ومــن أسمــاء الأعلام التى قابلتنى فى أمثال الجاهليين علــى هــذه الصــيغة أيضــا اسم "عَرَارِ"، وهو من أسماء الأعــلام المؤنثــة، وقــد ورد فى المثــل التالى: "بــاءت عَــرَارِ بكَحْــل"، أى أن عــرارِ وكحــلاً بقرتــان متساويتان لا تفضل إحداهما الأخرى، فــإذا أَخَــذْتَ هــذه بــدلا من تلك، أو تلك بدلا من هــذه، لم تخســر شــيئا. ولــنلاحظ أن هذا الاسم، رغم مجيئه فــاعلا، قــد بُنِــىَ علــى الكســر، وهــذا إعرابه دائما فى لغة الحجازيين مهمــا تغــيرت وظيفتــه فى الجملــة. ومنه أيضا ما ورد فى الأمثال التالية: "اِسْــقِ رَقَــاشِ، إنهــا ســقّاية" (اسم امرأة كريمة)، "القــولُ مــا قالــت حَــذَامِ" (اســم امــرأة اشتهرت بصحة رأيها)، "أجرأ من خاصى خَصَــافِ" (اســم فــرس خصاه صاحبه كى لا يأخذه منــه ملــك أعجبــه الفَــرَس وأراد أن يستولى عليه)، "رُوغِى جَعَارِ، وانظــرى أيــن المفــرّ" (اســم عَلَــمٍ على الضبع)، "أَزْنَــى مــن سَــجَاحِ" (وهــى الكاهنــة التميميــة المشهورة التى ادعت النبوة عنــد مــوت الــنبى عليــه الســلام ثم فاءت إلى الإسلام كرة أخرى، وكان لهــا مــع مســيلمة الكــذاب قصة معروفة هى التى شَهَرَتْها بهذا المثل)، "صَــمِّى صَــمَامِ" (اســم للداهية. وهو مثل يقال عند استفظاع الداهية تعــبيرا عــن الضــيق بها والرغبة فى انقشاعها). بيد أن هــذه الصــيغة لا تبلــغ غرابــة صيغة "فُعَّيْلَــى" التى نقابلها فى الشــاهد التــالى مــرتين: "الأخــذ

سُريِّطَى، والقضاء ضُرَيِّطَى"، أى هو فى الاستدانة لطيف المعشر، لكنه عند الدفع يستحيل شخصًا شَكِسًا سَيئ الذمة.
وفى قولهم: "أخذه الله أخذ سَبْعَة" نراهم يسمون اللبوة: "سَبْعة" (تأنيث "سَبْع")، ولا يعرف هذه التسمية إلا الأقلون، ومَثَلُها فى هذا مَثَلُ "رَجُلَة" (مؤنث "رَجُل") بدلا من "امرأة".

وفى بعض الأمثال نلاحظ إيراد الحرف "ما" قبل الفعل المتأخر عن شبه الجملة، وذلك لتأكيد المعنى، ومثله قولهم: "باليدين ما أَوْرَدَها زائدةُ" (و"زائدة" اسم رجل)، "بِعَيْنٍ ما أَرَيَنَّك"، "قبلك ما جاء الخبر"، "لك ما أبكى، ولا عَبْرَةَ بى"، "وبالأشْقَيْنَ ما حَلَّ العِقابُ". كما أن هناك مثلا واحدا على الأقل تكررت فيه "بين" مع اسمين ظاهرين على خلاف ما يدعى بعض اللغويين المتنطّسين من أن مثل هذا التكرار لا تجيزه العربية، ثم اتضح لى منذ سنوات غير قليلة أن ذلك غير صحيح، إذ وجدتُ فى الشعر الجاهلى والإسلامى والأموى عشرات الشواهد التى تدل على أنه ليس فى هذا التكرار ما يعاب من جهة الأسلوب العربى الأصيل، وإن لم يرد ذلك التركيب فى القرآن، إذ القرآن الكريم لا يستوعب، كما هو معروف، كل إمكانات اللغة، فهو كتاب سماوى لا معجم لغوى. وعلى أية حال هذا هو المثل المذكور: "بين المطيع وبين المُدْبِر العاصى"، أى أنه لا يوثَق بموقفه، فهو متذبذب بين

الطاعة والمعصية، فأيتهما أمكنته جرى فى طريقها. ومن التراكيب التى قابلتنى هنا أيضا وأرى أنه ينبغى التلبث عندها قليلا التركيب الذى عليه المثلان التاليان: "جَارِى بَيْتَ بَيْتَ"، "وقعوا فى حَيْصَ بَيْصَ"، ببناء الكلمتين على الفتح كما هو واضح، وهو مثل قولهم: "صباحَ مساءَ"، "ليلَ نهارَ"، "أحدَ عشرَ". وقد أجريتُ التعبير العامى: "خَبْطَ لَزْقَ" عليه واستعملته فى كتاباتى مطعِّما الفصحى به على طريقتى فى إغناء لغة الكتابة بما أرى استعارته من العامية بعد إجرائه على مقتضيات قواعد النحو والصرف. ويمكن أن نلحق به الكلام فى الجملة التالية: "اذهب إلى المكان الفلانى جَرْىَ جَرْىَ"... وهكذا.

ومما لفت انتباهى من التراكيب التى قابلتنى فى الأمثال الجاهلية ما ورد فى قولهم: "حَبَّ شيئًا إلى الإنسانِ ما مُنِعَا"، الذى استُخْدِم فيه الفعل "حَبَّ" بدلا من "أفعل التفضيل" (هكذا: "أَحَبُّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا")، مع نَصْب "شىء" لا جَرّه كما يلاحظ القارئ. وهناك أيضا تركيب آخر للدلالة على التفضيل وردت منه أمثلة فى الشواهد التالية من أمثال العرب القدماء، وهى: "فتًى ولا كمَالِكٍ"، "مَرْعًى ولا كالسّعْدان"، "ماءٌ ولا كصَدّاء"، فالاسم الذى بعد "ولا" مفضَّل على ما قبلها. وقريب منه قولهم: "المنيَّةُ ولا الدنيَّة"،

"النارُ ولا العارُ"، وإن كان التفضيل فى هذا التركيب الأخير للمذكور أوّلاً، وهو "المنيّة" و"النار" على الترتيب. أما فى المثلين التاليين اللذين يجريان فى تركيبهما على ذات المنوال فإن المعنى يختلف عما نحن إزاءه، ففى قولهم: "مرعًى ولا أكولةٌ"، و"عشبٌ ولا بعيرٌ" لا مجال للتفضيل، بل المقصود التحسر على توفر المرعى والعشب بغزارة، ولكن دون فائدة، إذ لا وجود للماشية التى يمكن أن تأكله. وبالنسبة لكلمة "رُوَيْد" فلا أظننا الآن نعرفها إلا فى قولنا: "رُوَيْدًا يا فلان" أو "رُوَيْدَك يا فلان"، بَيْدَ أن العرب القدماء كانوا يتصرفون فيها أوسع من ذلك كما فى المثلين التاليين: "رُوَيْدَ الشِّعْرَ يَغِبَّ" (انتظر قليلا حتى ينتشر الشِّعْر بما فيه من مدح أو هجاء ويعمل عمله فى العقول)، "رُوَيْدَ الغَزْوَ ينمرقْ". ولاحظ كيف أن الاسم بعد "رُوَيْدَ" يكون منصوبا. وللنحاة فى هذا التركيب كلام يعللون به هذا الإعراب، وأرى أننا لا ينبغى أن نجرى مع تقديرات النحاة التى لا تسير على منطق اللغة الواضح المستقيم، بل نكتفى بالقول هنا إن الاسم الواقع بعد"رُوَيْدَ" ("رُوَيْدَ" دون تنوين) يكون منصوبا، والسلام، وذلك دون أن نعنّى أنفسنا بالبحث عن السبب فى هذا النَّصْب خارج تلك الدائرة. ثم إنه قد يلى هذه الكلمةَ فعلٌ كما فى المثل التالى: "رُوَيْدَ يَعْلُون الجَدَد"، أى ارفق حتى يمكننى الأمر. وبالمثل لا أحب أن نرهق

أنفسنا مع الصرفيين فى توجيه صيغة الكلمة، وهل هى تصغير "رُود" طبقًا لما يقول به بعضٌ أو "إرواد" بناءً على ما يقوله آخرون؟

وهناك صيغة صرفية أخرى لم تعد تستخدم أيضا على نطاق واسع، وهى الأسماء التى على وزن "فُعْلَى"، إذ لا يفد على ذهنى منها الآن إلا "العُقْبَى" (أى "العاقبة") و"الشُّورَى" و"النُّعْمَى" (أى "النعمة")، و"البُقْيَا: أى الإبقاء"، و"الدنيا". وفى القرآن، إلى جانب ذلك، "الرُّجْعَى" (بمعنى "الرجوع") و"السُّوأَى" (أى "السُّوء")، و"اليُسْرَى"، و"العُسْرَى". ومن أسماء النساء عند العرب "سُعْدَى" و"سُلْمَى"، وفى الأمثال التى بين أيدينا نجد أيضا "رُغْبَى" و"رُهْبَى": "رُهْباك خيرٌ من رُغْباك"، أى رهبتك خير من رغبتك. والمعنى أنك لا تأتى ما تأتى من أعمال الخير عن رغبة منك وحب بل عن رهبة وخوف. أما الاسم "خَفَيْدَد: الظليم (أى ذَكَر النعام)" فى المثل التالى: "أَشْرَه من خَفَيْدَد" فقد جاء على صيغة لا أظننى قابلت اسما آخر على وزنها من قبل، إذ هو وزن نادر لا أستطيع أن أتذكر اسما من الأسماء المصبوبة فيه، وإن كان هناك "سَمَيْدَع: الشريف الشجاع" مثلا، إلا أنه صفة لا اسم.

ومن التراكيب التى وجدها فى أمثال الجاهليين أيضا قولهم: "عَدْوَكَ إذ أنت رُبَع" لتحميس الشخص ليبذل أقصى ما

عنده كما كان يفعل أيام الشباب والحيوية. و"العَدْو" هو الجرى السريع، و"الرُّبَع" هو الجمل فى شبابه. والشاهد فى الكلام هو نصب "عَدْوَك" على الإغراء، والإغراء باب من أبواب النحو معروف، وإن لم يكن هذا التركيب مما ينتشر فى الأسلوب العصرى على نطاق واسع. أما المثل القائل: "عسى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًا" فهو يخالف القاعدة العامة التى تقول إن خبر "كاد" وأخواتها لا يكون إلا جملة فعلية فعلها مضارع: مع "أَنْ" أو بدونها حسب حالة كل فعل منها، إذ الخبر هنا مفرد لا جملة، فكأنهم قد أَجْرَوْا "عسى" فى هذا المثل مجرى "كان" وأخواتها. وبالمناسبة فهذا المثل هو أحد الشواهد فى كثير من كتب النحو على ذلك الاستعمال. وهناك استعمال آخر لـ"عسى" يسوّيها بـ"لعلّ"، فينصب اسمها ويرفع خبرها، الذى يمكن فى هذه الحالة أن يكون مفردا أو شبه جملة، ومنه ما كنا نسمعه من السعوديين حين يهنئ بعضهم بعضا بالعيد فيقولون: "عساكم من عُوّاده". وبالمثل نجد أهل اللغة المهتمين بصحة الأساليب يخطّئون مجىء "لا" بين "قد" والمضارع قائلين إنه ينبغى فى هذه الحالة الاستعاضة بـ"ربما" عن "قد" فلا يقال مثلا: "قد لا ألعب"، بل لا بد من تغييرها إلى "ربما لا ألعب". وقد غَبَرَ علىّ زمن كنت أخطّئ من يفعل ذلك، ثم جاء وقت ظننت أن هذا تحكم لا معنى له، كما وجدت فى كتاب

محمد العدنانى: "معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة" بعض الشواهد على صحة هذا التركيب منها بيت شعر للأعشى هذا نَصُّه:

وقد قالت قُتَيْلَةُ إذ رأتنى وقد لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا

وهو مَثَلٌ يُضْرَب للشىء الرائع الذى لا يخلو أن يجد من يعيبه رغم هذا، وإن كانوا يحذفون منه "قد". وهناك بيت آخر للنمر بن تَوْلَب الشاعر المُخَضْرَم، أورده العدنانى أيضا، ونصه:

وأَحْبِبْ حبيبك حُبًّا رُوَيْدًا فقد لا يَعُولك أن تَصْرِما

إلى جانب عبارتين لابن جنى وابن مالك صاحب الألفية، وهما من كبار النحاة وأهل اللغة.

ثم بدا لى، وأنا أكتب هذه الدراسة، أن أراجع الشعر القديم فى "الموسوعة الشعرية" الضوئية مجتهدا ما استطعتُ مقاومة الملل والضيق أثناء بحثى عن الشواهد المرادة، لكنى، فى حدود ما تنبهتُ وغالبتُ ملل البحث فى أكوام ذلك الشعر، لم أتنبه إلى وجود شواهد أخرى تسوّغ موقفى الجديد، وهأنذا أعود فأرى أن من الأفضل لى أنا شخصيا مما لا أُلْزِم به غيرى تجنُّبَ استعمال ذلك التركيب فى كتاباتى بما فيها الرسائل الشخصية التى لم أكن أتحرز فيها تحرزى فى الكتابات الرسمية والأدبية، والعَوْد أحمد كما يقولون. بَيْدَ أننى قد عثرت رغم ذلك بالمَثَل التالى أثناء قراءتى لكتاب أبى هلال العسكرى

الحالَى: "جمهرة الأمثال"، وقائله رجل جاهلى هو سعد بن زيد مناة التميمى، قاله بعد أن شاخ وأضحى لا يستطيع أن يسوق بنفسه جمله الذى يركبه، وهو بالمناسبة من الشواهد التى ساقها الأستاذ العدنانى، بارك الله فيه، وهذا نص المثل: "قد لا يُقَاد بى الجمل". أى أننى لم أكن قبلا أحتاج إلى من يقود بى الجمل كما هو الحال الآن بعد أن شِبْتُ ولم أعد أستطيع القيام بأمر نفسى. فالمَثَل إذن تعبير عما يجده الرجل العجوز من حسرة بعد أن ضعفت قواه وولَّى عنه الشباب.

وهناك مَثَلٌ لفت نظرى كونُه جملة اسمية خالية من أى فعل بما يعنى خلوها من التحديد الزمنى، وكان المفروض بناءً على هذا أن تدل على المعنى المقصود مطلقا دون الارتباط بزمن معين، أو على الأقل مع قَصْره على الزمن الحاضر، لكنها مع هذا قد صيغت لتدل على الماضى، وهو ما لا يقبله النحويون. فهذا الشاهد إذن يسير بعكس ما يقولون، وهذا هو نصه: "لكنْ بشَعْفَيْنِ أنتِ جَدُودُ". و"الجَدُود" هى القليلة اللبن، والمَثَل فى امرأة كانت فقيرة محرومة حتى من اللبن، ثم أصابت غنًى وكثرت عندها الماشية ودَرَّت ألبانها، فأخذت تتفاخر بذلك، مما دفع مبغضيها لتذكيرها بأيام فقرها حين كانت تترل الموضع المسمَّى: "شَعْفَيْن"، كى تكف عن هذا الفخر الكريه. كذلك هناك عدد من الأمثلة تتضمن "أفعل تفضيل" مباشرا

مشتقًا من فعل مبنى للمجهول، وهو ما يرفضه كثير من الصرفيين حسب القواعد التى وضعوها، وإن كان لكل قاعدة شواذ كما نعرف، ومنها الأمثال التالية: "أَشْغَلُ من ذات النِّحْيَيْن"، "أَقْوَد من مُهْر"، "أَمْنَع من عُقَاب الجو". ونختم هذه الملاحظات اللغوية بالإشارة إلى ما ورد فى المثل التالى: "وِجْدانُ الرِّقين يغطِّى على أَفَن الأَفِين"، أى أن غنى الشخص وامتلاكه للرِّقين، وهى الفضة، يستر على كل عيوبه وحماقاته. فـ"الرِّقين" جمع "رِقَة"، وهو ما يسمى فى الصرف بالملحق بجمع المذكَّر السالم، لأن كلمة "الرِّقَة" لا تتوفر فيها الشروط التى لا بد منها فى ذلك النوع من الجمع، مَثَلُها فى هذا مَثَلُ "بُرَة: بُرُون– بُرِين"، "كُرَة: كُرُون– كُرِين"، "عِزَة: عِزُون– عِزِين"، "عِضَة: عِضُون– عِضِين"، "مِئَة: مِئُون– مِئِين"، "رِئَة: رِئُون– رِئِين"، "سَنَة: سِنُون– سِنِين"...إلخ.

فإذا انتقلنا إلى الجانب الموسيقى لاحظنا أن بعض الأمثال تعتمد السجع والجناس والطباق والموازنة (كلها أو بعضها) بغية توفير الإيقاع الموسيقىّ والذهنىّ لضمان المتعة والحفظ والسيرورة. بل إن بعض هذه الأمثال عبارة عن بيت من الشعر أو شطر من شطريه. وها هى ذى الشواهد على ما نقول: "اختلط الحابل بالنابل"، "إذا أردتَ المحاجزة فقَبْلَ المناجزة، "إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ"، "إذا لم تَغْلِبْ فاخْلُبْ"، "إذا جاء الحَيْن، حارَ

العَيْن"، "ارْقَ على ظَلْعِك، واقْدِرْ بِذَرْعِك"، "أَرِنيها نَمِرَة أُرِكَها مَطِرَة"، "أَعْذَرَ من أَنْذَر"، "إن القُنُوع الغِنَى لا كثرة المالِ"، "إنني لن أَضيرَه. إنما أطوى مَصيرَه"، "استغنت التُّفَّة عن الرُّفَّة"، "بِعْتُ جارى، ولم أَبِعْ دارى"، "جاء بالطِّمِّ والرِّمِّ"، "جَدُّك لا كَدُّك"، "حال الجَرِيض دون القَرِيض"، "الخَلاء بَلاء"، "دُهْدُرَّيْن سَعْد القَيْن"، "رُبَّ قَوْل أشد من صَوْل"، "ضَرْب أخماسٍ لأسداس"، "الطريفُ خفيف، والتَّليدُ بليد"، "قُرْبُ الوِساد، وطُولُ السَّوَاد"، "كُلُّ الحِذَاءِ يحتذِى الحافى الوَقِع"، "لولا اللئام لَهَلَكَ الأَنَام"، "ليس من العَدْل سرعة العَذْل"، "مَنْ لى بالسانِح بعد البارِح؟"، "المنايا على البلايا"، "مِنَ العَنَاء رياضة الهَرِمِ"، "هذا أوان الحرب، فاشتدِّى زِيَمْ"، "اليومَ خَمْر، وغدًا أَمْر".

ومن الجوانب الاجتماعية التى أريد أن أتناولها فى هذه الدراسة الأسماءُ التى كان العرب القدماء يتسمَّوْن بها، وقد وُفِّقْتُ إلى العثور على الأسماء التالية للرجال والنساء: فأما الرجال، وليسمح لى الجنس اللطيف أن أبدأ بهم أوّلاً جريًا على العرف الاجتماعى وليس رغبة فى تنقصهن، فها هى ذى أسماؤهم التى تنبهتُ إليها أثناء تصفحى للأمثال الجاهلية (الجاهلية فعلاً أو ظنًّا) الموجودة فى كتاب العسكرى: "سَعْد"، "سُعَيْد"، "عُبَيْدَة"، "دَرِم"، "سَمْلَقَة"، "حُنَيْف"، "مالك"، "زيد

مناة"، "عمرو"، "سالم"، "فَلْحَس"، "مادِر"، "سَحْبان"، "قُسّ"، "لقمان"، "المُرَقِّش"، "جُوَيْن"، "عُمَيّ"، "حاتم"، "هَرِم"، "كعب"، "هَبَنَّقَة"، "حُجَيْنَة"، "ربيعة"،"عَدِيّ"، "أبو غُبْشان"، "جَنّاب"، "عِجْل"، "الأحنف"، "سِنَان"، "حُنَيْن"، "عُرْقوب"، "دُعَيمِص"، "أسعد"، "فُطْرَة"، "إياس"، "أخزم"، "حُذاجة"، "قَرْثَع"، "شِظَاظ"، "سَلاّغ"، "عائشة"، "عَشْم"، "مَرْقَمَة"، "جُفَيْنَة"، "حُمَيْق"، "عَوْف"، "كُلَيْب"، "مَرْوان"، "الشَّنْفَرى"، "السُّلَيْك"، "باقِل"، "مُزَيْقِياء"، "عُتَيْبَة"، "قيس"، "عاصم"، "الحارث"، "حاجب"، "زُرَارة"، "سَدُوم"، "بِسْطام"، "كُلثوم"، "عامر"، "البَرّاض"، "ظالم"، "المُذَلّق"، "الطُّفَيْل"، "ناشِرة"، "قَصِير"، "حَمَل"، "أَسْلَم"، "ضُبارة"، "جَدْرَة"، "ابن تَوْضَع"، "الذئب"، "عصام"، "خُرافة"، "عَبود"، "جَنّاب"، "خُرَيْم"، "حَيّان"، "حوثرة"، "خَوّات"، "الخُرْشُب"، "شَنٌّ"، "السَّمَوْأَل"، "جَذِيمة"، "النَّطِف"، "لُكَيْز"، "أَسْلَم"، "قَوْضَع"، "ضَبارة"... إلخ.

هذه أسماء جنس الرجال، وكما يرى القارئ فمعظمها خَشِنٌ وَعْر، والآن إلى أسماء القوارير، ولكن يؤسفني من كل قلبي أن أقول إنها، بوجه عام، لا تقل خشونةً ووعورةً، وليس هذا بالشيء المستغرب، فقد كان الجاهليون بدوا خشنين، وكان معظم ما حولهم وَعْرا جافيا، فمن أين يمكنهم أن

يستمدوا الأسماء الجميلة، والإنسان فى الغالب هو ابن بيئته وظروفه؟ ما علينا، فلنتابع أسماء الجنس اللطيف فى الجاهلية، ولنكن على ذُكْرٍ من أن صاحبات هذه الأسماء الجافية هن اللاتى شغلن أفئدة الشعراء وأسهرنهم الليالى يتقلبون على الشوك والجمر، أو لا يجدون ما يعملونه سوى عد النجوم بسبب مجافاة النوم لهم، وأشعلن خيالهم وأطلقن قرائحهم وألسنتهم بالقصائد الخالدة التى أبقت على ذكرهن طوال هذه القرون وستُبْقِى عليها إلى أبد الآبدين ما دامت هناك هذه اللغة العبقرية، لغة الضاد. وهذا بعض ما وجدتُه من أسماء لآنساتنا وسيداتنا (تيجان رؤوسنا سواء رَضِينا أو كَرِهْنا): "رَقَاشِ"، "حَذَامِ"، "سَجَاحِ"، "زرقاء"، "حَوْمَل"، "مارِخَة"، "أمّ خارجة"، "مَنْشِم"، "لَمِيس"، "مارِية"، "حليمة"، "الزَّبّاء"، "أمّ قرفة"، "ظُلْمَة"، "صُخْر"، "عاتكة"، "شَوْلَة"، "خبيثة"... وهلمّ جرًا. ومن الواضح أن الأغلبية الساحقة من هذه الأسماء، الرجالىّ منها والنسائىّ، قد اختفت من حياتنا تبعا لتغير الأذواق والمفاهيم والمعتقدات وظروف الحياة والبيئة والتطور التاريخى، وبخاصة أنها أسماء جاهلية لا تربطنا بها وشيجة كالتى تربطنا بالأسماء الإسلامية التى نعتز بها أيما اعتزاز ونحرص على تسمية أبنائنا وبناتنا بها.

هذا، وما أكثر الأمثال التى تدور حول هذا الشخص أو ذاك لخَلَّة فيه أو لحادثة وقعت له اشتهر بها بين العرب حتى ضُرِب به المثل، ومن ذلك الأمثال التالية، وكثير منها يقوم على المقارنة وأفعل التفضيل: "آبَلُ من حُنَيْف الحاتم"، أى أكثر إبلاً، "أبخل من مادِر"، "أبصر من زرقاء"، "أبلغ من سَحْبان"، "أَتْيَسُ من تُيُوس تُوَيْت"، "أحزم من سِنَان"، "أحكم من لقمان"، "أحمق من أبى غبشان، أو من شَرَنْبَث"، "أَسْرَق من شِظاظ"، "أسَعْدٌ أم سُعَيْد؟"، "أَضْبَط من عائشة بن عَثْم"، "أطمع من فَلْحَس"، "أعظم فى نفسه من مُزَيْقِياء"، "أَفْتَك من الحارث بن ظالم"، "أَقْوَد من ظُلْمة"، "أَنْكَحُ من حَوْثَرَة" (وهذا المثل يقال للشخص المِزْوَاج)، "أَنْعَم من حَيّان"، "أينما أُوَجِّه أَلْقَ سَعْدًا"، "بِيَدِى لا بِيَدِ عمرو"، "تجشَّأ لقمان من غير شِبَع"، "دَقُّوا بينهم عطر مَنْشِم" (أى ثارت بينهم حربُ شؤمٍ مُهْلِكة. ومَنْشِم امرأة كانت تبيع العطر، وهو عطر مشؤوم)، "دم سَلاَغٍ جُبَار"، أى هَدْر، "دُهْدُرَّيْن سعد القَيْن"، "رِدْ كعبُ، إنك وَرّاد" (يقال لمن كان على شفا الموت)، "شَبَّ عمرو عن الطوق"، "شِنْشِنَةٌ أعرفها من أَخْزَم"، "صحيفة المتلمِّس" (وهى كلمةٌ تقال عند التشاؤم بشىء تُخْشَى من ورائه الهلكة)، "صفقة لم يشهدها حاطِب"، "عادت لعِتْرِها لَمِيس" (أى رجعت لعادتها القديمة)، "فى بيته يُؤْتَى الحَكَم" (أى أن لفلان من

الكرامة ما يوجب على الناس أن يذهبوا إليه ولا يذهب هو)، "القول ما قالت حَذَامِ"، "لا حُرَّ بِوَادِى عَوْف"(يقال للسيد المستبد الذى لا ينهض له أحد)، "هما كنَدْمانَىْ جَذيمة"، "ولو بقُرْطَىْ مارية" (يقال للشيء النفيس لا يمكن التفريط فيه ولو دُفِع فيه أغلى ثمن)، "يا ويلتا! رآنى ربيعة"، "ما يوم حليمةَ بسِرّ" (و"اليوم" هنا بمعنى "المعركة"، و"أيام العرب" هى معاركهم وحروبهم المشهورة، والمقصود بـ"يوم حليمة" المعركة التى ضَمَّخَتْ فيها الأميرةُ حليمةُ بنتُ الحارث بن جَبَلَة رجالَ جيش أبيها بالعطر غداة انطلاقهم للحرب، وكان يوما مشهورا ضُرِبَ به المَثَل).

على أن أسماء الأعلام لا تقتصر على الأشخاص، بل تشمل الحيوان والمكان أيضا: ومن أسماء المواضع التى وردت فى أمثال الجاهليين "أَبَان" (جبل)، "شَجعَات"، "شَرْج"، "حَضَن" (اسم جبل)، "أَجَلَى"، "أَضَاخ"، "مكة"، "عَرَارِ" (اسم بقرة)، "كَحَل" (اسم بقرة أخرى)، "بَرَاقش" (اسم كلبة)، "المارد" (اسم حصن)، "الأبلق" (اسم حصن آخر)، "الرَّامَتَان" (وهو الاسم الذى أطلقه طه حسين على دارته فى الجيزة. وقد أخذه من المثل القائل: "تسألنى (أىْ ناقتى) برَامَتَيْنِ سَلْجَمًا"، أى تطلب شيئا ليس هذا موضعه)، "شُبَيْث"، "الأَحَصّ"، "ثَهْلان" (جبل)، "خُمَيْرَة" (اسم فرس)، "ابنا شَمَام" (اسم

هَضْبتين)، "صَدّاء" (اسم ماء)، "بَرِيَّة خُسَاف"، "هَرْشَى"، "بَلْدَح"، "شَعْفان"، "لُبَد" (اسم نسر طويل العمر)، "تَرْج" (مكان تكثر فيه الأسود)، "خَفّان" (مكان آخر تكثر فيه الأسود)، "تَبَالَة".

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف إلى جانب آخر من جوانب الحياة الطبيعية فى الجزيرة العربية فى ذلك العصر، ألا وهو أنواع الحيوان والطيور التى كانت موجودة هناك وتعرضت لها أمثال الجاهليين. وفى كثير من هذه الأمثال نرى نظرة العرب إلى الحيوان أو الطير المذكور وكيف كانوا يرَوْن طباعه وعاداته بغض النظر عن مدى صحة هذا الرأى أو لا. والملاحظ أنهم قد يصفون الحيوان أو الطير بصفات مختلفة أو متناقضة، كل صفة فى مَثَلٍ مختلف، كما أنهم قد يصفون عدة حيوانات أو طيور بصفة واحدة. ولسوف أذكر نص كل مثل ورد فيه ذِكْرٌ لحيوان أو طير: فمنها "استَنْوَقَ الجَمَل"، "أَتْبِع الفَرَسَ لجامها"، "إذا نام ظالعُ الكلاب"، "أَرْغُوا لها حُوَارها تَقِرّ" (الحُوَار: ولد الناقة)، "أَصيدَ القنفذُ أم لُقَطَةٌ؟"، "أَنْكَحْنا الفَرَا، فسنرى" (الفَرَا: الحمار الوحشى)،"أخوك أم الذئب؟"، "أخذه الله أَخْذَ سَبْعة" (السَّبْعة: اللبؤة)، "أعط أخاك من عَقَنْقَل الضَّبّ"، "أَطْرِقْ كَرَا، إن النعام فى القرى" (الكَرَا: الواحد من طيور الكِرْوَان. والمراد أنك أهون من أن أقصدك بكلامى، بل

أقصد قوما يستحقون الكلام)، "البُغَاث بأرضنا يستنسر" (البُغَاث: طير صغير ضعيف)، "أذنى حماريك ازجرى"، "آمَنُ من حمام مكة"، " آلَفُ من غراب عُقْدَة"، "آكَلُ من سوس، أو من فأر، أو من حوت، أو من الفيل"، "بالت بينهم الثعالب" (ثار بينهم الشر)، "خَرِئَتْ بينهم الضبع" (نفس المعنى السابق)، "أَبْعَدُ من بَيْض الأَنُوق" (الأَنُوق: ذَكَر الرَّخَمَة)، "أَبْصَر من عُقَاب، أو من نَسْر، أو من فرس"، "أَبْصَرُ بالليل من الوَطْواط"، "أَبَرّ من الهِرّة، أو من الذئبة"، "أبكر من الغراب"، "أبخل من كلب"، "أبلد من السُّلَحْفاة، أو من الثور"، "أبيض من دجاجة"، "أبخر من صقر، أو من فهد"، "أَبْوَل من كلب"، "تركته على مِثْل مِشْفَر الأسد" (أى عُرْضَةً للهلاك)، "تقلَّدَها طَوْقَ الحمامة" (لزمه عارها إلى الأبد)، "أَتْبَع من تَوْلَب" (ولد الحمار، لأنه يتبع أمه لا يفارقها أبدا)، "أتعب من راكب فَصِيل" (ولد الناقة، لأنه لم تتم رياضته بعد)، "أتخم من فصيل" (لأنه يشرب من اللبن فوق طاقته)، "أَتْيَسُ من تيوس تُوَيْت"، "الثور يُضْرَب لَمّا عافت البقر" (يقال فى من يُؤْخَذ بذنب غيره)، "أثبت من قُرَاد"، "أثقف من سِنَّوْر" (وهو القط، لأنه يعرف كيف يصطاد الفأر فلا يخطئ أبدا)، "الجحشَ لَمّا بذَّك الأعيار" (ارْضَ بما هو متاح لك واستَكْفِ به عما لا تستطيعه. والعَيْر: الحمار الكبير)، "أجبن من صِفْرِد، أو من كَرَوان

(طائران)، أو من ثُرْمُلة (الثعلب)، أو من الهِجْرِس (القرد)، أو من الرُّبَّاح (ولد القرد)"، "أجرأ من ذباب، أو من خاصي الأسد"، "أجْوَل من قُطْرُب" (دابة لا تكف عن التجوال ليلا أو نهارا)، "أَجْوَع من لَعْوَة (وهى الكلبة)، أو من الذئب، أو من قُرَاد"، "أجشع من كلب"، "أجهل من فراشة، أو من حمار، أو من عقرب، أو من نملة، أو من راعى ضأن"، "حمارٌ اسْتَأْتَنَ" (أى تحول إلى أَتَان، وهى أنثى الحمار)، "حتى يجتمع مِعْزَى الفِزْر" (الفِزْر: رجل تفرقت مِعْزَاه فى كل مكان، وهو مثل يُضْرَب للاستحالة)، "حِيلَ بين العَيْر والنَّزَوَان" (مثل لمن يحال بينه وبين مراده. والنَّزَوَان: الوثوب)، "حُمَيِّر الحاجات" (للشخص الذليل الممتهَن فى الأشغال الشاقة)، "أحمق من الضبع، أو من الرَّخِل (أنثى ولد الضأن)، أو من نعجة على حوض، أو من أم الهِنْبِر (والهنبر: الجحش، وأمه هى الأتان)، أو من الجهيزة (أى الذئبة)، أو من حمامة، أو من نعامة، أو من رَخَمة، أو من عَقْعَق"، "أكيس من الرَّخَمة"، "أحذر من قِرِلَّى (طائر يغوص فى الماء فيستخرج السمك)، أو من ذئب، أو من غراب، أو من عَقْعَق، أو من ظليم (ذكر النعام)"، "أحزم من القِرِلَّى، أو من الحرباء"، "أَحْيَر من الضبّ، أو من الوَرَل" (وهما حيوانان إذا خرجا من جحرهما لم يهتديا إليه ثانية)، "أحيا من الضبّ" (أى أطول حياةً منه)، "أَخْوَل من الذئب"

(لبراعته فى الحيلة)، "أحول من أبى راقش" (لأن ألوانه تتحول ولا تثبت على لون واحد)، "أحرس من كلب"، "أحرص من ذئب، أو من كلب، أو من خنزير"، "أحطم من الجراد"، "أحقد من جمل"، "أحنّ من شارف" (وهى الناقة المسنّة)، "أحْكَى من قرد"، "أَحْمَى من است النمر، أو من أنف الأسد"، "خَلِّه دَرَجَ الضبّ" (دعه على عماه)، "الخيل أعرف بفرسانها"، "الخيل مَيامِين"، "الخروف يتقلب على الصوف" (مَثَلٌ يُضْرَب للتقلب فى النعمة)، "أخفّ من فراشة"، "أخفّ رأسًا من الذئب، أو من الطائر" (إذ أقل شىء يوقظهما)، "أخفّ حِلْمًا من بعير، أو من العصفور" (أى أنهما قليلا العقل)، "أخرق من الحمامة" (لأنها لا تحسن بناء عشها)، "أخلف من بول الجمل"، "أخلف من ثِيل الحَمَل" (الثّيل: كيس عضو الحَمَل، لأنه يتجه إلى غير جهة البول)، "أخلف من الصقر" (أنتن رائحةً من فم الصقر)، "أخبث من ذئب الغَضَى"، "أَخْوَن، أو أَخْتَل، أو أَخَبّ من الذئب"، " أخبّ من ضبّ، أو من ثُعَالَة" (وثعالة: الثعلب)، "أَخْيَل من ديك، أو من غراب"، "أخطأ من ذباب، أو من فراشة"، "أخطف من عُقَاب، أو من قِرِلّى"، "أخشن من شَيْهَم" (وهو ذكر القنفذ)، "أَدَبّ من قُرَاد، أو من عقرب، أو من ضَيْوَن (أى السِّنَّوْر)، أو من قَرَنْبَى (دُوَيّبَة تشبه الخنفساء)"، "الذئب يُدْعَى: أبا جَعْدَة" (لا تغتر بما يظهره فلان من الكرم،

فإنما هو كالذئب الغدار"، "الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل" (القليل إلى القليل يصبح مع الأيام كثيرا. والذَّوْد ثلاث نُوقٍ أو أكثر من ذلك قليلا)، "الذئب يَأْدُو للغزال" (يخدعه)، "ذلّ من بالت عليه الثعالبُ"، "أذلّ من عَيْر، أو من حمار مقيَّد، أو من بعير السانية" (أى الساقية)، "أرْوَى من نعامة (لأنها قليلة العطش)، أو من الضبّ (لأنه، كما يقولون، لا يشرب أبدا)، أو من حية، أو من الحوت"، "أرسح من ضِفدع" (والرَّسَح: خفة العَجُز)، "أَزْنَى من هِجْرِس، أو من هِرّ"، "أزهى من غراب، أو من وَعَل (وهو التيس الجبلى)"، "سقط العَشَاء به على سِرْحان" (السِّرْحان: الذئب. أى أنه بدلا من أن ينال ما كان يبغيه قد أصابه مكروه)، "سواسية كأسنان الحمار" (فى الشر)، "سَمِّنْ كلبك يأكلك"، "أَسْمَع من سِمْع (ابن الذئب من الضبع)، أو من قُرَاد (لأنه، فيما يقولون، يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم)، أو من فرس (إذ كانوا يعتقدون أنه يسمع صوت الشعرة التى تسقط عن بدنه)"، "أَسْلَح من حُبَارَى، أو من دجاجة"، "أسبح من نُون" (أى الحوت)، "أسهر من جُدْجُد" (صرّار الحقل)، "أشمّ من النعامة، أو من ذئب، أو من هِقْل (ذكر النعام)"، "أشره من الأسد"، "أشرد من خَفَيْدَد" (وهو ذكر النعام)، "أشكر من كلب"، "أشدّ من الفيل"، "أشرب من الهِيم" (الإبل العطاش)، "أَصْوَل من جمل" (يُضْرَب به المثل فى

شدةَ العضَ)، "أصير من الضبّ، أو من حمار"، "ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَه" (يُضْرَب مثلا لمن لا يهتدى فى كلامه أو فى فعله. والدَّرْص: ولد الفأر، لأنه إذا خرج من جحره لم يستطع الاهتداء إليه كرة أخرى)، "الضبع تأكل العظام ولا تعرف قَدْر استها"، "أضلّ من ضبّ، أو من وَرَل"، "أطول ذَماءً من الضبّ. أو من الحية، أو من الأفعى، أو من الخنفساء" (لأنها لا تموت سريعا، بل تظل تتحرك فترة طويلة بعد قتلها)، "أَطْيَر من عُقَاب، أو من حُبَارى" (كانوا يظنون أنها تطير عبر بلاد متناوحة فى زمنٍ جدٍّ قصير)، "أَطْيَش من فراشة، أو من ذباب"، "أطفس من العِفْر" (الخنزير)، "ما بقى منه إلا ظِمْءُ حمار" (لم يبق فيه إلا القليل)، "أظلم من حية، أو من وَرَل" (لأنهما يدخلان جحر غيرهما ويستوليان عليه)،"أعزّ من بَيْض الأَنُوق، أو من الغراب الأعصم"، "أعطش من النقّاقة (أى الضفدع، لأنها إذا فارقت الماء ماتت)، أو من النمل (لأنه يكون فى القفر فلا يرى الماء أبدا)، أو من حوت"، "أَعْيَث من جَعَارِ" (وهى الضبع، فهى إذا وقعت فى الغنم أفسدت أيما إفساد)، "أعجل من نعجة إلى حوض"، "أعمر من ضبّ (إذ كانوا يقولون إنه يعيش أطول كثيرا من مائة عام)، أو من قُرَاد (فقد كانوا يعتقدون أنه يعيش إلى سبعمائة سنة)، أو من نسر (لأنهم كانوا يظنون أنه يعيش خمسمائة عام)"، "أغرّ من ظبيٍ مُقْمِر"، "أَغْوَى من غوغاء

الجراد"، "أغزل من عنكبوت"، "أغلم من ضَيْوَن" (ليس أشد شهوة من السِّنَّوْر فيما يقولون)، "أفسد من الجراد، أو من السوس، أو من الأَرَضَة، أو من الضبع"، "أَفْسَى من ظَرِبان، أو من خنفساء، أو من نمس"، "قف الحمار على الردهة، ولا تقل له: سَأْ" (الردهة: نقرة الماء التى يشرب منها. ومعنى المثل: أره الطريق، ثم اتركه يتصرف ولا تخف عليه)، "أَقْوَد من مُهْر"، "كُلّ الصيد فى جوف الفَرَا"، "كل شاةٍ تُنَاط برِجْلها"، "الكلب أَحَبّ أهله إليه الظاعن"، "أكيس من قِشَّة" (جَرْو القرد، وهو مثل يضرب للولد الصغير العاقل)، "أكسب من نمل، أو من فأر"، "لقد كنتُ وما أُخَشَّى بالذئب" (للذل بعد العز)، "لو تُرِك القَطَا لنام" (هذا مثل قولنا: نوم الظالم عبادة. والقَطَا: الحمام البرى)، "لبستُ له جلد النمر" (أبديتُ له العداوة الشديدة)، "ألين من خِرْنِق" (ولد الأرنب)، "أمسخ من لحم الحُوَار"، "أمنع من عُقَاب الجو"، "نابٌ، وقد يقطع الدَّوِّيَّةَ النابُ" (الناب: الناقة المسنّة، والدَّوِّيَّة: الفلاة السحيقة. والمعنى أنه، على كبر سنه وضعفه، قد يصلح للسفر الطويل المرهق)، "أنعس من كلب"، "أنبش من جَيْأَل" (الضبع مشهورة بنبش القبور)، "أنوم من فهد، أو من غزال، أو من الظَّرِبان"، "أنزى من ظبى، أو من جراد" (لأنهما كثيرا القفز والحركة لا يستقران)، "وَجَدَ تمرةَ الغرابِ" (حصل على أحسن شىء، لأن

الغراب، فيما يقولون، ينتقى أجود تمرةٍ ويأكلها)، "أَوْلَغ من كلب"، "هما كركيق البعير" (أى متساويان فى كل شىء)، "هما كفَرَسَىْ رِهَان" (دائمًا التنافسِ فى الخير)، "أهون من حُنْدُج (وهى القملة)، أو من ضرطة عتر"، "لا تقتنِ مِنْ كلب سوءٍ جَرْوًا"، "لا ناقتى فيها ولا جملى" (أمر لا يهمنى)، "لا ينتطح فيها عتران" (قضية محسومة لا جدال فيها).

ولا شك أن هذه الأمثال تدل على دقة ملاحظة العرب الجاهليين فى عالم الحيوان والطير مما لا نعرف نحن الآن عشر معشاره رغم التقدم العلمى والثقافى الذى تحقق للبشرية منذ ذلك الحين، وإن كان هناك بعض الأخطاء فى تلك الملاحظات، وهو أمر طبيعى، إذ إن العرب ليسوا بِدْعًا بين البشر، فهم يجمعون فى معلوماتهم بين الخطإ والصواب. ولكن يكفيهم شرفا وفضلا أنهم كانوا بهذه الدقة وذلك التبصر فيما لاحظوه على ما حولهم من حيوان وطير كثير العدد كما رأينا فى الأمثال التى سلفت، وفيما عرفوه من الفروق بين الذكر عن الأنثى فى الطباع والخصائص كالجمل والناقة طبقا لما جاء فى المثل القائل: "اسْتَنْوَق الجمل"، أو "حِمارٌ اسْتَأْتَن" (أى ظهرت على كل منهما علامات الأنوثة، فاقترب الأول أن يكون ناقة، والثانى أن يكون أتانا)، وتخصيص اسم لكل عمر من أعمار الحيوان: فالحُوار هو ولد الناقة، والفصيل هو الشاب من الإبل، على

عكس الناب، التى هى الناقة المسنة، ثم الشارف، التى تأتى بعد ذلك. وهناك الدِّرْص والحِسْل والسِّمْع والفُرْعُل والهِجْرِس والجحش والظبى والمُهْر والخِرْنِق والجَرْو والحَلَم، وهى صغار الفأر والضبّ والذئب والضبع والقرد والحمار والغزال والحصان والأرنب والكلب والقُرَاد على التوالى. كذلك هناك الجمل والناقة، والأَنُوق والرَّخَمَة، والأسد واللبؤة، والحصان والفرس، والحمار والأتان، والهِقْل والنعامة، والذئب والجَهِيزة، وهما الذكر والأنثى من كل حيوان من هؤلاء... وهلم جرا.

وقد رأينا كيف استطاعوا التمييز بين طباع كل حيوان وغيره حتى فى مسائل التبول، ورائحة الفم، والعطش أو الرِّىّ، والاهتداء إلى المسكن أو الضلال عنه، والعزة أو الذلة مثلا، وإن اشتركت بعض الحيوانات فى هذه السمة أو تلك من تصرفاها... مما مر بيانه من الأمثال التى أوردناها آنفا. ويمكن أن يلحق بذلك ما تحدثت عنه الأمثال من شجر ونبات: "ترى الفتيان كالنخل، ولا يُنْبِيك ما الدَّخْل" (أى أن المهم هو مخبر الإنسان لا مظهره)، "أشبهَ شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أُسَيْمِرًا" (والأُسَيْمِر: تصغير "أَسْمُر"، وهى جمع "سَمُرَة"، نوع من الشجر ينبت فى بلاد العرب)، "إنك لا تجنى من الشوك العنب"، "عَصَبْتُه عَصْبَ السَّلَمة" (والسَّلَم: نوع آخر من شجر العرب، وهو شجر شائك يستعمل ورقه وقشره فى

الدباغ، ويسمَّى ورقه: "القَرَظ")، "أَرْخِ يديك واسْتَرْخ، إن الزناد من مَرْخ"، "فى كل شجرةٍ نار، واسْتَمْجَد المَرْخُ والعَفَار" (والمَرْخ والعَفَار: شجرتان تُقْدح أغصانهما لاستخراج النار منها)، "أشعث من قَتَادة" (وهو شجر كثير الشوك)، "مَرْعًى ولا كالسَّعْدان" (شوك تأكله الإبل فيغزر لبنها)، "أخبث من ذئب الغَضَى" (والغَضَى: شجر جيد للوقود).

ومن معارف الجاهليين الطبيعية التى تعكسها أمثالهم ما له علاقة بالبيئة الجغرافية والفلكية: فمن ذلك قولهم: "أبعد من العَيُّوق"، "أَتْلَى من الشِّعْرَى" (لأنها تتلو الجوزاء)، "أُرِيها السُّهَا، وتُرِينى القمر"، "أرقّ من رقراق السراب"، "أطول صحبةً من الفرقدين" (لأنهما نجمان لا يفترقان)، و"بنات نعش" (كواكب معروفة)، "بَرْقٌ خُلَّب" (وهو البرق الكاذب الذى لا يعقبه مطر)، "أرِنيها نَمِرة، أُرِكَها مَطِرة" (ومعناه أن السحابة إذا كان فيها سواد وبياض فمعنى هذا أنها ستمطر. وهذا يدل على خبرة بأنواع السحاب ومقدرة على التفرقة بين الممطر منها وغير الممطر. وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن بلادهم كانت تعتمد على المطر فى المقام الأول، إذ ليس فيها أنهار كما هو الحال فى مصر، ومن ثم كانت معرفتهم الدقيقة بكل ما يتعلق بالمطر والسحاب، وبخاصة أن السماء كانت مفتوحة أمام أعينهم لا يسترها عنهم ساتر، فقد كانوا يعيشون فى خيام

منصوبة فى العراء لا فى بيوت تعـوق أعينـهم عـن النظـر الحـر المرتاح إلى الفضاء والأفق والسماء).

لقد كان الماء قضية حياة أو موت، ومن هنـا مـثلا نـراهم يقولون: "أن تَرِد الماءَ بماءٍ أكيس" لمعرفتـهم أنهـم مـتى انقطعـوا عن الماء فى باديتهم المتناوحة التى كثيرا ما يعزّ فيهـا عنصـر الحيـاة الأول فقد يهلكون. وبالمثل نقرأ فى المَثَـل التـالى أن "آخرهـا (أى آخر الإبل الواردة على الماء للسقى) أقلّها شِـرْبًا"، إذ تَـرِدُ وقـد قارب الماء على النفاد، أو على الأقل تَـرِدُ ولم يَعُـد المـاء صافيا كما كان للإبل التى شربت مبكرة، فضلا عـن أن تـأخير السـقى هو دليل على العجز والمذلة. وإذا كانت هنـاك عـين مـاء طيّبـة فسرعان ما تشتهر بينهم: "ماءٌ ولا كصَـدّاء"، "إن أَضَـاخًا منـهلٌ مورود"، "أعذب من ماء البارق، أو مـن مـاء الحشـرج". وثمـة مثل آخر يشير إلى عملية الاستقاء مـن البئـر بالحبـال والـدلاء: "بئس مَقَام الشيخ: أَمْرِسْ! أَمْـرِسْ!"، أى أنـه لا يليـق بـك أن تزاول عملا لا يناسب مكانتك، مثـل وقوفـك علـى شـفا بئـر وسُقْيَاك بالحبل، الذى قد ينقطع فى يدك فيصـيح النـاس بـك أن "أَمْرِسْ! أَمْرِسْ!"، أى أعد الحبل إلى مكانـه مـن البَكَـرة. ومـن أمثال الاستقاء أيضا قـولهم: "أَلْـقِ دلـوك فى الـدِّلاء". كـذلك استطاع العرب القـدماء أن يفرقـوا بـين الحيوانـات والطيـور المختلفة حسب مدى حاجتها إلى المـاء، وسـرعة أو بـطء هـذه

الحاجة مثلما مضى بيانه فى الأمثال التى قرأناها معا، وهو ما يبين لنا كيف كان الماء يحتل من أذهانهم واهتمامهم مكانا مكينا.

ومن الجوانب التى تتعلق أيضا بالبيئة العربية القديمة ما كان الجاهليون يمارسونه من أعمال أو حِرَف تقوم على ما هو متوفر فى هذه البيئة من ثروات أو إمكانات طبيعية: خذ عندك مثلا الدبغ، الذى جاء فى أمثالهم عنه قولهم: "إنما يُعاتَب الأديم ذو البَشَرَة"، بمعنى أن العتاب لا يصلح إلا مع من لا يزال فيه خير، كالجلد الذى يراد دبغه، فإن كانت له بَشَرَة، وهى ظاهر الجلد (على عكس الأَدَمَة، التى هى باطنه)، صلح دبغه، وإلا لم يحتمل الدِّبَاغ وتمزق. كذلك لا بد، فى عمية الدباغ، أن يُكْشَط اللحم تماما من أديم الجلد ولا يترك عليه أى بقايا منه، وإلا فسد الجلد سريعا: "أحمق من الدابغ على التحلىء". والتحلىء: ترك بقايا اللحم على الجلد، وفى هذه الحالة لا يصل إليه الدباغ. وهناك مثل آخر يرد فيه ذكر "القارظ" على النحو التالى: "إذا ما القارظ العَنَزِىُّ آبا"، وهو جامع القَرَظ، أى ورق شجر السَّلَم المستعمل فى عملية الدباغ. وهذا المثل يُضْرَب للوعد الذى لا يمكن أن يتحقق لأنه معلق على شرط مستحيل، فالقارظ العَنَزِىّ لم يعد من جولته فى جمع القَرَظ حتى الآن، بل لن يعود أبد الدهر لأنه مات فى الطريق. وهناك أيضا

المثل التالى: "أَرْتِعَنْ أَجَلَى أَنَّى شئت"، أى أن الموضع المسَمَّى: "أَجَلَى" هو من المواضع الصالحة للرعى فى أى وقت وفى أى موضع منه. ومنها كذلك: "مَرْعًى ولا كالسَّعْدان". وكان للرعى أصوله التى لا بد للراعى من مراعاتها، وإلا فسد عمله: "أساء رَعْيًا فسقى مُقْصِبًا"، أى أنه لم يُشْبِع إبله من الكلإ كما ينبغى واضطُرّ أن يملأ بطونها ماءً على قلة ما فيها من طعام فأضَرَّ بها ذلك ضررا شديدا. والإقصاب: أن تمتنع إبل الراعى عن الشرب. كذلك كانوا يحلبون ماشيتهم بأنفسهم: "حلبْتُها بالساعد الأشدّ"، "اُحْلُبْ حَلَبًا لك شَطْره" (و"الحَلَب" هو ما يُحْلَب من اللبن)، "حَلَبَ الدهرَ أَشْطُره".

ومن المهن التى كان الجاهليون يمارسونها كذلك تأبير النخل: "جِبَابٌ، فلا تُعَنِّ آبِرًا"، والآبر هو ملقِّح النخل، والمقصود أن النخلة لا طَلْع فيها، بل الموجود جِبَابٌ فحسب، أى جُمّار، ومن ثم فلا فائدة فى التأبير أصلا. ومن هذه المهن أيضا الحُدَاء: "كالحادى، وليس له بعير"، والحادى هو سائق الإبل الذى يحدوها، أى يغنِّى لها حتى تنشط للسير ولا يعتريها الضعف والكلال. أما المَثَل الذى وجدتُه عن "الحَذّاء" فيجرى عكس هذا، إذ يقول: "من يكن الحذّاء أباه يجد نعلا". والحدادة مهنة أخرى من المهن التى عرفها العرب: "إذا سمعتَ بسُرَى القَيْن فإنه مُصْبِحٌ"، أى لا تصدق كل ما تسمع، فكثيرا

ما يقول الناس كلاما ويقصدون عكسه، كفعل القَيْن (وهو الحداد) عندما يزعم أنه مسافر من ليلته كى يدفع الناس إلى الإقبال عليه قبل أن يغادرهم، على حين أنه ينوى البقاء حيث هو. وهناك مثل مشهور يذكر "الحابل" و"النابل"، أى الصائد بالشبكة والصائد بالنَّبْل: "اختلط الحابل بالنابل". ومثل آخر لا يقل شهرة يتحدث عن "القوس" وصانعه: "أَعْطِ القوسَ بارِيَها"، وهو كما نقول فى مثلنا العامى: "أعط العيش لخبازه". ومثل ثالث يذكر "السهام": "قبل الرمى يُرَاش السهم". ورابع يتحدث عن "الكنانة": "قبل الرمى تُمْلأُ الكنائن".

كذلك كانوا يعرفون الطب، وكان طبا بدائيا بطبيعة الحال: "يا طبيب، طِبَّ لنفسك". وكذلك البيطرة: "أشهر من راية البَيْطار"، "أهون من ذَنَب الحمار على البَيْطار". وكان من طبّهم الكَىّ: "آخر الدواء الكَىّ"، "قد يَضْرِط العَيْر، والمِكْواة فى النار". كما كانوا يعالجون جَرَب الماشية بما يسمونه "العَنِيّة": "عَنِيّته تَشْفِى الجَرَب"، وهى قَطِران وأخلاط تُجْمَع ويُهْنَأ بها البعير الأجرب. ولعملية الهِنَاء أصولٌ منها ألا يقتصر الهانئ على دَهْن موضع الجَرَب فقط، بل يعمّ سائر بدن البعير: "ليس الهِناء بالدَّسّ" (والدَّسّ: الاقتصار فى الهِنَاء على المكان المصاب بالجرب). وقد ورد فى مثل من أمثالهم إشارة لمرض كان يصيب البعير، وهو "الغُدَّة": "أغُدَّةٌ كغُدَّة البعير، وموتٌ فى بيت

سَلُولِيّة؟". أما المثل التالى فيشير إلى مرض آخر هو "القُلاَب"، وهو داء يصيب الإبل فى رؤوسها فيقلبها إلى فوق: "ما به قَلَبة"، أى أنه سليم لا يشكو من أى داء. وقريب منه داء الصَّعَر، وهو داء يأخذ فى رقاب الإبل فيُميلها: "لأُقِيمَنَّ صَعَرَك". وكان الجاهليون يحبون الوشم، الذى كثيرا ما شبّه الشعراء به ما يَرَوْنَه فى أطلال حبائبهم من الخطوط وآثار الريح: "أَثْبَتُ من الوشم". ومن أعمالهم التى كان أهل كل بيت يمارسونه بأنفسهم خياطة الفتوق: "اتسع الخَرْق على الراقع"، وجمع الحطب للنار: "أَخْبَطُ من حاطِب ليل"، والطحن بالرَّحا: "أسمع جعجعة ولا أرى طِحْنًا"، و"الطِّحْن" هو الدقيق، والمعنى أن هناك ضجة، لكن ليس هناك دقيق، أى أنها ضجة على الفاضى.

ويتصل بهذه الأمثالِ تلك التى ورد فيها ذكر لما كانوا يتخذونه من أدوات لتأدية هذه الأعمال، ومنها الإبرة: "أَبْغَى من إبرة"، والفأس: "أَبْغَى من فأس"، والقِدْح: "أبغض من القِدْح الأول"، والعصا: "أبقى من تفاريق العصا"، والخيط: "أدق من خيط"، والحبل: "إن الشقىَّ بكل حبل يُخْنَقُ"، والحِذَاء: "أدنى من الحذاء"، ورباط النعل: "أدنى من الشِّسْع"، والمِجْمَر (المِبْخَرة): "استْ لم تُعَوَّد المِجْمَر"، والخُذْروف (وهو لعبة للأطفال تشبه ما نسميه فى مصر بـ"النَّحْلة"):

"أسرع من الخذروف"، والأُثْفِيّة (الحجر الذى كانوا ينصبون منه ثلاثة تحت القدر): "أَصْبَرُ من الأثافى على النار"، والجَلَم (المقص): "أقطع من جَلَم"، والعصا: "أكثر من تفاريق العصا"، والشفرة: "إنْ وجدتَ لِشَفْرَةٍ مَحَزًّا"، "والمرآة: "أنقى من مرآة الغريبة"، والجُلْجُل: "أَنَمّ من جلجل"، والسيف: "تركتُه على مثل حرف السيف"، والصحيفة: "صحيفة المتلمِّس"، والكنانة (جَعْبة السهام): "قبل الرِّماء تُمْلأُ الكنائن"، والدلو: "قد علِقتْ دَلْوَك دلوٌ أخرى"، والمِجَنّ: "قلبتُ له ظهر المجن"، والمكواة: "قد يَضْرِط العَيْر والمكواة فى النار".

أما أطعمتهم فهذه بعض الأمثال التى تتحدث عنها مما وضعتُ يدى عليه أثناء تجوالى فى كتاب العسكرى: "إنْ وجدتُ إليه فا كَرِشٍ"، أى إن وجدتُ إليه سبيلاً فسوف أطبخ الشاة فى كرشها. ومن أسماء أطعمتهم "اللَّبَأ"، وهو أول الألبان عند ولادة الحيوان: "أَبَى أَبِى اللَّبَأ". ومن أطعمتهم أيضا "الرَّبِيكة"، وهى أَقِطٌ بسمن وتمر يُعْمَل رِخْوًا: "غَرْثانُ، فاربُكوا له"، أى أنه جائع فلا تكلموه فى أى شىء لأن ذهنه مشغول بالجوع والطعام، بل أَعِدّوا له الرَّبِيكَة أوّلاً، فإذا أكل رجع إليه عقله. وهذا مثل قولنا: "ساعة البطون تتوه العقول". وأصل المثل، حسبما يروون، أن رجلا عاد من سفر فأخبروه أن امرأته قد ولدت له غلاما، فلم يهتم بالخبر لأنه كان يعانى من بُرَحاء

الجوع وقال: وما أصنع به؟ آكله أم أشربه؟ فطلبت منهم زوجته أن يطعموه أولا. وقد كان، إذ بعد أن أطعموه ارتد إليه عقله وشرع يسأل عن الوليد وأمه، وهو سعيد مجبور. ولدينا كذلك طعام "السَّوِيق": "جَدْحَ جُوَيْنٍ من سَوِيق غيره"، وهو طعام سائل يُصْنَع من القمح والشعير على عجل للمسافر والجائع الذى لا يصبر. والمراد أن جُوَيْنًا هذا، لأنه لا ينفق من ماله ولا يأكل من سَوِيقه بل من سَوِيق غيره، فإنه يسرف ولا يبالى بالاقتصاد. والجَدْح: الشُّرْب. كذلك كانوا يصطادون الضَّبّ ويأكلونه: "ما أبالى أناءَ ضَبّك أم نَضِجَ"، "أعط أخاك من عَقَنْقَل الضبّ"، ويسمون صيده: "حَرْشًا": "هو أعلم بضبٍّ حَرَشَه"، وما فتئ الضبّ يُؤْكَل فى الخليج حتى يومنا هذا. وبالمثل كان العرب فى الجاهلية يصطادون حمار الوحش ويأكلونه، وقد ورد ذكره فى قولهم: "كُلّ الصيد فى جوف الفَرَا"، "أَخْلَى من جوف حمار"، لأنهم كانوا يلقون بما فى جوفه ولا ينتفعون به. كما كانوا يأكلون "الكَمْأَة"، التى لا يزال الناس هناك يتلذذون بطعمها حتى الآن. وهى، كما تقول المعاجم، نبات يخرج من الأرض كما يخرج الفُطْر. وهناك نوع منها يسمَّى: "الفَقْع": "أذلّ من فَقْعٍ بقَرْقَرَةٍ"، لأنه يظهر على سطح الأرض فتطؤه الأقدام، وإن كان هناك نوع آخر يحتاج إلى أن ينبش الإنسان الأرض عنه.

ومن أطعمتهم التى وردت بها الأمثال "العسل": "أحلى من العسل، أو من الشهد". كما كانوا يصنعون"الزُّبَّاد" من اللبن ويأكلونه، وجاء به المثل التالى: "اختلط الخاثر بالزُّبَّاد". ومن طعامهم فى الجاهلية أيضا "الدم"، وذلك بعد أن يَفْصِدوه من عِرْق الناقة أو الفرس ثم يملأوا المُصْران به، ثم يشووه ويأكلوه. وهذا الطعام يسمَّى: "الفَصِيد": "لم يُحْرَم مَنْ فُصِد له"، أى أن الفَصِيد طعامٌ كافٍ لمن يُقَدَّم إليه. وقد جاء الإسلام بتحريم أكل الدم، ومعروف أن الدم مرتع لجميع أنواع الفيروسات والجراثيم والمكروبات، التى تضر الجسم والتى تسرى إليه عند أكل الإنسان إياه. وكانوا يحفظون الدُّهْن المذاب فى سِقَاء، وهذا الدهن يسمَّى: "الإِهَالة": "كحاقن الإهالة"، أى أنا خبير بهذا الأمر كخبرة حاقن الإهالة فى السِّقَاء، إذ كان الأمر يتطلب تأكد الحاقن تماما، عن طريق إيلاج إصبعه فى الإهالة، أنها قد بردت بحيث لا تفسد السقاءَ بسخونتها. كما وردت أمثالهم بـ"الزيت": "أَوْفَى من كَيْل الزيت". كذلك كان "الشعير" من طعامهم، وإن لم يكن من أشهاه إلى نفوسهم: "كالشعير: يُؤْكَل ويُذَمّ". ومن الفاكهة التى ذكرها الأمثال "التمر": "كمُسْتَبْضِع التمر إلى هَجَر" (وهو كقولنا: "يبيع الماء فى حارة السقائين")، "وَجَد تمرةَ الغرابِ". وقد جاء ذكر "الحَشَف"، وهو أردأ أصنافه، فى مثل آخر:

"أحَشَفًا وسُوءَ كِيلَة؟"، و"العنب": "إنك لا تجنى من الشوك العنب"، "أَعْجَزُ من مُسْتَطْعِم العنب من الدِّفْلَى"، إذ الدِّفْلَى نبات ورقه أشعر شائك، وطعمه مُرّ. وكان كثير من أهل الجاهلية يَغْرَمون بـ"الخمر"، ويُكْثِر شعراؤهم من التمدح بشربها ويَعُدّونه من علامات الكرم والسيادة، حتى جاء الإسلام وحرّمها تحريما تاما. ومن أمثالهم فى أم الخبائث قولهم: "ألذّ من مذاق الخمر".

وللأمثال، فضلا عن الجوانب التى مرت، جانب آخر يمكن أن يُنْظَر إليها منه هو الجانب النفسى والخلقى والاجتماعى: فالمثَل التالى على سبيل المثال يشير إلى وجه من وجوه الطبيعة الإنسانية، ألا وهو أهمية الإيحاء الذاتى فى علاج المشاكل، فكثير من الأمور يمكن أن تنحل أو يسهل حلها إذا وضع الشخص فى اعتباره أن هناك أملا كبيرا فى التغلب عليها: "اكذب نفسك إذا حَدَّثْتَها"، وإلا فليس له مَعْدًى عن الصبر، وهو الدواء الذى لا بد من تجرعه على مرارته: "حيلة من لا حيلة له الصبر". كما أن طبيعة الاجتماع البشرى تقتضى من الإنسان أن يتغاضى عن بعض حقوقه وأن يكون مرنا مع الآخرين وألا يؤاخذهم بكل صغيرة وكبيرة حتى تسير عجلة الحياة: "إذا عزَّ أخوك فهُنْ"، "إذا رأيتَ الريح عاصفًا فتَطَامَنْ"، "أىّ الرجال المهَذَّبُ؟"، "طَوَيْتُه على بُلالته"، مع

معرفة أن "رضا الناس غاية لا تُدْرَك"، وأن الطبائع الشخصية عصيّة على التغيير، وبخاصة إذا شاب الإنسان على ما شَبَّ عليه: "أَعْيَيْتنِى بأُشُرٍ، فكيف بدُرْدُر؟"، "مِنَ العناء رياضة الهَرِمِ". ثم هناك العصبية القبلية التى لا يمكن الفكاك منها، ولذلك قيل فى أمثال الجاهلية: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"، وهو ما صححه الرسول الكريم عندما حوَّره بعض التحوير فقال إن نُصْرَتك أخاك ظالما إنما تكون بمنعه من الظلم، معطيًا عليه السلام هذا المثل بعدا أخلاقيا عظيما. كذلك هناك المثل التالى الذى يتعامل مع الطبيعة البشرية تعاملا مغرقا فى الواقعية بل فى اللاإنسانية دون مراعاة المثل الأعلى فى قليل أو كثير، وهو: "أَجِعْ كلبك يتبعك". وفى قولهم: "جَلَّى مُحِبٌّ نظرَه" تعبير عن حقيقة نفسية تشاهَد فى المحبين، إذ مهما حاول الواحد منهم إخفاء مشاعره تجاه معشوقه عن الناس فإن عينيه تفضحانه. وقد قال الشاعر: "الصَّبُّ تفضحه عيونه". كذلك يحسن بالإنسان، إذا أراد أن يظل عزيزا محبوبا مكرما، ألا يكثر الزيارة للآخرين مهما كانوا يحبونه ويريدونه ألا يقطع رجله عنهم: "زُرْ غِبًّا تزدد حُبًّا"، وألا يُكْثِر كذلك من المُزاح، فإنه سبيل إلى نشوء البغضاء حتى بين المتحابين: "المُزَاح لقاح الضغائن".

وفى دنيا الزواج والأسرة تطالعنا الأمثال التالية، وهى مأخوذة من واقع الحياة الذى لا سبيل إلى تغييره ولا نكرانه: "زوجٌ من عُود خيرٌ من قُعُود"، وهو ما يقال عنه فى أمثالنا العامية: "ظِلّ رجُل ولا ظِلّ حائط"، "العَوَانُ لا تُعَلَّم الخِمْرة"، "بينهم داء الضرائر"، "إن الحماة أُولِعَتْ بالكَنَّة * وأُولِعَتْ كَنَّتُها بالظِّنَّة"، "أَضَلّ من مَوْؤُودة"، وهى البنت الصغيرة التى تُدْفَن حية، وكان بعض الجاهليين يَئِدون بناهم خوفا من الفقر أو العار. على أن هناك مثلا يبدو أنه يعكس اعتقادا راسخا عند العرب منذ قديم الزمان، ألا وهو أن الحظ عليه معوَّل كبير فى حياة الإنسان. ولقد كنت أضيق أشد الضيق بمثل هذا الكلام وأؤكد دائما أن السعى والتخطيط واليقظة هى عمود كل نجاح، ثم تبين لى أن للحظ دورا لا يُنْكَر فى حياتنا، وأنه قد يرفع أقواما حقُّهم الاتضاع، ويخفض أقواما يستحقون كل خير ورفعة. ذلك أن أمورنا نحن العرب لم تزل تجرى على غير تخطيط، كما أن القيم الإسلامية العظيمة لا يؤخذ بها فى كثير من الأحوال، ومن ثم فكثير من الناس لا يحصل على حقه، على حين يَرَوْن من لا يستحقون قد سبقوهم سبقا فاحشا دون أدنى مسوِّغ. ومن هنا صحَّ المثل العربى القديم القائل: "جَدَّك لا كَدَّك"، أى أن حظك هو الذى ستكون له الغلبة فى نهاية

المطاف، وكذلك قولهم: "اسْعَ بِجَدٍّ أو دَعْ"، وأن "من غاب غاب نصيبه".

أما قولهم: "لو لكِ عَوَيْتُ لم أعْوِ" فيشير إلى ما كان يفعله الرجل الجاهلى فى الصحراء حين يكون مسافرا ويأتى عليه الليل فيجد نفسه وحيدا، فيعوى كالكلاب على أمل أن يكون على مقربة من خيمة لبعض الأعراب فتجاوبه كلابهم فيأتنس بهم ويحصل على ما يحتاجه من طعام وشراب عندهم حتى لا يموت جوعا أو عطشا. كما أن المسافر فى الصحراء كان يمسك دائما بعصًا يحمل عليها ملابسه وصرّة طعامه: "لو كان فى العصا سير". ومن الطريف أن نجد من الأمثال العربية ما يدلنا على أنهم فى الجاهلية كانوا يخوِّفون صغارهم بالذئاب كما يفعل أهل الريف والمناطق الشعبية عندنا الآن إذ يخوِّفون أبناءهم العُصَاة بالعفريت والغول وأبى رجل مسلوخة وما أشبه: "لقد كنتُ وما أُخَشَّى بالذئب".

ونختم بما ورد فى الأمثال الجاهلية مما كانوا يعتقدونه من خرافات وأساطير، كاعتقادهم فى السانِح والبارِح: فالسانح ما مرّ بك من طير أو حيوان من اليمين إلى اليسار، والبارح ما مرّ من اليسار إلى اليمين، وكانوا يتفاءلون بالأول، ويتشاءمون بالثانى: "من لى بالسانح بعد البارح؟". كما كانوا يتشاءمون بالغراب، إذ ارتبط وجوده عندهم بمواقع أطلالهم التى خلّفوها،

إذ يلتقط منها ما يكونون قد تركوه وراءهم، فانعقدت الصلة فى أذهانهم بينه وبين الفراق، وصاروا يتشاءمون به: "أشأم من غراب البَيْن". ولم يقتصر تشاؤمهم على الحيوان والطير، بل كانوا يستنحسون بعض النجوم أيضا: "أنكد من تالى النجم"، وهو "الدَّبَران"، الذى يتلو نجم "الثريا". كما كانوا يعتقدون فى "البَلاَيَا"، جمع "بَلِيَّة"، وهى الناقة التى كانوا يربطونها عند قبر صاحبها بعد أن يُغمّوا عينيها، ثم يتركونها هكذا دون طعام أو شراب حتى تموت، إذ كانت عقيدهم أنها بهذه الطريقة تكون جاهزة تحت تصرف صاحبها ليركبها يوم القيامة: "المنايا على البلايا"، وهو مثل يُضرَب للقوم الواقعين فى كرب لا مخلص منه، فهم يُشْبِهون "البليّة"، التى لا مفر لها من الموت. ومن خرافاهم ما كانوا يقولونه عن السُّلَيْك بن السُّلَكَة، الشاعر الجاهلى الصعلوك المشهور، إذ كانوا يروون أنه ظل يعدو يوما وليلة كاملين سابقًا فارسين من فرسان الأعداء لم يستطيعا إدراكه قط حتى بلغ منازل قومه وحذرهم هجوما وشيكا من أعدائهم، فأخذوا حذرهم ولم يقدر العدوّ أن يصيب منهم غِرَّة: "أَعْدَى من السُّلَيْك". ومن مبالغاهم التى تدخل فى باب الخرافات قولهم: "أَبْصَر من الزرقاء" (وهى زرقاء اليمامة المشهورة، وكانوا يزعمون أنها من قوة البصر وحِدّته بحيث ترى على بعد ثلاثة أيام). وهناك مثل يقول: "أشأم من الزُّمَّاح"

(إشارة إلى طير كان يقع على بيوت ناس من أهل يثرب ويأكل من تمرهم ثم يطير فلا يعود إلى العام التالى، فرماه رجل منهم بسهم فقتله وقسم لحمه، فلما مر العام لم يبق ممن أكل من لحمه أحدٌ حيًّا)، "أَعْمَرُ من حَيَّة" (لأنهم كانوا يظنون أنها لا تموت أبدا إلا إذا قتلها إنسان، وإلا فإنها إذا كبرت عادت فصغرت حتى تكبر ثم تعود فتصغر... وهكذا دواليك!)، "أَعْمَرُ من نَسْر، أو من قُرَاد" (إذ كانوا يؤمنون أن الأول يُعَمَّر خمسمائة عام، والثانى سبعمائة).

هذا، وهناك كتب خاصة بالأمثال ألفها بعض من كبار الكتاب العرب القدماء، ومنهم صُحَار العبدى وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى وثعلب والمفضَّل الضَّبِّىّ وأبو هلال العسكرى والزمخشرى والميدانى. وهى كتب تُعْنَى بإيراد أكبر عدد ممكن من الأمثال العربية القديمة وشرحها وتفسير ما يحتاج من ألفاظها وتراكيبها وعباراتها إلى تفسير، فضلا عن إيراد قصة المثل إن كانت وصلتهم، وقد تكون هذه القصة حقيقية أو خيالية، وإن كانوا فى بعض الأحيان يعلنون عن عجزهم عن معرفتها كما فعل أبو هلال العسكرى مرارا، إذ قال مثلا عند تعرضه لقولهم: "أَبْدَح ودُبَيْح": "يقولون: جاء بأبدح ودبيح، إذا جاء بالباطل. ولم يُعْرَف أصله"، أى أن قصته لم تصله. أما فى شرحه للمثل القائل: "بعينٍ ما أَرَيَنَّك" فقد علق قائلا:

"معناه: اعْجَلْ. وهو من الكلام الذى قد عُرِف معناه سماعا من غير أن يدل عليه لفظه. وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد علينا بكمالها، وأن فيها أشياء لم تعرفها العلماء". وفى تعليقه على المثل التالى: "أحمق من راعى ضأن ثمانين" نراه يقول: "ولا أدرى لم خُصَّت بالثمانين هنا"...إلخ. ومن هنا نرانا لا نوافق بروكلمان على ما قاله فى الأمثال من أن "من عُنُوا بجمعها من الأدباء لم يقعوا مرة فى حيرة من تفسيرها وإيضاحها" وما فيه من سخرية مبطنة (كارل بروكلمان/ تاريخ الأدب العربى/ ١/ ١٢٩)، بل نؤكد أن هذا الكلام غير صحيح لعدة أسباب: الأول أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا يوردون هذه القصص دائما كما قلنا آنفا. والثانى أنهم ليسوا هم الذين ألّفوا هذه القصص، بل كانوا مجرد نقلة لها حسبما وصلت إليهم. والثالث أن العسكرى مثلا، حسبما رأينا معا، قد أعلن عن عجزه فى عدة مناسبات مختلفة عن معرفة قصة المثل، بل حتى عن مجرد معرفة معناه فى بعض الأحيان. بل إنهم كثيرا ما يكتفون بإيراد المثل دون إضافة أية كلمة أخرى من لدنهم. وهو نفسه ما نقوله ردًّا على ما كتبه نيكلسون فى ذات الموضوع، إذ جاء فى كتابه: "A Literary History of the Arabs" أثناء كلامه فى هذه المسألة إن هذه الأمثال "نادرا ما تستغنى عن الشرح، على حين أن ما كُتِب من تعليقات عليها إنما هى من

عمل علماء وضعوا نُصْبَ أعينـــهم أن يشـــرحوها مهمـــا كلفهـــم ذلك، رغم أن الظروف التى قيلت فيها قـــد نُســـيَتْ تمامـــا" (A Literary History of the Arabs, P. 31).

سَجع الكُهّان

الكُهّان العرب هم طائفة من رجال الدين كانوا يقومون على سِدَانة معابد الأوثان فى الجاهلية، وكان العرب الوثنيون يلجأون إليهم فى حسم ما ينشأ بينهم من منافرات أو خلافات قبلية أو أسرية أو فردية، أو تأويل ما يقع لهم فى نومهم من رُؤًى تحتاج إلى تعبير، أو مساعدهم على معرفة ما يخبئه الغيب من أحداث أو أشياء وما إلى ذلك مما كانوا يحصلون على جُعْلٍ فى مقابله. وكان هؤلاء الكهان يجيبون على ما يوجَّه إليهم من استفسارات بكلام مسجوع يُرَاعَى فيه عادةً أن يكون موجَزًا غامضًا يحتمل وجوها متعددة من التفسير، فضلا عن احتوائه على بعض الغريب من اللفظ، بحيث يستطيع الكاهن عند اللزوم أن يقول إنه لم يقصد هذا المعنى مثلا بل ذاك، ومن ثم لا يَظْهَر لقُصّاده وطالبى عونه أنه يخطئ كغيره من الناس وأنه ليس بينه وبين عالم الغيب أى اتصال. وقد وردت أقاويل منسوبة إلى هؤلاء الكهان فى مناسبات وقضايا مختلفة كما فى الخبر المروىّ عن الكاهن الخُزَاعِىّ، الذى نَفَّرَ بين هاشمٍ جد النبى عليه السلام وأُمَيّة بن عبد شمس، وجاء فيه: "وَلِيَ هاشمٌ بعد أبيه عبدِ مناف ما كان إليه من السِّقَاية والرِّفَادة فحسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف على رياسته وإطعامه، وكان ذا مال. فتكلّف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشَمِت به ناس من

قريش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة. فكره هاشم ذلك لسنّه وقَدْره، فلم تَدَعْه قريش حتى نافره على خمسين ناقة سُودِ الحَدَق ينحرها ببطن مكة والجلاء عن مكة عشر سنين. فرَضِيَ بذلك أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، وهو جَدّ عمرو بن الحَمِق (الصحابي المعروف)، ومنزله بعُسْفان (بين مكة ويثرب). وكان مع أمية همهمة بن عبد العُزَّى الفِهْرِيّ، وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلمٍ مسافر، من مُنْجدٍ وغائر، لقد سبق هاشمٌ أميةَ إلى المآثر، أوّلٌ منه وآخِر، وأبو همهمة بذلك خابر. فقضى لهاشم بالغلبة وأخذ هاشمٌ الإبلَ فنحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين. فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية".

ومنه كذلك ما قيل عن تكهُّن عوف بن ربيعة الأسدي بمقتل حُجْر بن الحارث، حيث تجرى القصة على النحو التالى: "كان حُجْر بن الحارث أبو امرئ القيس ملكَ بني أسد، وكان له عليهم إتاوة كلَّ سنة لما يحتاج إليه. فبقي كذلك دهرا، ثم بعث إليهم من يَجْبِي ذلك منهم، وحُجْرٌ يومئذ بتِهَامة، فطردوا رسله وضربوهم. فبلغ ذلك حُجْرًا فسار إليهم فأخذ سَرَوَاتِهم وخِيَارَهم وجعل يقتلهم بالعصا، فسُمُّوا: "عبيدَ العصا"، وأباح

الأموال وصيَّرهم إلى تِهَامَة وحبس جماعة من أشرافهم منهم عبيد بن الأبرص الشاعر، فقال شعرا يستعطفه فيه، ومنه قوله:

أنت المَلِيك عليهمو وهم العبيد إلى القيامة

فرقَّ لهم وعفا عنهم وردّهم إلى بلادهم. فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهَّن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي، فقال لهم: يا عبادي. قالوا: لبيك ربَّنا. فقال: مَنِ الملك الصَّلْهَب (الشديد)، الغلاَّب غير المغلَّب، في الإبل كأنها الربرب (أى قطيع بقر الوحش)، لا يقلق رأسه الصخب، هذا دمه ينثعب (يسيل)، وهو غدًا أول من يُسْتَلَب؟ قالوا: ومن هو ربَّنا؟ قال: لولا تَجَيُّشُ نفسٍ جاشية، لأخبرتكم أنه حُجْرٌ ضاحية (أى علانية). فركبوا كل صَعْبٍ وذَلُول حتى بلغوا عسكر حُجْر فهجموا عليه في قُبَّته فقتلوه".

ثم هذا الخبر الذى يتحدث عن تعرُّض هند بنت عتبة للشك فى شرفها من زوجها الفاكه بن المغيرة لريبةٍ ظنَّها فيها، فحاكمه أبوها إلى كاهن من كهان اليمن قضى ببراءتها فعادت مرفوعة الرأس رافضة أن تظل على ذمة الفاكه بعد الذى كان منه فى حقها: "كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحدَ فتيان قريش، وكان قد تزوج هند بن عتبة، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس فيه بلا إذن. فقال يوما في ذلك البيت وهند معه، ثم خرج عنها وتركها نائمة فجاء بعض من كان يغشى البيت،

فلما وجد المرأة نائمة ولّى عنها، فاستقبله الفاكه بن المغيرة فدخل على هند وأنّبها وقال: مَنْ هذا الخارج من عندك؟ قالت: والله ما انتبهت حتى أنبهتني، وما رأيت أحدا قطّ. قال: الحقي بأبيك. وخاض الناس في أمرهم، فقال لها أبوها: يا بُنَيَّة، العارَ وإن كان كذبا. بُثّيني شأنك، فإنْ كان الرجل صادقا دسَسَتُ عليه من يقتله فيقطع عنك العار، وإن كان كاذبا حاكمْتُه إلى بعض كُهّان اليمن. قالت: والله يا أَبتِ إنه لَكاذب. فخرج عتبة فقال: إنك رميتَ ابنتي بشيء عظيم، فإما أن تبيّن ما قلتَ، وإلا فحاكمني إلى بعض كهان اليمن. قال: ذلك لك. فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش ونسوة من بني مخزوم، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف. فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيَّر وجه هند وكَسَفَ بالُها، فقال لها أبوها: أَيْ بُنَيَّة، ألاَ كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنا؟ قالت: يا أبت، والله ما ذلك لمكروه قِبَلي، ولكنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب، ولعله أن يَسِمَني بسِمَة تَبْقَى على ألسنة العرب. فقال لها أبوها: صَدَقْتِ، ولكني سأَخْبُره لك. فصَفَّر بفرسه، فلما أَدْلَى عَمَدَ إلى حَبّة بُرٍّ (قَمْح) فأدخلها في إحْليله ثم أَوْكَى (رَبَط) عليها وسار، فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فقال له عُتْبَة: إنا أتيناك في أمرٍ، وقد خبأنا لك خبيئة، فما هي؟ قال: بُرَّةٌ في كَمَرَة. قال: أريد أَبْيَنَ من هذا. قال: حبّة بُرٍّ في

إحليل مُهْر. قال صَدَقْتَ، فانظر في أمر هؤلاء النسوة. فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ويقول: قومي لشأنك. حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال: انهضي غير رَقْحَاءَ (فاجرة) ولا زانية، وستلدين مَلِكًا يسمَّى: معاوية. فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها، فنترت يده من يدها وقالت: إليك عَنِّى. والله لأَحْرِصَنَّ أن يكون ذلك الولد من غيرك. فتزوجها أبو سفيان، فولدت له معاوية".

ومن ذلك أيضا ما رُوِىَ عن سَطِيحٍ الذئبى الغَسّانى من أنه "لما كان ليلة وُلِد النبي ارتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل مملكته، فما كان أوشك أنْ كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال المُوبَذَان: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني. قال له: وما رأيتَ؟ قال: رأيتُ إبلاً صِعَابًا، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا. قال: رأيتَ عظيما، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما

عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن أرْسِلْ إلى عاملك بالحِيرة يوجِّه إليك رجلا من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحدْثان. فبعث إليه عبدَ المسيح بن بُقَيْلَة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهِّزْني إلى خال لي بالشام يقال له: سَطِيح. قال: جهِّزوه. فلما قدم إلى سطيح وجده قد احتُضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليمنْ؟ يا فاضل الخطة أعْيتْ مَنْ ومَنْ
أتاك شيخ الحي من آل سَنَنْ أبيض فضفاض الرداء والبدنْ
رسول قَيْل العجم يَهْوِى للوَثَنْ لا يرهب الرَّعْد ولا رَيْب الزمنْ

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان. رأى إبلا صِعَابا، تقود خيلا عِرَابا، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقَاما، ولا الشام لسطيحٍ شاما. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آتٍ...إلخ".

أما فى القصة التالية فنرى الكاهن يحذّر بنى الحارث بن كعب من الإغارة على بنى تميم، وإلا تعرضوا للهزيمة المُرّة على أيديهم: "كان بنو تميم قد أغاروا على لَطِيمَةٍ (قافلة) لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر كثير، فأوقع كسرى بهم وقتل المقاتلة، وبقيت أموالهم وذراريهم في مساكنهم لا مانع لها. وبلغ ذلك بني الحارث بن كعب من مَذْحِج، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: اغتنموا بني تميم. فاجتمعت بنو الحارث وأحلافها من زيد وحزم بن ريان في عسكر عظيم وساروا يريدون بني تميم، فحذّرهم كاهن كان مع الحارث، واسمه سلمة بن المغفل، وقال: إنكم تسيرون أعقابا (أى بعضكم فى إثر بعض)، وتغزون أحبابا، سعدا ورَبَابا، وتَرِدُون مياها جِبَابا (جمع "جُبّ"، وهو البئر)، فتَلْقَوْن عليها ضِرابا، وتكون غنيمتكم ترابا، فأطيعوا أمري ولا تغزوا تميما. ولكنهم خالفوه وقاتلوا بني تميم فهُزِموا هزيمة نكراء".

ولا شك أن أى عاقل سيُنكِر ما جاء فى مثل تلك الأخبار من أن هذا الكاهن أو ذاك كان يستطيع أن يعلم الغيب، إذ الغيب شأن من شأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أحدا من عباده أن ينفذ من خلال حُجُبه إلا إذا أوحى الله بشيء من ذلك لنبى من أنبيائه. ونبينا عليه السلام مأمور فى القرآن بأن يقول: "وعنده (أى عند الله) مفاتح الغيب، لا

يعلمهــا إلا هــو"، "قــل: لا يعلــم مــن فى الســماوات والأرض الغيبَ إلا الله"، "قل: ما كنتُ بِدْعًا مــن الرســل، ومــا أدرى مــا يُفْعَل بِي ولا بكم"، "ولَوْ كنــتُ أعلــم الغيــب لاســتكثرتُ مــن الخير وما مَسَّنِىَ السوء"، "عــالِم الغيــب (أى الله ســبحانه) فــلا يُظْهِر على غيبه أحدا* إلا من ارتضى مــن رســولٍ، فإنــه يَسْــلُك من بين ومــن خلفــه رَصَــدًا* لِــيَعْلَم أنْ قــد أبلغــوا رســالات رهم"... إلخ. فماذا يكون الكــاهن بالنســبة للــنبى، وبخاصــة إذا علمنا أن الكهنة كانوا يزعمون أهــم إنمــا يســتعينون فى مهمتــهم الكهنوتية بالشياطين، ولم يكن يترل علــيهم الــوحى مــن الســماء من لدن الله سبحانه وتعالى؟ وعلى هــذا فــنحن مضــطرون إلى أن نرفض ما ورد أيضا فى تلك الأخبار ذاهــا مــن كــلام منســوب للكهنة فى هذه الظروف من مثــل: "عبــد المســيح، علــى جمــلٍ مُشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفي علــى الضــريح، بعثــك مَلِك بني ساسان، لارتجــاج الإيــوان، وخمــود الــنيران، ورؤيــا الموبَذان. رأى إبلا صِعَابا، تقود خــيلاً عِرَابــا، قــد اقتحمــت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المســيح، إذا كثــرت الــتلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى الســماوة، وغاضــت بحــيرة ساوة، وخمدت نار فــارس، فليســت بابــل للفُــرْس مُقَامــا، ولا الشام لسطيحٍ شاما. يملك منهم ملــوك وملكــات، عــدد ســقوط الشرفات، وكل ما هــو آت آت"، أو "امضــي غــير رَقْحَــاءَ ولا

زانية، وستلدين مَلِكًا يسمَّى: معاوية"، لأنـــه إذا كانـــت الواقعـــة لم تحدث أصلا فبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون الكـــلام المتصـــل بهـــا قد قيل! أما قول الكاهن الذى نفَّر بين هاشـــم بـــن عبـــد منـــاف وأمية بن عبد شمس فهو لا يزيد عـــن أن يكـــون حُكْمًـــا فى قضـــية اجتماعية ليس إلا، ولا يدخل فى باب الإنباء بالغيب.

إذن فالباحثون الـــذين ينكـــرون صـــحة هـــذه الأســـجاع ويَرَوْن أنها من صنع المتأخرين ليسوا على خطـــإ مطلـــق، وإن قـــام رَفْضُ الدكتور شوقى ضيف لها مثلا علـــى أســـاس طـــول الـــزمن المنصرم ما بين صـــدور الأقاويـــل المنســـوبة إلى أولئـــك الكهـــان والوقت الذى سُـــجِّلَتْ فيـــه (العصـــر الجـــاهلى/ ٢٢٤)، وهـــو سبب غير كاف كمـــا قلنـــا عنـــد حـــديثنا عـــن الأمثـــال، إذ إن الذاكرة العربية مشهورة بالحفظ مـــن كثـــرة مـــا كـــان أصـــحابها يعتمدون عليها ويستعملونها لانتشار الأمية بينهم، ممـــا مـــن شـــأنه أن يجعلها أَحَدَ وأنشط من الـــذاكرة الـــتى لا يســـتخدمها أهلوهـــا على هذا النطاق الواسع. كما أن هـــذه الأقاويـــل، حســـبما بيّنـــا، تقوم على السجع، وهو ما يساعد على المزيد مـــن الحفـــظ، فضـــلا عن أنها ليست من الطـــول ولا مـــا احتفظـــت بـــه الكتـــب مـــن نصوصها من الكثرة بحيث تسبب للـــذاكرة عَنَتًـــا فى الاحتفـــاظ بها، إلى جانب اعتقاد الجاهليين أنها حق لا ريب فيه.

وقد يُفْهَم من كلام بعض الدارسين أن هــذه الأقاويــل هــى أساس السجع أو أنها على الأقــل كانــت النصــوص المســجوعة الوحيدة فى النثر الجاهلى، فقد كتــب مــثلا المستشــرق الألمــانى كارل بروكلمان أن "السجع هــو القالــب الــذى كــان يصــوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقــوالهم" (تــاريخ الأدب العــربى/ ١/ ٥١)، وهو ما يتابعه عليه عبد الستار فــوزى ود. عــز الــدين إسماعيل، إلا أنهمــا لم يكتفيــا بــذلك، إذ ذكــر الأول أن "تلــك الأسجاع حتى البقية التى استُعْمِلت فى عصــر الإســلام الأول قــد نبعت جميعا من سجع الكهان الجاهليين يوم كانــت تلــك الأنغــام المتوازنة ضــرورية لتمثيــل الكــاهن، ولا غــنى عنــها لتصــوير شخصيته وإثبات علمه وتحديد ما يصــدره مــن أقضــية وأحكــام، وما يشيع عنه من وحى وإلهام" (عبــد الســتار فــوزى/ الســجع وأطوار استعماله فى أدب العــرب/ الشــركة المركزيــة للطباعــة والإعلان/ بغداد/ ١٩٦٦م/ ٣٢)، كمــا ورد فى حــديث الثــانى عن السجع وسيطرته على النثر الفــنى فى العصــور الإســلامية أن هذا الاتجاه هو "امتداد لما عُرِف فى الجاهليــة قــديما باســم ســجع الكهــان" (د. عــز الــدين إسماعيــل/ المكونــات الأولى للثقافــة العربية– دراسة فى نشــأة الآداب والمعــارف العربيــة وتطورهــا/ ط٥/ أبوللو للنشــر والتوزيــع/ ١٤١٤هـــ- ١٩٩٣م/ ٤٢)، وإن كان فى موضع آخر قد أضاف "الأمثــال" أيضــا إلى "ســجع

الكهان"، وذلك فى النص التالى الذى يَعْرِض فيه لأوّليّة الشعر العربى وكيفية نشوئه، إذ قال: "هناك فرض راجح حتى الآن يذهب فيه أصحابه من علماء تاريخ الأدب إلى أن الشعر العربى قد نشأ فى جاهلية العرب الأولى نتيجة لتطور العبارات المسجوعة التى كان يستخدمها الكهنة فى رُقَاهم وتنبؤاتهم، والعبارات الأخرى المسجوعة فى بعض الأحيان التى كان تجرى على الألسنة مجرى المثل" (المرجع السابق/ ٩). وعلى كل حال فليس بين أيدينا ما يبين متى بدأ السجع فى النثر العربى، وهل يرجع فعلا إلى "سجع الكهان" وحده أو إليه هو و"الأمثال" كما فى النص الأخير أو هو أمر سابق على ذلك، فضلا عن أن خُطَب الجاهليين ومنافراتهم وخصوماتهم كانت (كما هو معروف) مسجوعة فى غير قليل من الأحيان. وعلى هذا فالتفكير العلمى الحذر يقتضينا أن نكون على ذكر من هذه الحقيقة قبل أن نصدر حكما كهذا فنضلّ فى بَيْدَاء الوهم. كل ما نستطيع أن نقوله هو أن السجع كان معروفا للجاهليين وأنه كان مستعملا لا فى كلام الكهان والكاهنات وحده، ولا فى كلامهم والأمثال فقط، بل فى الخُطَب والمنافرات والخصومات أيضا، إذ هو يلبى حاجة فطرية فى النفس، "فالكلام الموسيقى المتوازن على اختلاف ألوانه هتاف النفس حين تضطرم بنوازع النشوة والألم، والسرور والحزن، والرضاء والغضب، والبسط

والقبض، تبعثه فى يسرٍ من أعماقها سَيّالاً متـدارِكا كأنما تجـد فى تناغم ألفاظه ورنـين أجراسـه وتعـاطف حروفـه متنفَّسًا لهـذا الجَيَشَان العنيف وتطبيقًا لهذه الثـورة الصاخبة" (على الجنـدى/ صُوَر البديع- فن الأسجاع/ دار الفكـر العـربى/ ١/ ٩)، ولـيس ثمة ما يلجئنا إلى القول بـأن السـجع نشـأ فى أحضـان السِّحْر والكهانة والمعابد ومـا إلى ذلـك كمـا يـردد بعـض الدارسـين العرب تأثرا بما يقوله المستشرقون فى هـذا المجـال، لأن مـا كـان مرتبطا بالفطرة لا يحتاج إلى سحر أو كهانـة أو معابـد، وبخاصـة أننا نعلم ما تتميز به اللغة العربية من الموسـيقية والـرنين والتـوازن مما يجعلها فى ذاتها بيئةً جدَّ مناسبةٍ لازدهار السجع والشعر.

السجع إذن لم يكن مقصورا على الكهـان، بـل اسـتخدمه الخطباء والمتنافرون والمتفاخرون وضـاربو الأمثـال أيضـا، ذلـك أنه مجرد أداة، مَثَلُه فى هذا مَثَلُ الجمل والسـيف والقلـم وغيرهـا من الوسائل والأدوات التى يصطنعها البشـر فى حيـاتهم، لا يحمـل أية دلالة عقيدية أو أخلاقية فى حد ذاته، على عكـس مـا يقـول اللمازون الذين يحاولون الإيهام بأنه ليس هناك فـرق بـين دعـوة الرسول عليه السلام ووظيفة الكهان. ومـن هنـا نجـد السـجع مستعملا فى القرآن كما كان مستعملا لدى الكهنـة، رغـم أنهـم إنما كانوا يستخدمونه فى الكـذب والإيهـام بـالتنبؤ بالغيـب وفى التنفير بين المتنافسين على السمعة وما أشبه، علـى حـين أنـه فى

القرآن مستَعْمَلٌ فى الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والحث على البر والعدل والصدق والعلم والأخوة والتراحم والتعاون والمساواة ونبذ الربا والقمار والخمر... إلى آخر ما نعرف من القيم الكريمة النبيلة التى رفع لواءها القرآن الكريم والتى تتعارض مع دعاوى الكهانة وخرافاتها. ولقد نزل القرآن بنفس اللغة التى كان الكهان يتخذونها، وهى اللغة العربية، كما أن الرسول كان يمارس حياته، فيما عدا كهانتهم ووثنيتهم، مثلما كانوا يمارسون حياتهم، فكان يأكل ويشرب ويتزوج مثلما كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجون، وكان يركب الناقة والحصان مثلما كانوا يفعلون. وفى القرآن نقرأ أن كتاب الله قد "نزل بلسان عربي مبين"، وهذا أمر طبيعى كى يفهمه العرب الذين اتجه إليهم القرآن أول ما اتجه: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم"، والسجع جزء من هذا اللسان الذى نزل به القرآن، وهو عنصر جذاب لأولئك القوم، فأين وجه الحرج فى أن يستعين به كِتَاب الدعوة الجديدة حتى تنصت إليه الأسماع وتَصْغُو له القلوب والعقول؟ وبقريب من هذا قال د. جواد على، الذى علّق على أسلوب المفسرين فى توجيه قَسَم القرآن بالتين والزيتون وما إلى ذلك قائلا: "وفي القرآن قَسَمٌ بالسماء وبالعاديات وبالتين والزيتون وبغير ذلك ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب، ففسروا وتأولوا.

ولو فكروا أن هذا النوع من القسم هـو أسـلوب مـن أسـاليب العرب في القسم قبل الإسـلام، وأن القـرآن إنما نـزل بلسـان العرب، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم لأنه خاطبـهم علـى قـدر عقـولهم وبلغتـهم، عرفـوا السـبب. ولا زال الأعـراب علـى سجيتهم القديمة في القَسَم بهذه الأشياء، يُقْسِمون بهـا كمـا يُقسِـم المتحضر بأعز شـيء عنـده" (المفصَّـل فى تـاريخ العـرب قبـل الإسلام/ ٤/ الفصل الخاص بالنثر).

كما أن المسـلمين الأوائـل قـد أدَّوُا العُمْـرَةَ فى السـنة التالية لغزوة الحديبية حين كانت الكعبة لا تـزال تعـجّ بالأوثـان، فهل يمكن اتهامهم بأنهم كانوا يمارسـون طقوسـا وثنيـة؟ بـل إن الحجاج المسلمين كانوا وما فتئوا يأتون مـن الطقـوس مـا كـان الوثنيون يمارسون بعضه مما بقى من حـج الخليـل عليـه السـلام، لكن العبرة بالنيـة، إذ ينبغـى ألا ننسـى أن الجـاهليين الـوثنيين كانوا يحتفظون رغم وثنيتهم ببعض شعائر الحـج الصـحيحة الـتى ورثوها عن أبيهم إبراهيم عليه السـلام، وهـو مـا احـتفظ بـه الإسلام أيضا فى هذه العبادة. ومثله السجود، الـذى كـان بعـض الوثنيين يؤدونه للشمس وللقمر، ويؤديه المسـلمون أيضـا، لكـنْ لله تعالى لا لهذين الجِـرْمَيْن السَّـمَاوِيَّيْن... وهكـذا. إن السـجع مجرد أداة أو وسيلة، والأداة لا تعاب فى حد ذاتهـا، بـل للغـرض السيئ الذى تستعمل فيه.

لقد كان سجع الكهان يـدور فى فَلَـك الوثنيـة ويـتم فى بيوت الأوثان، بخلاف السجع فى القرآن، الـذى حـارب الوثنيـةَ وقام الرسولُ الذى نزل عليه ذلك الكتاب الكـريم بهـدم أوثانهـا وبيوتها. كما كان الكهان يتقاضَوْن أجرا علـى مـا يقولـون، أمـا النبى فلم يكن يمد يده إلى مـال أحـد، وآيـات القـرآن الكـريم واضحة تمام الوضوح فى هذا: "قل: لا أسـألكم عليـه أجـرا. إنْ هو إلا ذِكْرَى للعالمين"، "وما أسألكم عليه مـن أجـر. إنْ أجـرىَ إلا على رب العالمين"، "قل: ما أسألكم عليـه مـن أجـر إلا مـن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا"، "قـل: لا أسـألكم عليـه أجـرا إلا المودّة فى القُرْبَى". ليس هذا فحسـب، بـل لقـد حـرّم الإسـلام أيضا عليه وعلى أهل بيته جميعا أن يأخـذوا شـيئا أى شـىء مـن أموال الصدقات، وكلنا يعرف أنه عليـه الصـلاة والسـلام كـان يتشدد فى هذا أيما تشـدد! ولقـد حـارب الإسـلام والرسـول الكهانة والمتكهنين حربا شعواء، وأبـدى عليـه السـلام امتعاضـه ونفوره الشديد مـن طريقتـهم المتكلفـة الغامضـة فى التسـجيع، فكيف يقال إنه صلى الله عليه وسلم قد جـرى فى رِكَـابهم ونَهَـجَ نَهْجَهم كما يردد بعض الرُّقَعَاء؟ ومصداقًا لهـذا نلفـت النظـر إلى القصة التالية وما فيها من دلالات على موقـف الرسـول الأكـرم من "سجع الكهان" أيضا لا من "الكهـان" أنفسـهم فقـط، فقـد "اقتتلت امرأتان من هُـذَيْل، فرمـت إحـداهما الأخـرى بحجـر

فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقضى رسول الله أن دية جنينها غُرّة: عبد أو وليدة. وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وورَّثها ولدَها ومن معهم. فقال حمل بن النابغة الهُذَلِيّ: يا رسول الله، كيف أغرم من لا شَرِبَ ولا أَكَلَ، ولا نَطَقَ ولا استهلّ؟ فمثل ذلك يُطَلّ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما هذا من إخوان الكهان"، من أجل سجعه الذي سجع"، إذ كان كهان الوثنية، كما سبق بيانه، يخدعون الناس ويشيعون الوهم فى العقول ويصطنعون أسلوبا متكلفا لا يبغى كشف الحق بل يمكّن للباطل تمكينا، فأراد عليه السلام من المسلمين أن ينبذوا هذا الأسلوب العفن الضار. إنهما إذن طريقان مختلفان، وأسلوبان فى استعمال السجع لا يلتقيان!

ثم لو كان صلى الله عليه وسلم يجرى على سُنّة الكهانة والمتكهنين كما يزعم الزاعمون، فكيف يفسر المتنطعون الذين يتهمونه هذا الاتهام الأرعن أنه قد حورب من قومه، على حين أن الكهان كانوا محطّ رهبة ورجاء من هؤلاء القوم، ولم يكن أحد من العرب ليفكر فى مس شعرة من شعرهم؟ بل كيف يفسرون معاداة الكهان له عند إعلانه دعوته لو أنه كان واحدا منهم، وهم الذين لم نسمع قط أنهم عادَوْا أى واحد من أبناء مهنتهم؟ بل إننا لم نسمع أيضا أن أحدا منهم اتهم الرسول عليه

السلام رغم هذا بأنه قد أخذ منهم أسلوبه، فكيف نفسر ذلك أيضا؟ صحيح أن قومه قد اتهموه بأنه كاهن، لكنهم اتهموه كذلك بأنه شاعر، وبأنه مجنون، وبأنه ساحر، وكل تهمة من هذه تناقض التهمة الأخرى، كما أن أيًّا منها لا ينطبق على حالته صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أنها مجرد دَعَاوَى ومزاعمَ كاذبةٍ متخبطةٍ مبعثها الحقد والغيظ. وأكبر دليل على بطلان هذه الأقاويل أنهم هم أنفسهم قد انتهَوْا إلى الإيمان به لاحِسِين كل تلك الاتهامات ومكذّبين أنفسهم بأنفسهم! بل لقد عرضوا عليه أنه إن كان الذى يأتيه رَئِيًّا من الجن فإنهم على استعداد لبذل كل ما يملكون فى تطبيبه حتى يَشْفُوه منه، وكان جوابه التمسك بما يدعو إليه وعدم الالتفات إلى هذه السخافات والمزيد من التفانى فى دعوتهم إلى نبذ الأوثان وسبيل الكهّان. وقد انتهى هذا كله، كما هو معروف، بأَنْ دخل الجميع فى دين الله على بكرة أبيهم بما فيهم الكهان أنفسهم وأهلوهم، فعلام يدل هذا أيضا لو كان عند من يتهمونه مثل هذه التهمة عقول تفكر وتبصر؟ إن القرآن حملة مستمرة على الشيطنة والشياطين، فبالله كيف يَسُوغ فى منطق العقل أن يقال إنه عليه السلام كان يستعين بالشياطين؟

ولقد أكثر أعداء الإسلام فى العصر الحديث من المستشرقين والمبشرين ومن يلوذ بهم ويردد مزاعمهم من

الكلام فى أقسام القرآن التى استُهِلَّتْ بها بعض السور المكية مثل: "والنجم إذا هَوَى* ما ضلَّ صاحبكم وما غَوَى* وما ينطق عن الهوى* إنْ هو إلا وحىٌ يُوحَى"، "والسماء والطارق* وما أدراك ما الطارق؟* النَّجْم الثاقب* إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عليها حافظ"، "ق والقرآنِ المجيد* بل عجبوا أنْ جاءهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شىء عجيب"، "حم والكتاب المبين* إنا أنزلناه فى ليلة مباركة. إنا كنا منذِرين* فيها يُفْرَق كل أمرٍ حكيم* أمرا من عندنا"... إلخ، قائلين إنه عليه السلام إنما يقلد الكهان فى طريقتهم بالقَسَم بمظاهر الطبيعة كالذى رُوِىَ عن الكاهن الخزاعي من قوله: "والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعَلَمٍ مسافر، من مُنْجِدٍ وغائر"، والذى رُوِىَ عن سواد بن قارب الدَّوْسِيّ وقوله: "والسماء والأرض، والغَمْر والبَرْض، والقَرْض والفَرْض، إنكم لأهل الهضاب الشُّمّ، والنخيل العُمّ، والصخور الصُّمّ، من أَجَإ العيطاء، وسَلْمَى ذات الرقبة السطعاء... أُقْسِم بالضياء والحَلك، والنجوم والفَلَك، والشروق والدَّلَك، لقد خبأتَ بُرْثُن فرخ، في إعليط مَرْخ، تحت آسرة الشَّرْخ... والسحاب والتراب، والأصباب والأحداب، والنَّعَم الكُثاب، لقد خبأتَ قُطَامة فَسِيط، وقُذّة مَرِيط، في مَدَرَةٍ من مَدَىَ مَطِيط... أُقْسِم بالسَّوَام العازب، والوقير الكارب، والمجد

الراكب، والمُشيح الخارب، لقد خبأتَ نُفاثة فَنَن، في قطيعٍ قد مَرَن، أو أديمٍ قد جَرَن... أُقْسِم بنَفْنَف اللُّوح، والماء المسفوح، والفضاء المندوح، لقد خبأت زَمَعَةَ طَلاً أعفر، في زِعْنِفَةِ أديمٍ أحمر، تحت حِلْسِ نِضْوٍ أدبر... والناظرِ من حيث لا يُرَى، والسامعِ قبل أن يناجَى، والعالِمِ بما لا يُدْرَي، لقد عَنَّتْ لكم عُقَابٌ عجزاء، في شغانيبِ دَوْحَةٍ جرداء، تحمل جَذْلا، فتماريتم: إما يَدًا وإما رِجْلاً"، وكالذى رواه الجاحظ لعُزَّى سَلَمَة من أنه قال: "والأرض والسماء، والعُقَاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نَفَّرَ المجدُ بني العُشَراء، للمجد والسناء"، وكالذى جاء فى حديث زبراء الكاهنة مع بني رئام من قضاعة، إذ قالت: "واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمُزْن الوادق، إن شجر الوادي ليأْدُو خَتْلاً، ويَحْرُق أنيابًا عُصْلاً، وإن صخر الطَّوْد لَيُنْذِر ثُكْلاً، لا تجدون عنه مَعْلاً"، وأخيرا كالذى نُسبَ إلى سلمى الهمدانية وما أبدته من رأى في حريمِ المُرَادِيّ: "والخَفْو والوميض، والشفق كالإِحْرِيض، والقُلّة والحضيض، إن حريمًا لَمَنِيع الحِيز، سيدٌ مَزِيز، ذو معقل حَرِيز، غير أني أرى الحُمَّة ستظفر منه بعَثْرة، بطيئة الجَبْرة". ويجد القارئ هذه النصوص تحت عنوان: "خُطَب الكُهّان" و"خُطَب الكواهن" من كتاب "جمهرة خُطَب العرب" للمرحوم الأستاذ أحمد زكى صفوت.

ونظرة سريعة إلى هذه الأقسام تبنئنا أنها فى التنبؤ بالغيب أو فى التنفير بين المتنافسين على الافتخار بحسن الأحدوثة بين الناس، على حين أن أقسام القرآن تهدف إلى تأكيد حقيقة اليوم الآخر أو صدق الوحى القرآنى أو ضلال الشرك والمشركين وأشباه ذلك. وهذا لو أغضينا البصر عن سخف التنفير ومخالفته لأصول الاجتماع الصحيحة التى ينبغى أن تقوم على الإعلاء من شأن العمل النافع ووجوب التجرد فى القيام به بحيث يضع فاعلُه مصلحةَ المجتمع والبشرية نُصْبَ عينيه وينتظر الأجر والمثوبة من الله ولا تشغل نفسَه الرغبةُ فى الاشتهار بين الناس كى يتحدثوا عنه بالحق أو بالباطل، وكذلك لو جارينا الاعتقاد الجاهلى الأخرق وصدَّقنا أن الكهان يستطيعون أن يتنبأوا فعلا بالغيب، وهو ما سبق أن قلنا إنه أمر مستحيل، إلا أننا نجرى هنا مع المتهِمين إلى أقصى حد حتى نبين لهم ولمن يقرأون ما يكتبون أن كلامهم لا يقوم على أى أساس. كما أن الأقسام الخاصة بـ"التراب والأصباب والأحداب والنَّعَم والسحاب والغمام الماطر والمُزْن الوادق والصقعاء والعُقَاب والذئب والغَمْر والقَرْض والفَرْض والبَرْض واللوح الخافق ونَفْنَف اللُّوح والماء المسفوح والفضاء المندوح والخَفْو والوميض والشفق الذى يشبه الإحريض والقُلَّة والحضيض والحَلَك والفَلَك والدَّلَك والسَّوَام العازب والوقير الكارب

والمجد الراكب والمُشيح الحارب والناظر من حيث لا يُرَى والسامع قبل أن يتاجَى والعالم بما لا يُدْرَى" هى أقسام لم ترد فى القرآن الكريم، وفى المقابل فإن القَسَم بـ"القرآن المجيد والقرآن ذى الذّكْر والكتاب المبين والكتاب المسطور فى رَقٍّ منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور والصافّات صَفًّا والذاريات ذَرْوًا والمرسَلات عُرْفًا والنازعات غَرْقًا والليالى العشر والشَّفْع والوَتْر وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى والضُّحَى والتين والزيتون وطُور سِينِين وهذا البلد الأمين والعاديات ضَبْحًا" هو أيضا قَسَم لا تعرفه النصوص المنسوبة إلى أولئك الكهان، مثلما لا تعرف التركيبَ القرآنى التالى: "لا أُقْسِم بكذا"، ولا مجىء عبارة "هل فى ذلك قَسَمٌ لِذى حِجْر؟" أو "وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم" أو "بل الأمر كذا وكذا" بعد القَسَم، أو مجىء حرف هجائى أو أكثر قبله، كما فى قوله تعالى: "والفجر* وليالٍ عشر* والشَّفْع والوَتْر* والليل إذا يَسْرِ* هل فى ذلك قَسَمٌ لِذى حِجْر؟"، "فلا أُقْسِم بمواقع النجوم* وإنه لقَسَمٌ لو تعلمون عظيم* إنه لقرآن كريم* فى كتاب مكنون* لا يَمَسُّه إلا المطَهَّرون"، "ص والقرآن ذى الذكر* بل الذي كفروا فى عِزّةٍ وشِقَاق"، "ق والقرآن المجيد* بل عجبوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شىء عجيب"، "يس والقرآن الحكيم* إنك لمن المرسَلين* على

صراط مستقيم". ثم إن النصوص المتضمِّنة لأقسام الكهان تتميز بأنها قصيرة النفس، إذ سرعان ما ينتهى النص الذى وردت فيه هذه الأقسام عقب الفراغ من نبإ الغيب المزعوم أو التنفير بين المتخاصمين مما لا يستغرق إلا بضع جمل قصيرة ليست بذات عدد، على حين أن السورة القرآنية تمضى بعد ذلك متناولةً أمور العقيدة الجديدة وقيمها الأخلاقية وما إلى هذا، وقد تطول طولا كبيرا لا تناسُب بينه وبين نصوص الكهانة المدّعاة.

وهذا كله إذا لم نقل إن هذه الأقسام الكهنوتية إنما صيغت على غرار أقسام القرآن الكريم: إما ممن صنعوها فى العصر العباسى ونسبوها زورا للجاهليين، وإما من كهانٍ صاغوها بعد نزول القرآن فوضعوه أمامهم واحتَذَوْه، أو إن الكهان السابقين على نزول القرآن إنما كانوا يقلّدون، فيما صحت نسبته لهم، أسلوبا من أساليب القَسَم كان مستعملا فيما نزل من وحى على الأنبياء العرب السابقين كهُودٍ وصالحٍ وشُعَيْب. والعجيب أن كاتب مادة "سَجْع" فى الطبعة الجديدة من "The Encyclopaedia of Islam" ("دائرة المعارف الإسلامية" الاستشراقية) لا يختلف مع الباحثين الآخرين فى وَسْم كلّ ما نُسِبَ للكهان من أقوالٍ بأنها لا تبعث على الاطمئنان، ومع هذا يتهم الرسول بأنه يقلد فى قرآنه

سجع أولئك الكهان، وإن أضاف أنه قد عمل فى ذات الوقت على أن يصبَّ فى هذا القالب الكهنوتى القديم المبادئ الجديدة التى أتى بها! أى كما يقال فى المثل: "عَنْزَة ولو طارت"!

وإنى لأستعجب أن يقرأ بعض الناس القرآن الكريم ثم يقولوا بعد ذلك إنه من كلام الكهان، أو إنه تقليد لكلام الكهان! إن هذا الادعاء هو دليل على أن صاحبه كاذب بالثلث أو منكوس العقل مطموس البصيرة. ولسوف أورد هنا نص ثلاث سور صغيرة هى "البلد" و"الليل" و"الضحى" وأترك القارئ (أيًّا كان دينه ومذهبه) وجهًا لوجه أمامها ليسأل ضميره بصدق وأمانة: أَمِثْل هذا الكلام هو من وحى الشياطين أو يجرى من جاء به على سُنَة الشياطين؟ يقول جل جلاله:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)"، "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)"، "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)". والله إن كان هذا الكلام النبيل الكريم هو من كلام الكهان، ومن وحي الشيطان، فليس هناك شيء يستحق الثقة إذن في دنيا الإنسان!

فى ضوء ما مرّ نستطيع أن نضع الكلام التالى لعبد الله إبراهيم، وأرجو من القارئ أن يرهف أذنيه ليلتقط ما بين السطور، وقبل ذلك ما فى السطور نفسها، من افتراءات ضالة مضلة عن تشابه القرآن وأسجاع الكهان: "استأثر ضرب آخر من النثر باهتمام طائفة من الكهّان والمتنبّئين والمتعبّدين فى العصر الجاهلى، ونُسِب إليهم لأنه كان الوسيلة المعبرة عن مقاصدهم وأفكارهم. ويبدو أن جملة الظروف الثقافية القائمة آنذاك قد دفعت هذا النوع من النثر إلى مقدمة أنواع النثر الجاهلي لأنه ارتبط بالنظم الدينية التي كانت قائمة آنذاك. ومن ناحية منطقية فإن الإسلام جبّ مضمون نثر الكهان وأساليبه السجعية، ولكن إذا نظر للأمر من ناحية واقعية فإن واقع الحال يكشف أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذى جاءت فيه لم يكن يتعارض مع نثر الكهان. ذلك أن الموضوعات التى كانت تتواتر فيه هى إجمالا أخلاقية وعظيّة تتخلّلها ضروب من التأويلات الغامضة، أما أساليبه فيغلب عليها الأسجاع التي تماثل إلى حد ما الصيغ السجعية التى نجدها فى الخطب والنصوص الدينية. ومن المحتمل أنّ أصل التعارض كان قائمًا فى الوظائف التى يقوم بها كلّ من النبي والمتنبّئ، أى الخلاف فى وظيفة الرسول ووظيفة الكاهن. ذلك أنه لو نظر إلى ماهية النصوص بعيدًا عن سلطة المقدس لوجدنا

أنّ التماثل فى المضامين والأساليب لا يفضي إلى نوع من التعارض الحقيقي، ويرجح أنّ ظروفًا واقعية وتاريخية أوجدت ذلك التعارض، وفرضت نوعًا من التناقض بينهما" (عبد الله إبراهيم/ سيرة المرويّات النثرية السردية الجاهلية/ شبكة الذاكرة الثقافية). هذا ما قاله عبد الله إبراهيم، وتعليقنا هو: هل صحيح أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذى جاءت فيه لم يكن يتعارض مع نثر الكهان كما زعم هذا المدلس؟ هل كان الكهان يدعون إلى الصدق والعفة وإعطاء الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل حقوقهم فى أموال القادرين؟ هل كانوا يحثون على النظام والنظافة وإماطة الأذى عن الطريق وتنظيف الأسنان وتمشيط الشعر؟ هل كانوا يحضون على العلم ويَرَوْنَه أفضل ألوان العبادة؟ هل كانوا يحمّسون الناس إلى تشغيل عقولهم والحرص على استقلال آرائهم فلا يكونوا إمّعات؟ هل كانوا حرصاء على نشر الوعى بالسنن الكونية فى السماوات والأرض ودنيا البشر؟ هل كانوا يقولون إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا العمل؟ هل كانوا يحاربون الوثنية والثنوية والتثليث وتأليه البشر والجماد ويقفون حياقم على دعوة التوحيد؟ هل كانوا يقولون إن لكل داء دواء، وعلى البشر أن يبحثوا عن الدواء لكل مرض يصيبهم؟ هل كانوا يصلون ويزكون ويصومون؟ هل كانوا يعملون بكل

جهدهم على الوقوف بكل قواهم ضد الاستغلال والظلم والجبروت والتأله؟ هل كانو يقولون باليوم الآخر والحساب الإلهى والجنة والنار؟ هل كانوا يتفكرون فى عظمة الله وما ينبغى له من التمجيد والتحميد والطاعة والإخبات؟ هل كانوا يؤمنون بالرسل والنبيين السابقين؟ وأخيرا وليس آخرا: هل كانوا يكرهون مهنتهم القائمة على الكذب والتدليس والتضليل ويتوعدون من يقصدهم بسخط الله عليهم؟ ثم هل كان الرسول يدعى المقدرة على التنبؤ بالغيب؟ أم هل كان يأخذ أجرا على دعوته؟ أم هل كان يفتخر بأنه على صلة بالشياطين؟ أم هل كان يلوذ ببيوت الأوثان؟ أم هل كان يؤرث نيران المفاخرة بين الناس ثم يلتف ليفصل بينهم؟ لقد كان الكهنة يفعلون هذا كله وأشنع منه، أما الرسول فقد كانت سبيله هى سبيل الطهر والأمانة والسمو والعقل والعلم والتحضر. ألا إن المدلّسين لفى ضلال مبين!

الخُطب

يتناول الجاحظ فى كتابه: "البيان والتبيين"، ضمن ما يتناول، الخطابة عند العرب فى العصر الجاهلى مبيِّنًا أنهم كانوا بارعين فى هذا الميدان براعة منقطعة النظير حتى إنهم لم يكونوا عادةً بحاجة إلى الاستعداد المسبق لمواجهة الجموع التى يتطلبها هذا الفن، بل كان الكلام فى مثل تلك المواقف ينثال عليهم انثيالا، إذ كانت قرائحهم خصبة ممتازة وتفوّقهم فى ميدان الأحاديث العامة معروفا لا يحتاج إلى برهان، وبخاصة أنهم كانوا يدربون أبناءهم عليها منذ وقت مبكر. بَيْدَ أن من الباحثين العرب المُحْدَثين من يرى أنهم كانوا يُعِدّون خُطَبهم ويهيئون أنفسهم لإلقائها مسبَقًا، فهذه طبيعة الإبداع الأدبى كما يقول (د. إحسان النص/ الخطابة العربية فى عصرها الذهبى/ دار المعارف/ ١٩٦٣م/ ١٦– ١٧)، وهو ما تميل النفس إليه، وبخاصة أنّ مِنْ خُطَبهم التى تبعث على الثقة بصحتها ما كان يحلّيه السجع، مما يصعب تصور انثياله على لسان الخطيب ارتجالا، وهو من الأسباب التى دفعتنى للشك فى بعض الخُطَب الجاهلية المثقلة بالتسجيع والمحسنات البديعية كما سيأتى لاحقا.

كما كانت لهم تقاليد مشهورة فى إلقاء الخطب يحرصون عليها أشد الحرص، منها لُبس العمائم واتخاذ المِخْصَرة، أى العصا. وفى كتاب الجاحظ المذكور آنفًا نماذج من الخُطَب التى تركها

لنا الجاهليون، ومعها أسماء عدد ممن اشتهروا بالتفوق فى ذلك الباب، وهذا كله يبرهن أقوى برهان على أن العرب فى ذلك العصر كانت لهم خطبهم وأحاديثهم، وأن هذه الخطب والأحاديث لم تَضِع رغم أنهم كانوا أُمَّة أُمِّيَّة فى غالب أمرها، إذ كانت حافظتهم لاقطة شديدة الحساسية، كما أن اعتزازهم بكلامهم وتقاليدهم قد ضاعف من اهتمامهم بحفظ نصوص خطبهم المشهورة.

وبالمثل يؤكد جرجى زيدان أن العرب فى ذلك العصر كانوا خطباءَ مَصَاقِعَ بتأثير طبيعتهم النفسية وأوضاع حياتهم السياسية والاجتماعية، إذ كانوا ذوى نفوس حساسة أبيّة تعشق الاستقلال وتبغض العبودية أشد البغض، كما كثر فيهم الفرسان آنذاك. والخطابة، حسبما يقول، تناسب عصور الفروسية حيث تغلب الحماسة على النفوس وتكون للكلمة البليغة الملتهبة مكانة عظيمة عالية، فضلا عن أنهم كثيرا ما كانوا يتنافرون ويتفاخرون بالأحساب والأنساب مواجهةً عن طريق المناظرات والخطب، إلى جانب كثرة وفودهم فى المناسبات المختلفة، وبخاصة عند الملوك، مما كان يستلزم قيام الخطباء للحديث فى تلك الظروف، وهم فى العادة شيوخ القبائل ورؤساء الناس. كما ذكر أيضا أنهم كانوا يدرّبون فتيانهم على إتقان هذا الفن منذ حداثتهم، وأنهم كانوا يحفظون

خطبهم ويتوارثونها جيلا بعد جيل، ومن هنا كانت عنايتهم الشديدة بها وبصياغتها (جرجي زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقي ضيف/ ١/ ١٦٧- ١٦٩).

و"كان مفروضا فى الخطيب الجاهلى أن يعرف القبائل والأنساب والوقائع والتاريخ حتى تجتمع له من ذلك مادة الخطبة حين ينافر أو يفاخر أو يهادن أو يحرض قومه على قتال أو يدافع عن أحساب قومه" (محمد عبد الغنى حسن/ الخطب والمواعظ/ دار المعارف/ ١٩٥٥م/ ٢١).

هذا ما يقوله ثلاثة من كبار مؤرخى الأدب العربى قديما وحديثا، بيد أن للدكتور طه حسين رأيا مختلفا تماما عما سمعناه منهم، إذ يؤكد أن العرب لم يتركوا لنا أية آثار أدبية نثرية البتة لا خُطَبًا ولا غير خُطَب: فالنثر من جهةٍ يحتاج إلى بيئة ثقافية متقدمة لم تكن متوفرة فى جزيرة العرب قبل الإسلام، ومن جهة أخرى لم يصل إلينا عنهم شيء من ذلك مكتوب، فكيف نطمئن إذن إلى ما يقال إن العرب قد خلّفوه لنا من خطب وحِكَم ووصايا وأسجاع كهنوتية؟ لكننا نراه، بعد أن أكد هذا فى أسلوب حاسم قاطع، يرجع على عقبيه القهقرى مستثنيا من شكه هذا بعضا من النثر، وهو الأمثال، التى يعود فيقول إنها أقرب إلى الأدب الشعبى منها إلى النثر الفنى الذى يقصده، أما الخطابة فإنها تستلزم حياة خصبة جياشة، وحياة العرب قبل

الإسلام لم تكن فيها سياسة قوية ولا نشاط ديني عملي، بل كانت قائمة على التجارة، وهي لا تحتاج إلى خطابة ولا تعين عليها، أو على الحروب والغزوات، وهذه إنما تحتاج إلى الحوار والجدل لا إلى الخطب (طه حسين/ فى الأدب الجاهلى/ دار المعارف/ ١٩٦٤م/ ٣٢٩- ٣٣٢). ولعله لهذا السبب نبحث عبثًا، فى كتاب "التوجيه الأدبي" الذى ألفه طه حسين مع أحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد، عن أى حديث يتعرض للخطابة فى العصر الجاهلى، إذ كلما ورد ذكر الخطابة عند العرب وجدنا كاتب الفصل، وأغلب الظن أنه طه حسين نفسه، يقفز مباشرة إلى الحديث عنها بدءًا من العصر الإسلامى فهابطًا إلى العصر الحديث متجاهلا تمام التجاهل أى كلام عنها فيما قبل الإسلام! (التوجيه الأدبي/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ ١٣٥٩هـ- ١٩٤٠م/ ٤١ وما بعدها، وكذلك ٧٣ وما بعدها)، رغم تأكيد الكاتب أيضا أن "تاريخ الخطابة يكاد يكون مقارنا للتاريخ الإنسانى: نشأ بنشأته، وارتقى برقيه"، وأنه "لهذا رُوِيَت لنا الخُطَب منذ عُرِف التاريخ"، وأنه متى توفر عاملا الحرية وشعور الأمة بسوء حالتها وتطلعها إلى حالة أفضل انتعش هذا الفن انتعاشا كبيرا (المرجع السابق/ ٣٨- ٤٠)، وهو ما تحقق للعرب فى ذلك العصر حسبما هو معلوم، إذ لم يكن لهم دولة تمارس سلطانها

عليهم ويتزلون لها عن حَظٍّ من حريتهم واستقلالهم، كما أن السخط على الأوضاع كان منتشرا بين كثير منهم آنذاك، هذا السخط الذى كان إحدى عُدَد الإسلام فى مواجهة الجاهلية وأوضاعها الباطلة التى جاء ليغيرها إلى ما هو أفضل. ثم إنه من غير المنطقى أن يخترع العرب فى عصور التدوين كل تلك الخطب وكل أولئك الخطباء من العدم ودون أن يقوم من بينهم من يفضح هذا التزييف، وكأن الأمة قد صارت كلها أمة من الكذابين أو من الكذابين والسذّج المغفلين الذين يجوز عليهم مثل هذا الخداع دون أن يثير فيهم إنكارا أو حتى دهشة واستغرابا!

على كل حال فطه حسين إنما يسير فى إنكاره للنثر الجاهلى على ذات الدرب المتخبِّط الأهوج الذى سار عليه فى نفيه للشعر الجاهلى كله تقريبا مشايعا المحترق مرجليوث فى خُرْقه وضلاله وعَمَى منطقه وبصيرته! وفوق ذلك فمن الصعب على العرب، كما يلاحظ بحقّ عبد الله عبد الجبار ود. محمد عبد المنعم خفاجى، أن يرتقوا فجأة فى ميدان الخطابة هذا الارتقاء الذى يقرّ هو به بعد الإسلام لو كانوا لا يعرفون الخطابة فى الجاهلية أو كانت خطابتهم على الأقل من التفاهة وعدم الغَناء بالموضع الذى يزعم طه حسين (انظر كتابهما: "قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى"/ مكتبة الكليات

الأزهرية/ ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م/ ٢٠٢- ٢٠٣). كذلك قد قَفَشه د. محمد عبد العزيز الموافى قفشةً بارعةً بحقٍّ حين لفت الانتباه إلى أن طه حسين عندما أنكر وجود الخطابة الجاهلية إنما كان اعتماده فى ذلك الإنكار على خُلُوّ العصر الجاهلى من الحضارة والحياة المدنية الراقية، مع أنه سبق أن أقام إنكاره لصحة الشعر الجاهلى على القول بأن ذلك الشعر لا يمثل الحياة العقلية الراقية لدى الجاهليين (د. محمد عبد العزيز الموافى/ قراءة فى الأدب الجاهلى/ ط٧/ دار الثقافة العربية/ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م/ ٢٨٦- ٢٨٧). ونضيف نحن أنه، رغم نفيه هنا أن يكون للجاهليين أى نشاط دينى عملى، كان قد أقام إنكاره للشعر الجاهلى على عدة أسس من بينها أن هذا الشعر لا يعكس حياقم الدينية. فأى حياة دينية يعكسها إذا لم تكن لهم حياة دينية عملية أصلا كما يقول هو بعظمة لسانه؟ أى أنه يقول بالشيء ونقيضه لتقرير ما يريد تقريره دون مبالاة باعتبارات المنطق أو حقائق التاريخ، مع الاستعانة بالسفسطة السخيفة التى لا تُحِقّ حَقًّا ولا تُبْطِل باطلا! ولقد فات د. طه أن هناك نصوصًا شعرية جاهلية تذكر الخطابة والخطباء فى ذلك العصر، وهو دليل آخر على وجود الخطابة والخطباء أوانئذ.

ومن هذه الأشعار قول ربيعة بن مقروم الضبىّ:

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وقول أبي زبيد الطائى:

وخطيب إذا تمعرت الأو ... جه يوما فى مأقط مشهود

وقول النجاشى الحارثى:

وَخَطِيبٌ إذَا تَمَعَّرَتِ الأَوْ ... جُهُ يَشْجَى بِهِ الأَلَدُّ الخَصِيمُ

وقول بلعاء بن قيس الكنانى:

ألا أبلغ سُرَاقة يا ابن مالٍ ... فبئس مقالة الرَّجل الخطيبِ

وقول ملاطم الفزارى:

ذكرت برؤيتى حَمَل بن بدرٍ ... وصاحِبَه الألدَّ على الخطيبِ

وقول أوس بن حجر:

أمْ من يكون خطيب القوم إذ حَفَلوا ... لدى الملوك ذوى أيدٍ وأفضالِ؟

وقول عامر بن فَضَالة:

وهم يَدْعَمون القول فى كل محفلٍ ... بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما

وقول عامر المحاربي:

يَقُومُ فَلا يَعْيَا الكَلامَ خَطِيبُنا ... إذا الكَرْبُ أنْسَى الجِبْسَ أَنْ يَتَكَلَّما

وقول عمرو بن الإطنابة:

والقائلين فلا يعابُ خطيبُهم ... يومَ المقالةِ بالكلامِ الفاصلِ

وقول عمرو بن كلثوم:

وَأَبِي الَّذي حَمَلَ المِئينَ وَناطِقُ الـ ... مَعروفِ إِذْ عَيَّ الخَطيبُ المِفْصَلا

وقول أميمة بنت أمية:

وَكَم مِن ناطقٍ فيهم ... خَطيبٍ مِصْقَعٍ مُعْرِب

وقول زبان بن سيار الفزارى:

كُلُّ خَطيبٍ مِنهُمُ مَؤوفُ

ومعروف أن كل وفد من الوفود القبلية التى قَدِمَتْ على النبى فى المدينة فى العام التاسع للهجرة كان يضم بين أفراده خطباء يتكلمون باسم الوفد ويتبادلون الخطابة مع الرسول عليه السلام ومَنْ حوله من الصحابة، وهذا أيضا من الأدلة التى لا يمكن نقضها مهما سفسط الدكتور طه. وقد تعرض لذلك د. جواد على فى المجلد الرابع من كتابه: "المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" (فى الفصل الخاص بـ"النثر"، تحت عنوان "الخطابة")، إذ قال: "والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها، ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن أسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء. ثم إن خطب الرسول في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء هي دليل أيضا على وجود الخطابة بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين"، وإن كان من رأيه أن هناك خطبا جاهلية منحولة وأن نصوص الخطب الصحيحة لم تصل إلينا كما قيلت، بل دخلها التغيير بفعل الزمن وضعف الذاكرة البشرية، وبخاصة أن الخُطَب ليست كالشعر، أى ليس فيها وزن وقافية يساعدان على حفظها.

وعلى عكس ما يَهْرِف به طه حسين هنا على النحو الذى كان معروفًا عنه عند عودته من أوربا متصورا أنه قد حاز

العلم كله وأن القول ما قال المستشرقون، الذين كان يردد كلام من يشككون منهم فى تاريخ العرب وأمجادهم بعُجَره وبُجَره دون أن يتريث لحظة واحدة للتثبت مما يقوله هذا الصنف الموتور منهم، على عكس ذلك يؤكد أحمد حسن الزيات أن العرب، بنفوسهم الحساسة ونزوعهم إلى الحرية والاستقلال وميلهم إلى الفخار وما كانوا يتَّسمون به من غيرةٍ ومسارعةٍ للنجدة وبلاغةٍ فى القول وذَلاَقةٍ فى اللسان وما عرفوه من الوفود والسفارات، كانوا مهيئين للتفوق فى ميدان الخطابة، مبينا أن خطبهم كانت تتسم بالقِصَر والسجع حتى تَعْلَق بالذهن عُلُوقًا سهلاً (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ ١٩). وبالمثل يقرر د. على الجندى بحقٍّ أنه قد "ثبت أن (العرب) كانوا يخطبون فى مناسبات شتى: فبالخطابة كانوا يحرِّضون على القتال استثارةً للهمم وشَحْذًا للعزائم، وبها كانوا يحثّون على شن الغارات حُبًّا للغنيمة أو بَثًّا للحميّة رغبةً فى الأخذ بالثأر، وبالخطابة كانوا يدعون للسلم حقنًا للدماء ومحافظةً على أواصر القربى أو المودة والصلة، ويحبّبون فى الخير والتصافى والتآخى، ويبغّضون فى الشر والتباغض والتنابذ، وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصلح بين المتنافرين أو المتنازعين، ويؤدون مهامّ السفارات جَلْبًا لمنفعة أو دَرْءًا لبلاء أو تهنئةً بنعمة أو تعزيةً أو مواساةً فى مصيبة، فوق ما كانت

الخطابة تؤديه فى المصاهرات، فتُلْقَى الخطب ربطًا لأواصر الصلة بين العشائر وتحبيب المتصاهرين بعضهم فى بعض" (د. على الجندى/ فى تاريخ الأدب الجاهلى/ ٢٦٤- ٢٦٥). وعلى هذا الرأى أيضا نجد د. أحمد الحوفى، الذى يسارع مع هذا إلى الاستدراك بأن العرب، بخلاف ما كان الحال عليه لدى الرومان واليونان، لم يكونوا يُعِدّون خطبهم قبل إلقائها، بل كانوا يعتمدون على الارتجال والبديهة، ومن هنا جاءت خُطَبهم لُمَعًا بارقةً دون تفصيل أو تخطيط (أحمد محمد الحوفى/ فن الخطابة/ مكتبة نهضة مصر/ ١٥٠- ١٥١). أما السباعى بيومى فيرى أن خطباء العرب كانوا يحفلون بخطبهم أيما حُفُول، "فيتخيرون لها من المعانى أشرفها، ومن الألفاظ أفصحها، لتكون أشدّ وقعًا على النفوس وأبعد تأثيرا فى القلوب وأيقظ للهمم وأحثّ على العمل" (تاريخ الأدب العربى- ج ١ فى العصر الجاهلى/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ٩٧). ومن قَبْلُ سَرَدَ ابن وهب الموضوعات التى كانت تدور عليها الخطب آنذاك قائلا إن "الخطب تستعمل فى إصلاح ذات البين وإطفاء نائرة الحرب (أى نارها وشرها) وحِمَالة الدماء والتسديد للملك والتأكيد للعهد وفى عقد الإملاك (أى الزواج) وفى الدعاء إلى الله عز وجل وفى الإشادة بالمناقب (الأعمال الجليلة) ولكل ما أُرِيدَ

ذكره ونشره وشهرته بين الناس" (ابن وهب/ البرهان فى وجوه البيان/ تحقيق حفنى شرف/ مطبعة الرسالة/ ١٩٦٩م/ ١٥٠).

أما د. شوقى ضيف فيسلك سبيلا مخالفة للفريقين جميعا، إذ بينما نراه يؤكد وجود الخطابة والخطباء فى الجاهلية وتوفُّر العوامل السياسية والدينية والاجتماعية التى تكفل لها الازدهار، إذ به يشك فى كل ما وصلنا تقريبا عن ذلك العصر من خُطَب. والسبب فى هذا الشك لديه هو بعد الشقة الزمنية بين العصر الجاهلى وعصر التدوين أيام العباسيين. ومع ذلك نجده يقول إن من زيفوا نصوص الخطب الجاهلية كانوا بلا شك يعتمدون على نصوص جاهلية صحيحة وضعوها أمامهم واحتذَوْها. وعلى هذا فإذا وجدنا أن كثيرا من الخطب والمفاخرات والمنافرات التى تُنسَب إليهم مجوَّدة مسجوعة مثلا فمعنى هذا أنهم فى الجاهلية كانوا يجوّدون ويَسْجَعون فى خُطَبهم ومفاخراتهم ومنافراتهم فعلا (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ٤١٠- ٤١٩، والفن ومذاهبه فى النثر العربى/ ط٧/ دار المعارف/ ١٩٧٤م/ ٣٣- ٣٨).

إلا أننا، مع احترامنا للأستاذ الدكتور وتقديرنا للفصلين اللذين كَسَرهما لهذا الموضوع فى كتابيه المشارْ إليهما وما فيهما من علم وتحليل، لا نستطيع أن نسلّم بما يقول على عِلاّته، إذ لا معنى لكلامه هذا إلا أنه قد وصلت فعلا إلى مخترعى الخطب

الجاهلية نصوصٌ صحيحةٌ منها قاسُوا عليها ما صنعوه ونسبوه إلى الجاهليين، فلماذا رَمَوْها خلف ظهورهم واكتفَوْا بما اخترعوه رغم تَيَح الأصل لهم؟ وإذا كانوا لأمر ما غَيْرِ مفهوم قد أقدموا على هذا الصنيع الأخرق فكيف لم يُتَحْ لهذه النصوص الصحيحة من يعرف لها قدرها ويحفظها من الضياع؟ وقبل ذلك مَنْ قال إن بُعْد الزمن ما بين الجاهلية وعهد التدوين كفيل بإنساء العربى تراث آبائه وأجداده؟ لقد عُرِف العربى بذاكرته القوية وحرصه على تاريخه وأدبه واعتزازه بالكلمة الفنية التى ينتجها نثرا كانت أو شعرا، وقيام حياته الثقافية على الحفظ والرواية والتمثل المستمر بنتاج قرائح الشعراء والمتكلمين بحيث كان من الصعب أشد الصعوبة انتساخ تراثه القولى. فإذا أضفنا أن كثيرا من خطبهم فى الجاهلية كان مسجَّعًا مجنَّسًا مُرَاعًى فيه الموازنة وقِصَر الجمل، فضلا عن قِصَر الخُطَب نفسها تبين لنا أن حفظ مثل هذا النتاج الأدبى لم يكن بالمهمة الشديدة الصعوبة، بَلْهَ المستحيلة، كما يتخيل البعض منا قياسا على ما يَخبُرونه من الذاكرة العربية الحالية، وهى ذاكرة لا تتمتع بما كانت تتمتع به سليفتها الجاهلية من حِدّة ودِقّة، مثلما لا يتمتع أصحابها بما كان يتمتع به نظراؤهم أوانذاك من اهتمام فائق بالكلمة المشعورة والمنثورة رغم تصورنا العكس اعتمادا على ظواهر الحال المضلّلة. ولا ننس

أيضا أن العقل الجاهلى لم يكن ينوء بما ننوء به الآن مشاغل ومتاعب يصرفنا صرفا عن الحفظ والاهتمام برواية الأشعار والخطب على النحو الذى كان عليه الوضع فى العصر الجاهلى. وفوق هذا فإن الأُمِّيَة التى كانت تَسِم مجتمَعهم بوجه عام قد دفعتهم دفعا إلى الاستعمال المكثف والمستمر للذاكرة بما يجعلها ناشطة نشاطا لا نعرفه الآن. وعلى كل حال فقد قال الأستاذ الدكتور أيضا، كما رأينا، إن الذين اخترعوا الخُطَب ونسبوها للجاهليين قد قاسُوها على ما وصلهم من خطب جاهلية حقيقية، أى أن بُعْد الزمن لم يكن له ذلك التأثير الذى عزاه إليه وعلَّل به شكه فى صحة خطب الجاهلية التى بلغتنا. الواقع أن آخِر كلامه يَنْقُض أوّله بكل أسف! بَيْدَ أن قولنا بقدرة الذاكرة العربية على تأدية المحفوظ من نصوص الخطابة الجاهلية شيء، والزعم بأنها قد أدته على وجهه لم تَخْرِم منه شيئا، فلم تضف إليه ما ليس منه ولم تنقص منه ما كان فيه ولم تبدل بعض ألفاظه وعباراته أو معانيه ومضامينه، هو شيء آخر مختلف، فالذاكرة البشرية، ككل شيء فى عالم البشر، عرضة للسهو والكلال والالتباس. ودعنا من النصوص التى زُيِّفَتْ تزييفًا واختُرِعَتْ اختراعًا مما سنتناوله بشيء من التفصيل فيما يلى حينما نقف عند طائفة من النصوص الخطابية التى ليست قَمِينَةً فى نظرنا بالقبول والاطمئنان.

ومن هذه الخُطَب المنسوبة للجاهلية التى يصعب علينا القول بجاهليتها تلك الخطب التى يُفتَرَض أن أصحابها يتنبأون فيها بمجىء "محمد" عليه الصلاة والسلام، إذ السؤال هو: من أين لأصحابها هذا العلم بالغيب؟ إن الغيب هو من شأن الله سبحانه وتعالى وحده لا يعلمه أحد سواه. يقول بهذا القرآنُ والحديثُ وينطق به العقلُ والمنطقُ. ولو أن الذين قالوا هذا كانوا يهودا أو نصارى لقلنا: ربما قرأوه فى كتبهم. لكنهم لم يكونوا هُودًا ولا نصارى، فأنَّى لهم ذلك؟ وحتى لو كانوا من أهل الكتاب فإن الذى فى القرآن أن عيسى قد بشَّر برسول يأتى من بعده اسمه "أحمد" (الصف/ ٦)، على حين أن اسم النبى فى هذه الخُطَب هو "محمد"! ليس ذلك فحسب، بل هناك أسئلة أخرى لا نستطيع الإجابة عليها لو قبلنا صحة هذه الخُطَب، وهى: لو أن ما جاء فى تلك الأحاديث صحيح تاريخيا، فكيف لم يحاجج النبى به قومه فيقول لهم مثلا: لقد سبق أن سمعتم بأن هناك نبيا من قريش سوف يظهر، اسمه محمد، فكيف تكفرون بى بعد أن قال كهّانكم أنفسهم ذلك قبل ولادتى؟ لكننا ننظر فى كلامه صلى الله عليه وسلم وفى القرآن الكريم فلا نجد أثرا لمثل هذه الحجة التى كان من شأنها أن تعضد موقفه عليه السلام أيما تعضيد! كذلك فبعض هذه الخُطَب قد نُسِبَ لكعب بن لُؤَىّ جد النبى البعيد، ولو كان

هذا صحيحا فكيف لم يذكّر عليه السلام أهل بيتـه الـذين كفـروا به كعمه أبي لهب مثلا أو عمه أبي طالب بمـا قالـه جـدهم، ونحـن نعرف أن الجاهليين كانوا يتمسكون أشد التمسك بمـا كـان عليـه الآباء والأجداد كما تبدّى فى ردّ الأخير فيمـا يـروون عنـه عنـد موته، إذ اعتذر عن الدخول فى دعوة محمـد علـى أسـاس أنـه لا يحب المخالفة عن دين آبائه؟ وعلى هذا فإننا نقـف مرتـابين أشـد الريبة إزاء الخطبة التالية الـتى ينسـبونها لجـد الـنبى ذاك، والـتى يقول فيها: "اسمعوا وعُوا، وتعلّمـوا تَعْلَمـوا، و تفهَّمـوا تَفْهَمـوا. ليـلٌ سـاجٍ، ونهـارٌ صـاحٍ، والأرض مهـاد، والجبـال أوتـاد، والأولون كالآخرين، كـل ذلـك إلى بـلاء. فَصِـلُوا أرحـامكم وأصلحوا أحوالكم، فهل رأيتم من هلـك رجـع، أو ميِّتًـا نُشِـر؟ الدار أمامكم، والظـن خـلاف مـا تقولـون. زَيِّنُـوا حَـرَمكم وعظِّموه، وتمسكوا بـه ولا تفـارقوه، فسـيأتِي لـه نبـأ عظـيم، وسيخرج منه نبي كريم.

نهـارٌ وليـلٌ واختلاف حـوادثٍ ... سواءٌ علينا حُلْوها ومَرِيرُهـا

يـؤوبان بالأحـداث حتى تأوَّبـا ... وبالنِّعَم الضـافي علينا سُتُورُها

يـؤوبان بالأحـداث حتى تـأوَّبا ... لها عُقَدٌ ما يستحيل مَرِيـرُها

على غفـلة يـأتِي النبي محمـدٌ ... فيُخبِر أخبارًا صَدُوقًا خبيرُهـا

***

يا ليتني شـاهد فَحْـواءَ دعوتـه ... حين العشيرةُ تبغي الحقَّ خذلانا"

وهذه الخطبة، فوق ذلك، تحتوى على أشياء أخرى تدفعنا إلى مزيد من التشكك فيها، منها أن العبارة التى يتمنى فيها كعب أن يكون حَيًّا عند ظهور محمد تذكّرنا بما قاله فى نفس المعنى ورقة بن نوفل، الذى كان هناك سبب وجيه لكلامه هذا، ألا وهو أنه كان يخاطب النبى عليه السلام، فمن الطبيعى أن يتمنى مثل هذه الأمنية، إذ ها هو ذا النبى الموعود واقفا أمامه يجاذبه أطراف الحديث حول ما رآه فى الغار عند ظهور جبريل له، فيجد من واجبه الإنسانى على الأقل أن يبصِّره بما ينتظره من متاعب عند بدء الدعوة الفعلية ويُظْهِر له تعضيده ويرفع من روحه المعنوية. أما كعب فكانت بينه وبين النبى الذى يتحدث عنه من الزمن ما لا معنى معه لما قال. وفضلا عن ذلك فمِيسَم القرآن الكريم واضح وضوحا كبيرا فى خطبته أسلوبًا ومعنًى كما فى قوله: "والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين... فسيأتِي له نبأٌ عظيم، وسيخرج منه نبيٌّ كريم"، وهو ما يذكّرنا بقوله تعالى: "ألم نجعل الأرض مهادا* والجبال أوتادا*...؟" (النبأ/ ٧)، "قل: إن الأوّلين والآخِرين* لمجموعون إلى ميقات يومٍ معلوم" (الواقعة/ ٤٩– ٥٠)، "قل: هو نبأٌ عظيم" (ص/ ٦٧)، ""ولقد فتنّا قبلهم قومَ فرعون وجاءهم رسولٌ كريم" (الدخان/ ١٧). ولو كان كعب قال ذلك فعلاً لكان حُجَّةً للمشركين يشهرونها بكل بساطة وشماتة

فى وجهه صلى الله عليه وسلم قائلين له: ما بالك تأخذ كلام جدّك وتدَّعِي أنه من وحى السماء؟ ثم ما معنى نصحه إياهم أن يتمسكوا بالبيت الحرام ولا يفارقوه؟ هل سمع أحد أن قريشا فكرت يوما فى شيء من هذا القبيل، وهى التى لم يكن لها شرف فى العرب إلا شرف القيام على أمر البيت الحرام؟ وبالمناسبة لماذا لم يعرِّج كعبٌ على الأوثان التى كانت فى بيت الله فيزجر قومه عن عبادتها وتقديسها ما دام يتحدث بهذا السرور والإيمان عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ والطريف أن أحدا من سامعيه لم يخطر له أن يستفسر منه عمن يكون محمد هذا، أو يستغرب ظهور نبى من العرب أصلا. بل إنه لمن الواضح أن كعبا، حسب الخطبة التى طالعناها لتونا، لم يكن يدور فى باله أن محمدا هذا لن يكون أحدا آخر غير حفيد من أحفاده سيولد بعد عدة أجيال!

وعلى نفس الشاكلة تجرى الأحاديث التالية المنسوبة إلى خُنَافر بن التوأم الحِمْيَري وشافع بن كُلَيْب الصدفي وسَطِيح الذئبي وشِقّ أنمار وعُفَيْراء الكاهنة على التوالى:

١- حديث خنافر بن التوأم الحِمْيَرِيّ مع رَئِيّه شَصَار:

"كان خُنَافر بن التوأم الحميري كاهنا، وكان قد أُوتِيَ بسطة في الجسم وسَعة في المال، وكان عاتيا. فلما وفدتْ وفود اليمن على النبي وظَهَر الإسلام أغار على إبلٍ لِمُرَاد فاكتسحها،

وخرج بأهله وماله ولحق بالشِّحْر، فخالف جَوْدان بن يحيى الفِرْضِمي، وكان سيدا منيعا، ونزل بواد من أودية الشِّحْر مُخْصِبًا كثير الشجر من الأيك والعَرِين. قال خنافر: وكان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عني، فلما شاع الإسلام فقدتُه مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائما إذ هَوَى (انحدر فى الجوّ) هُوِيَّ العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدةٍ نهاية، وكلُّ ذي أمدٍ إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولةٍ إلى أجل، ثم يتاح لها حِوَل. انتُسِخت النِّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَجِيرٌ (أى صديق) موصول، والنصح لك مبذول، وإني آنستُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُذَّام (يقصد قبيلة من الجن)، حكّاما على الحكّام، يَذْبُرون (يقرأون) ذا رونق من الكلام، ليس بالشِّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلَّف، فأصغيتُ فزُجِرْتُ، فعاودتُ فظُلِفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بِمَ تُهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَدَر، ابتُعِث فظهر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأَوْضَحَ نَهْجًا قد دَثَر، فيه مواعظ لمن اعتبر، ومَعَاذٌ لمن ازدجر، أُلِّف بالآيِ

الكُبَر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطيتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْليتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنَافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، وشايِعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإِحَرِّين، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين. قلت: أَوْضِحْ. قال: الْحَقْ بيثربَ ذات النخل، والحَرّة ذات النعل، فهناك أهل الطَّوْل والفضل، والمواساة والبذل. ثم امَّلَسَ عنى، فبِتُّ مذعورا أراعي الصباح. فلما برق لي النور امتطيتُ راحلتي وآذنتُ أَعْبُدِي واحتملتُ بأهلي حتى وردتُ الجوف، فرددتُ الإبل على أربابها بحَوْلها وسِقَابها (أى بجِمَالها ونُوقها. جَمْع: "حائل" و"سَقْب") وأقبلتُ أريد صنعاء، فأصبت بها معاذ بن جبل أميرا لرسول الله فبايعته على الإسلام، وعلّمني سورا من القرآن، فمنّ الله علي بالهدى بعد الضلالة والعلم بعد الجهالة".

٢- شافع بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ يتكهن بظهور النبي: "قَدِمَ على تُبَّعِ الآخِر ملكِ اليمن قبل خروجه لقتال المدينة شافعُ بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ، وكان كاهنا، فقال له تُبَّع: هل تجد لقومٍ مُلْكًا يوازي مُلْكي؟ قال: لا، إلا مُلْك غسان. قال: فهل تجد مُلْكًا يزيد عليه؟ قال: أجده لبارٍّ مبرور، ورائدٍ بالقُهُور، ووُصِفَ في الزَّبُور، فُضِّلَتْ أمته في السفور، يفرِّج الظُّلَم بالنور، أحمد

النبي، طوبى لأمته حين يجي، أحد بني لُـؤَيّ، ثم أحـد بـني قُصَـيّ.
فنظر تُبّع في الزبور، فإذا هو يجد صفة النبي".

٣- سَطِيحٌ النبي يَعبّر رؤيا ربيعة بـن نصـر اللَّخْمـيّ:

"رأى ربيعةُ بن نصر اللَّخْميّ ملكُ اليمن، وقـد مَلَـكَ بعـد تُبّـعٍ الآخَر، رؤيا هالته فلـم يَـدَعْ كاهنـا ولا سـاحرا ولا عائفـا ولا متجِّما من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقـال لهـم: إني قـد رأيـت رؤيا هالتني وفَظِعْتُ بها، فـأخبِروني بهـا وبتأويلـها. قـالوا لـه: اقصصها علينا نخـبرك بتأويلـها. قـال: إني إن أخـبرتكم بهـا لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، فإنـه لا يعـرف تأويلـها إلا مـن عرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منـهم: فـإن كـان الملـك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيحٍ وشِقّ، فإنه ليس أحـدٌ أعلـمَ منـهما فيها، يخبرانه بما سأل عنه. فبعث إليهما فقَـدِمَ عليـه سَـطِيحٌ قبـل شِقّ، فقال له: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفَظِعْتُ بهـا فـأخبِرْني بهـا، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلـها. قـال: أفعـل. رأيـتَ حُمَمَـة، خرجتْ من ظُلْمة، فوقعت بأرض تَهَمَة، فأكلـتْ منـها كـل ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأتَ منها شـيئا يـا سـطيح، فمـا عندك في تأويلها؟ فقال: أحلف بما بـين الـحَرَّتَين مـن حَنَش، لَيَهْبِطَنَّ أرضَكم الحَبَش، فليملكُنَّ ما بين أَبْـيَنَ إلى جُـرَش. فقـال له الملك: وأبيك يا سطيح إن هذا لنا لغـائظٌ مُوجِـع، فمـتى هـو كائن؟ أفي زماني هذا أم بعده؟ قال: لا بل بعده بحـين، أكثـر مـن

ستين أو سبعين يمضين من السنين. قال: أفَيدُوم ذلك من مُلْكهم أم ينقطع؟ قال: لا بل ينقطع لبضعٍ وسبعين من السنين ثم يُقْتَلون بها أجمعين، ويخرجون منها هاربين. قال: ومن يلي ذلك مِنْ قَتْلهم وإخراجهم؟ قال: يليه إرَم ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحدا منهم باليمن. قال: أفَيدُوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبيٌّ زكيّ، يأتيه الوحي من قِبَل العَلِيّ. قال: وممن هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر، يكون المُلْك في قومه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم. يومٌ يُجْمَع فيه الأولون والآخِرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون. قال: أحقٌّ ما تخبرنا يا سطيح؟ قال: نعم، والشَّفَق والغَسَق والفَلَق إذا انشقّ، إن ما أنبأتك به لَحَقّ".

٤- شِقّ أنمار يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا: "ثم قدم عليه شِقٌّ فقال له كقوله لسطيح، وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان. قال: نعم رأيت حُمَمَة، خرجت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكمة، فأكلتْ منها كل ذات نَسَمة. فلما سمع الملك ذلك قال: ما أخطأتَ يا شِقُّ منها شيئا، فما عندك في تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحَرّتين من إنسان، لَينزلَنّ أرضَكم السودان، فلَيغلبُنّ على كل طَفْلَة البَنان، ولَيملكُنَ ما

بين أَبْيَن إلى نجران. فقال له الملك: وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ قال: لا، بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان، ويذيقهم أشد الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال غلام ليس بِدَنِيٍّ ولا مُدَنٍّ، يخرج عليهم من بيت ذي يَزَن. قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسولٍ مرسَل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون المُلْك في قومه إلى يوم الفَصْل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يومٌ تُجزَى فيه الولاة، يُدْعَى فيه من السماء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجْمَع فيه بين الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات. قال: أحَقٌّ ما تقول؟ قال: إي ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأتك به لَحَقٌّ ما فيه أَمْض. فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا، فجهَز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يُصْلِحهم، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له: سابور، فأسكنهم بالحيرة. فمِنْ بقية ولده النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر".

٥- وفود عبد المسيح بن بُقَيْلَة على سَطِيح: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "لما كان ليلةُ وُلِد النبي ارتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل

مملكته، فما كان أَوْشَكَ أنْ كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره (أى عرشه) وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال المُوبَذَان: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني. قال له: وما رأيتَ؟ قال: رأيتُ إبلاً صِعَابًا، تقود خيلا عِرَابًا، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا. قال: رأيتَ عظيما، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكنْ أَرْسِلْ إلى عاملك بالحِيرة يوجِّه إليك رجلا من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان. فبعث إليه عبدَ المسيح بن بُقَيْلَة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهِّزْني إلى خال لي بالشام يقال له: سطيح. قال: جهِّزوه. فلما قدم إلى سطيح وجده قد احْتُضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليمنْ؟ يا فاضل الخطة أَعْيَتْ مَنْ ومَنْ؟
أتاك شيخ الحي من آل سَنَنْ أبيض فضفاض الرداء والبدنْ
رسول قَيْل العجْم يَهْوِى للوثن لا يرهب الرَّعْد ولا رَيْب الزمنْ

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفي على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان. رأى إبلاً صِعَابًا، تقود خيلاً عِرَابًا، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقَاما، ولا الشام لسطيحٍ شاما. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قال:

إن كان ملك بني ساسان أفرطهم ... فإن ذا الدهرَ أطوارًا دهاريرُ
منهم بنو الصرح بهرامٌ وإخوته ... والهرمزان وسابورٌ وسابورُ
فربما أصبحوا يوما بمنزلةٍ ... تهاب صَوْلَهم الأُسْدُ المهاصيرُ
حَثوا المَطِيَّ وجَدّوا في رِحالهمو ... فما يقوم لهم سرجٌ ولا كُورُ
والناس أولاد عَلاَتٍ، فمَنْ عَلِموا ... أَنْ قد أَقلَّ فمحقورٌ ومهجورُ
والخير والشر مقرونان في قَرَنٍ ... فالخير متّبعٌ، والشر محذورُ

ثم أتى كسرى فأخبره بما قاله سطيح، فغمَّه ذلك ثم تَعَزَّى فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا يدور الزمان. فهلكوا كلهم في أربعين سنة، وكان آخر من هلك منهم في أول خلافة عثمان رضي الله عنه".

٦- عُفَيْراء الكاهنة تَعبُّر رؤيا مَرْثَد بن عبد كُلاَل:

"رُوِيَ أن مَرْثَد بن عبد كُلاَل قَفَلَ من غزاةٍ غزاها بغنائم عظيمة، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعَهم عطاء واشتد سروره بهم. فبينما هو كذلك إذ نام يوما فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرته وهالتْه في حال منامه، فلما انتبه أُنْسِيَها حتى لم يذكر منها شيئا وثَبَتَ ارتياعُه في نفسه بها، فانقلب سروره حزنا واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن. ثم إنه حَشَرَ الكهان فجعل يخلو بكاهن كاهن، ثم يقول له: أخبرني عما أريد أن أسألك عنه، فيجيبه الكاهن بأنْ لا عِلْم عندي، حتى لم يَدَعْ كاهنًا عَلِمَه إلا كان إليه منه ذلك، فتضاعف قلقه، وطال أرقه. وكانت أمه قد تكهنت، فقالت له: أَبَيْتَ اللعن أيها الملك! إن الكواهن أَهْدَى إلى ما تسأل عنه لأن أتباع الكواهن من الجانّ، ألطف وأظرف من أتباع الكهان. فأمر بحشر الكواهن إليه وسألهن كما سأل الكهان، فلم يجد عند واحدة منهن علما مما أراد علمه. ولما يئس من طَلِبَته سلا عنها. ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل في طلب الصيد وانفرد عن أصحابه فرُفِعَتْ له أبيات من ذَرَا جبل (أى فى ظل جبل). وكان قد لفحه الهجير فعدل إلى الأبيات وقصد بيتا منها كان منفردا عنها، فبرزت إليه منه عجوز فقالت له: انزل بالرُّحْب والسَّعَة،

والأمن والدعة، والجفنة المُدَعْدَعَة (الممتلئة عن آخرها)، والغُلْبة المُترَعة. فترل عن جواده ودخل البيت. فلما احتجب عن الشمس وخَفَقَتْ عليه الأرواح (أى النسائم) نام فلم يستيقظ حتى تصرَّم الهجير، فجلس يمسح عينيه، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثلها قَوَاما ولا جمالا، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك الهمام، هل لك في الطعام؟ فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لَمّا رأى أنها عرفته، وتصامَّ عن كلمتها، فقالت له: لا حَذَر، فداك البشر، فجَدُّك (حظّك) الأكبر، وحظنا بك الأوفر. ثم قَرَّبَتْ إليه ثَرِيدًا وقَدِيدًا وحَيْسًا، وقامت تذُبّ عنه حتى انتهى أكله، ثم سقته لبنا صَرِيفًا وضَرِيبًا، فشرب ما شاء وجعل يتأملها مقبلةً ومدبرةً، فملأت عينيه حُسْنًا، وقَلْبَه هَوًى، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمي عُفَيْرَاء. فقال لها: يا عفيراء، من الذي دَعَوْتِه بالمَلِك الهمام؟ قالت: مَرْثَد العظيم الشان، حاشر الكواهن والكهّان، لمعضلةٍ بَعُدَ عنها الجان. فقال: يا عفيراء، أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت: أجل أيها الملك. إنها رؤيا منام، ليست بأضغاث أحلام. قال الملك: أَصَبْتِ يا عفيراء، فما تلك الرؤيا؟ قالت: رأيتَ أعاصير زوابع، بعضها لبعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع، وسمعتَ فيما أنت سامع، دعاء ذي جَرْسٍ صادع: هلموا إلى المشارع، فرَوِيَ جارِع، وغَرِقَ كارِع. فقال الملك: أَجَلْ، هذه رؤياي،

فما تأويلها يا عفيراء؟ قالت: الأعاصير الزوابع ملوكٌ تَبَابِع، والنهر عِلْمٌ واسع، والداعي نبيٌّ شافع، والجارع وليٌّ تابع، والكارع عدوٌّ منازع. فقال الملك: يا عفيراء، أَسِلْمٌ هذا النبي أم حَرْب؟ فقالت: أُقْسِم برافع السماء، ومُنْزِل الماء، من العَمَاء، إنه لَمُطِلّ الدماء، ومُنَطِّق العقائل نُطُقَ الإماء. فقال الملك: إلامَ يدعو يا عفيراء؟ قالت: إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام، واجتناب آثام. فقال الملك: يا عفيراء، إذا ذبح قومه فمَنْ أعضاده؟ قالت: أعضاده غطاريفُ يمانون، طائرهم به ميمون، يُغْزِيهم فيغزون، ويدمِّث بهم الحُزُون، وإلى نصره يعتزُون. فأطرق الملك يؤامر نفسه في خِطْبتها، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك! إن تابعي غيور، ولأمرى صبور، وناكحي مثبور، والكَلَف بي ثُبُور. فنهض الملك وجال في صهوة جواده، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقةٍ كَوْماء".

ونبدأ بحديث خنافر، وفى هذا الحديث نلاحظ ما يلى: أن رَئِيّ خنافر قد تركه فى عمايته فلم يعلمه بأن نبيا جديدا ظهر بدعوته فى بلاد العرب، إلى أن أصبح الناس فى تلك البلاد كلهم يعلمون ذلك، اللهم إلا خنافرا. فعندئذ، وعندئذ فقط، تذكر شَصَارُ صاحبَه الكاهن المسكين النائم على أذنه لا يدرى خبر الإسلام رغم أن نوره كان قد دخل اليمن وأضحى لدولته

فيها رسولٌ من لدن النبى الكريم هو معـاذ بـن جبـل رضـى الله عنه. ترى ما دور شصار إذن إذا لم يكن مـا أنبـأ بـه خنـافرًا إلا خبرا يعرفه القاصى والدانى؟ إن معنى هذا أن شـيطان خنـافر قـد هجره هجرا غير جميل طَوَال ما يقـرب مـن عشـرين سـنة، أى منذ بدء النبوة إلى وقت دخول الإسلام الـيمن فى أواخـر حياتـه صلى الله عليه وسلم، فكيف كـان خنـافر يمـارس كهانتـه إذن دون رَئِىٍّ من الجن؟ أم تـراه توقـف عـن ممارسـتها كـل تلـك الفترة؟ لكن هل يمكن أن يكون ذلك؟ وهـل يمكـن أن يسـتعيض كاهن عن كهانته بالسرقة والإغارة على إبـل الآخـرين، وبخاصـةٍ أن خنافرا لم يكن، كما هو بَيِّنٌ من القصـة، ذا عـزوة تمنعـه مـن طلب القبائل المعتدَى عليها وعملـها علـى الثـأر منـه؟ كـذلك ليس هناك سبب مفهوم لهجر شَصَار لصـاحبه كـل تلـك المـدة، وهذه ثُغْرَة فى القصة تحتاج إلى ما يملؤها. كما أن تهديـده لـه بأنـه إذا لم يعتنق الإسلام مثله فلن يراه مرة أخرى هـو تهديـد لا معـنى له، لأن معنى هذا التهديـد أن شَصَـار لـن يسـاعد خُنَـافِرًا فى كهانته، مع أننا نعرف جيدا أن الإسلام يكفّـر الكهـان ويحـاربهم دون هوادة، وهو ما يعنى بكـل وضـوح أن اللقـاء بينـهما مـن الآن فصاعدا سيكون لقاء مجرَّما ومحرَّما أشـد التجـريم والتحـريم، وهذا إن قَبِلَ الجنى أن يقـوم بـدوره القـديم المنـاقض لعقيدتـه الجديدة التى يدعو إليها خنافرا! فكما ترى هـذه ثُغْـرَة أخـرى فى

القصة يصعب بل يستحيل سَـدّها. ثم أليست القصة تريد أن تقول إن شصار قد أتاه بخبر الغيب، فأى غيب هذا الذى كان يعرفه الجميع فى أرجاء الجزيرة الأربعة؟ بل لماذا لم يعرف شصار بدوره بنبيا الإسلام إلا من إخوان له من الجن كانوا قد آمنوا قبله؟ ولماذا يا ترى كانوا يزجرونه عن سماع القرآن الذى كانوا يتلونه؟ ألم يأت القرآن لهداية الجن والإنس؟ فهل مما يتناسب مع هذه الغاية أن يُزْجَر عنه من يريد سماعه؟ فكيف يعرف إذن ما جاء فيه من هدى ونور؟ إن سورة "الجن" والآيات ٢٩- ٣٢ من سورة "الأحقاف" تحدثاننا عن سماع نفر من الجن للقرآن من الرسول عليه السلام دون أن يزجرهم زاجر، فلماذا جرى الأمر فى قصتنا هذه على خلاف ذلك؟ ولماذا كان هؤلاء النفر من الجن من أهل الشام لا من أهل اليمن؟ أترى القصة تريد أن تقول إن "الشيخ البعيد سره باتع"؟ أم تريد أن تجرى على سُنّة المثل القائل: "من أين أذنك يا جحا؟"؟ كذلك ألم ينصح شَصَارُ لخنافر بأن يأتى النبىَّ فى المدينة؟ فلماذا اكتفى خُنَافِرُنا بلقاء مُعَاذ بن جبل بعد كل هذا الكلام المشوِّق لرؤية النبى الكريم؟ يا له من كاهن كسول! بل لماذا أراد صنعاءَ من الأصل، ولم يأت لها ذكر فى الحوار بينه وبين رَئِيّه؟

ثم إذا كان الأمر على ما ترويه القصة، فهل كان خبر خنافر لِيغيب عن كُتُب الحديث؟ كذلك لو كان ما قرأناه هنا صحيحا لقد كان خبر ذلك الكاهن اليمنى سلاحا بتارا فى الدعاية لهذا الدين، فلماذا لم يستغله المسلمون؟ صحيح أنه إنما أسلم، كما رأينا، بأُخَرة، لكن لا شك أن خبره كان يمكن أن يكون ذا نفع جزيل فى معركة الدعاية بحيث يسهِّل إنجاز المهمة الباقية، وهى القضاء على فلول الوثنية فى بلاد العرب، تلك الوثنية التى لم تكن قد خمدت تماما حتى بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وانفجرت متخذةً شكل رِدَّةٍ مستطيرة. ثم مصطلح "السجع المتكلَّف"، هذا المصطلح البلاغى الذى لم يعرفه العرب قبل عصر الازدهار الثقافى فى العصر العباسى، من أين يا ترى للعرب الجاهليين بمعرفته؟ بل إن فى الخطبة سجعا متكلَّفا لا قِبَل للجاهليين به كما هو واضح فى المثال التالى: "خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار"، علاوة على هذه البهلوانية البلاغية الفنية الجميلة المتمثلة فى هاتين الجملتين اللتين تبادلهما الكاهن والجنى: "قال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ" والتى يصعب علىّ أن أتصورها من شِيَم الأدب الجاهلى. ليس ذلك فحسب، فهذا الكلام المنسوب لجن، هل يمكن أن نصدقه؟ إن الجن عالم خفىٌّ لا نعرف نحن

البشر عنه شيئا سوى ما جاء فى الوحى كما هو الحال فيما أنبأنا به رب العزة من كلامهم عندما استمعت طائفة منهم إلى القرآن الكريم لأول مرة، أما ما عدا هذا فأنا لا أستطيع أن أهضم شيئا منه كما هو الحال هنا، وبخاصة أنه كلام عربى، فهل الجن يتحدثون العربية، ويصطنعون السَّجْع والجِنَاس وسائر المحسِّنات البديعية أيضا؟ وبطبيعة الحال لا يمكن القول بأنهم فى سُورَتَىِ "الأحقاف" و"الجن" قد استخدموا كذلك لسان بنى يعرب، إذ الواقع أن ما نقرؤه هناك من كلامهم إنما هو ترجمة لما قالوه بلغتهم التى لا ندرى نحن البشر عنها شيئا.

على أن القضية لَمّا تنته عند هذا الحد، إذ نقرأ قوله: "كان رَئِيِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عنى، فلما شاع الإسلام فقدتُه مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائما إذ هَوَى هُوِيَّ العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدة نهاية، وكل ذي أمد إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولة إلى أَجَل، ثم يتاح لها حِوَل. انتُسِخت النِّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَجِيرٌ (أى صديقٌ) موصول، والنصح لك مبذول، وإني آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُذَّام (يقصد أنه قابل قبيلة من الجن)، حُكّامًا على الحُكّام، يَذْبُرون ذا رونقٍ من الكلام، ليس بالشِّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلَّف، فأصغيتُ

فزُجِرْتُ، فعاودتُ فظُلِفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بِمَ تُهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَدَر، ابتُعِث فظهر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأوضحَ نهجًا قد دَثَر، فيه مواعظُ لمن اعتبر، ومعاذٌ لمن ازدجر، أُلِّف بالآى الكُبَر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطِيتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنَافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، وشايِعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإِحَرِّين (أى الحجارة السُّود)، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين". ومعنى هذا الكلام أن خنافرا، كما هو واضح من مفتتح حديثه، كان يعرف بمجىء الإسلام منذ البداية، لكننا نفاجأ، من خلال أسئلته عن الدين الجديد والرسول الذى جاء به والكتاب الذى نزل عليه، بأنه لم يكن يعرف شيئا من ذلك بالمرة. فكيف يسوغ فى العقل هذا؟

ولقد تصادف، بعد كتابة هذه الملاحظات بأيام، أن كنت أقرأ ما كتبه الدكتور جواد على عن سجع الكهان فى كتابه: "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام"، فوجدته يقول

عن هذه القصة إنها "خبر يرجع سنده إلى ابن الكلبي. وقد ذكر في "الأخبار المنثورة" لابن دُرَيْد أنه (أى خُنَافِرًا) أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن. لا أدري كيف حفظه ابن الكلبي ورواه عن والده، الذي صنعه ووضعه، إلا أن يكون والده قد حضر المحاورة فكان يسجلها، وهو ما يُعَدّ من المستحيلات". أى أن فى العلماء العرب من لا يطمئنون مثلى إلى هذه القصة، وإن كان من السهل الجواب على هذا السؤال فى حد ذاته بالقول بأن والد ابن الكلبى، وإن لم يحضر واقعة إسلام خنافر والحوار الذى دار بينه وبين شَصَار قبلها، قد سمعها مع هذا ممن سمعها بدوره من فم ذلك الكاهن. وعلى هذا فالأفضل هنا اللصوقُ بالأدلة التى اعتمدت أنا عليها بدلا من الالتجاء إلى التشكيك فى ذمة الرواة.

أما فيما يخص حديث شافعٍ الصَّدَفِيَّ فغريبٌ أن يقول ذلك الكاهن إن مُلْك بنى غسّان أعظم من مُلْك التبابعة على الرغم من أن الغساسنة لم يكونوا سوى مملكة صغيرة على حدود الروم لا قيمة لها حقيقية، على حين أن التبابعة كانوا يحكمون دولة كبيرة كاليمن ذات اتساع وتاريخ وحضارة معروفة لم يكن للدُوَيْلَة غسان منها شىء! ثم غريب أيضا أن تترك القصةُ التوراةَ والإنجيلَ وتذهب إلى الزَّبُور لتقول إنه قد وردت فيه البشارة بنبينا الكريم، مع أنه لم يأت فى القرآن ولا

فى الحديث أن بشارةً مثل هـذه موجـودةٌ فى الزبـور! وبالنسـبة لسَطِيح ونبوءته لربيعة اللَّخْمِيّ هـل يجـوز فى العقـول أن يجـرؤ كاهن كسطيح على أنْ يَجْبَه الملك ويُـدْخِل الغـمّ عليـه بقـول الحقيقة له كاملة ودون تَوْشِيَة، مـع أنـه كـان فى مندوحـة عـن هذا، إذ لم تكن النبوءة المزعجة لِتقع قبـل بِضْـعَةٍ وسـبعين عامـا يكون هو نفسه خلالهـا أو الملـك قـد مـات، وكـان الله يحـب المحسنين؟ وهذا إن جـاز لنـا أن نصـدق أن سَـطِيحًا يمكـن أن يعرف شيئا مـن أمـور الغيـب المحجـوب عـن البشـر والجـن والملائكة جميعا؟ ثم أليس غريبا ألا يجد كسرى مـن بـين كهّانـه فى مملكته الطويلة العريضة من يسـتطيع أن يَعْبُـر لـه رؤيـاه حـتى يرسل فيها لكاهن من كهان العرب؟ كذلك مـن غـير المعقـول أن يجرؤ كاهن على أن يَجْبَه رسولَ كسـرى بهـذا التفسـير المـزعج للرؤيا، ثم يَجْبَه هذا به عاهلَه دون محاولـة مـن جانبـه لتلطيـف وقع الأمر. ودَعْنا الآن من التحوير فى تعبير الرؤيا كمـا قلنـا مـن قبل عن رؤيا عاهل اليمن، تلك الرؤيا التى قام سـطيح هـو أيضـا بتفسيرها! ومن الغريب فى الأمر أن أيًّا من كبـار رجـال فـارس، حين بدأ الفتح الإسلامى لبلادهم، لم يتذكر رؤيـا عاهلـهم هـذه، مع أنها ليست من الأشياء التى يمكـن أن تُنْسَـى بسـهولة نظـرا لخطورة موضوعها والظروف الـتى رُئِيَـتْ وفُسِّـرَتْ فيهـا كمـا لاحظنا، وإلا فكيف وصلتنا هـذه الرؤيـا وتفسـيرها إذا كانـت

قد امَّحَتْ من الذاكرة الفارسية؟ ثم لا ينبغى أن يفوت انتباهَنا ما جاء فى تعبير شِقّ أنمار للرؤيا من عبارات وعقائد قرآنية كقوله: "يوم الفصل" (الذى ورد فى سورة "المرسلات")، وقوله أيضا: "وربِّ السماء والأرض... إن ما أنبأتك به لَحَقّ؟" (المأخوذ من سورة "الذاريات")، وقوله: "يوم الميقات" (وهو مقلوب العبارة القرآنية: "ميقات يوم معلوم" الموجودة فى سورة "الواقعة")، بالإضافة إلى دعاء الأموات للقيام من مرقدهم للحشر والحساب!

كذلك هل يُعْقَل أن ترفض عُفَيْراء خِطْبة الملك لها؟ إن ما قالته فى تعليل هذا الرفض لا يدخل العقل طبعا بحال! ثم متى ذبح النبى قومه؟ وهل الأنصار وحدهم هم الذين نصروه؟ فأين ذهب الصِّدّيق إذن والفاروق وذو النورين وأبو الحسنين والحمزة وجعفر وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد وبلال الحبشى وصُهَيْب الرومى وسلمان الفارسى وعبد الله بن سلام وخالد وعمرو وأبو سفيان والمغيرة وأبو دُجَانة والنابغة الجعدى وأبو موسى الأشعرى وأبو هريرة وخنافر وعمرو بن مَعْدِيكَرِب وآلاف بعد آلافٍ مثلهم من غير الأنصار، من قريش ومن خارج قريش، من العرب ومن وراء العرب رضى الله عنهم جميعا؟ أما ارتجاج الديوان الكِسْرَوِىّ وانطفاء النيران فى معابد زرادشت وجفاف بحيرة ساوة وما إلى ذلك فنُعَدِّى عنها لأنها لا

حقيقة لها فى واقع التاريخ، ولذلك لم تتعرض لهـا كتـب المسـلمين الأوائل بشيء، وهو ما يذكّرنا بأسـطورة انشـقاق الهيكـل عنـد وقوع الصَّـلْب طبقًـا لروايـة مـؤلّفى (أو بـالأحرى: ملفّقـى) الأناجيل! ثم لا ينبغى أن نتجاهل الـوتيرة الواحـدة الـتى تجـرى عليها كل هذه الأحاديث، إذ يقوم كل منـها علـى السـؤال مـن جانب تُبَّع، والجواب مـن جانـب الكـاهن أو الكاهنـة بـلا أى تغييرٍ، حَذْوَك النعل بالنعل!

ومما لا يطمئن له قلب الباحـث فى خُطَـب الجـاهليين ورود عبارات لا يمكن أن تكون من كلامهم ولا صـدرت عنـهم، كمـا فى الشاهد التالى، وهو من خُطْبة عامر بن الظَّـرِب العَـدْواني حـين خُطِبَت ابنته عَمْرة، إذ جاء فيهـا قولـه لقومـه: "فهـل لكـم في العِلْم العليم؟ قيـل: مـا هـو؟ قـد قلـتَ فأصـبتَ، وأخـبرتَ فصدَقْتَ. فقال: أمورا شتى وشيئا شَيّا، حتى يرجـع الميـت حيّـا، ويعود لاشيء شَيّا"، إذ من المسـتبعد تمامـا أن يعـرف الجـاهليون مصطلح الـــ"لاشيء" هذا، فهو لفـظ منحـوت لا أظنـه أبـدًا قد سُكَّ ونزل إلى ساحة الكلام قبـل العصـر العباسـى! بيـد أن هذا لا يعنى بالضرورة أن يكون النص كله مشـكوكا فيـه، فـإنى لا أجد فى نفسى شيئا ذا بال من أن تكـون هـذه الخطبـة، فيمـا عدا الكلمة المذكورة، قد قالها ذلك الرجـل الجـاهلى، إمـا كمـا هى أمامنا الآن أو بعد أن تكون الـذاكرة أو الأقـلام قـد مسَّـتْها

بعضَ المسّ خلال رحلتها من عصر ما قبل الإسلام إلى عصر التدوين، وبخاصة أنْ قد رواها لنا أمثال الميدانى والجاحظ وابن عبد ربه حسبما ذكر أحمد زكى صفوت فى ذيلها، فضلا عن أن السجع فيها ليس متكلَّفًا ولا مطَّرِدًا كما فى بعض الخُطَب الأخرى.

كما أن فى بعض تلك الخُطَب ترفا ثقافيا وأدبيا لا يقدر عليه الجاهليون، ومن ثم كنا لا نطمئن إليها. لنأخذ مثلا النص التالى: "كان قيس بن رفاعة يفد سَنَةً إلى النعمان اللَّخْمِيّ بالعراق، وسَنَةً إلى الحارث بن أبي شَمِرٍ الغَسّاني بالشام، فقال له يوما وهو عنده: يا ابن رفاعة، بلغني أنك تفضّل النعمان عليّ. قال: وكيف أفضّله عليك أَبَيْتَ اللعن؟ فوالله لَقَفَاك أحسن من وجهه، ولأُمّك أشرف من أبيه، ولأبوك أشرف من جميع قومه، ولَشمالك أجود من يمينه، ولَحِرْمانك أنفع من نَدَاه، ولَقَليلُك أكثر من كثيره، ولَثِمَادك (أى قليل مائك) أغزر من غديره، ولَكُرْسِيّك أرفع من سريره، ولَجَدْوَلُك أغمر من بحوره، ولَيَوْمك أفضل من شهوره، ولَشَهْرك أَمَدّ من حَوْله، ولَحَوْلُك خير من حُقْبه (الحُقْب: القرن)، ولَزَنْدك أَوْرَى (أسرع إلى الاشتعال) من زنده، ولَجُنْدك أعزّ من جنده، وإنك لَمِنْ غسّانَ أربابِ الملوك، وإنه لمن لَخْمٍ الكثير النُّوك (الكثير الحمقى)، فكيف أفضله عليك؟"، فمما لا يطمئن له القلب فى

قول قيس بن رفاعة للحارث بن أبي شَمِرٍ العبارةُ التالية: "ولَيَوْمُك أفضل من شهوره، ولَشَهْرُك أَمَدّ من حَوْله، ولَحَوْلُك خير من حُقْبه"، إذ إن صياغة مثل تلك العبارة تحتاج إلى ما لا يحسنه الجاهليون من تنوُّقٍ وترفُّهٍ فكرى وأسلوبى يتمثل فى التصاعد بالمعنى من اليوم إلى الشهر إلى الحَوْل إلى الحُقْب فى تسلسلٍ جذاب تأخذ كل حلقة فيه بيد جارتها فى شكلٍ فنىٍّ لا نظير له لدى الجاهليين. أما سائر الخطبة فلا أجد فيه شيئا يبعث على الريبة.

وإذا كان هناك من الخطب والأحاديث ما يرهقه السجع والجناس والموازنة وغير ذلك من زخارف البديع مما لا نعرفه فى كلام الجاهليين ولا الإسلاميين، فإن هناك على العكس من ذلك خطبًا وأحاديثَ تخلو تماما من مثل ذلك التكلف أو تكتفى من تزاويق البديع بالقليل الذى يسبغ على الكلام شيئا من الرونق دون إسراف كما فى المثال التالى من الحوار الذى دار بين قيسِ بن خُفَافٍ البُرْجُمِىّ وحاتمٍ الطائى: "أتى أبو جبيل قيسُ بن خُفَاف البُرْجُمِىّ حاتمَ طيئ في دماءٍ حَمَلها عن قومه فأسلموه فيها وعجز عنها، فقال: والله لآتيَنَّ من يحملها عني. وكان شريفا شاعرا، فلما قدم عليه قال: إنه وقعتْ بين قومي دماء فتواكلوها، وإني حملتها في مالي وأملي، فقدَّمتُ مالي، وكنتَ أملي. فإن تَحْمِلْها فرُبَّ حقٍّ قد قَضَيْتَه، وهَمٍّ قد كَفَيْتَه،

وإن حال دون ذلك حائل لم أَذْمُمْ يومك، ولم أيأس من غدك.

ثم أنشأ يقول:

حملتُ دماءً للبراجم جَمَّةً ... فجئتك لما أسلمتني البراجمُ
وقالوا سفاهًا: لِمْ حملتَ دماءنا؟ ... فقلت لهم: يكفي الحَمَالةَ حاتمُ
متى آتِهِ فيها يقل لِيَ: مرحبًا ... وأهلا وسهلا، أخطأتك الأشائمُ
فيحملها عني، وإن شئتُ زادني ... زيادةَ من حَنَّتْ إليه المكارمُ
يعيش الندى ما عاش حاتمُ طَيِّئٍ ... فإن مات قامت للسخاء مآتمُ
ينادين: مات الجود مَعْكَ فلا ترى ... مجيبًا له ما حام في الجوِّ حائمُ
وقال رجال: أنهب العامَ مالَه ... فقلت لهم: إني بذلك عالِمُ
ولكنه يعطي مِنَ اموَال طَيِّئٍ ... إذا جلَّف المالَ الحقوقُ اللوازمُ
فيعطي التي فيها الغنى، وكأنه ... لتصغيره تلك العطيةَ جارمُ
بذلك أوصاه عديٌّ وحَشْرَجٌ ... وسعدٌ وعبدُ الله، تلك القماقمُ

فقال له حاتم: إنْ كنتُ لأُحِبّ أن يأتيني مثلك من قومك. هذا مِرْباعي من الغارة على بني تميم، فخذه وافرًا، فإن وفَّى بالحِمَالة، وإلا أكملتُها لك. وهو مائتا بعيرٍ سوى بنيها وفِصَالها، مع أني لا أحب أن تُوَيِسَ قومك بأموالهم. فضحك أبو جبيل وقال: لكم ما أخذتم منا، ولنا ما أخذنا منكم. وأي بعير دفعتَه إليَّ ليس ذَنَبُه في يد صاحبه فأنت منه بريء. فدفعها إليه وزاده مائة بعير، فأخذها وانصرف راجعا إلى قومه، فقال حاتم في ذلك:

أتاني البُرْجُمِيُّ أبو جُبَيْلٍ ... لهمٍّ في حِمَالته طويلِ

فقلت لــه: خذ المِرْباع رَهْوًا ... فإني لســت أرضى بالقليلِ
على حــالٍ ولا عوَّدْتُ نفسي ... على عِــلاّتها عِلَلَ البخيــلِ
فخــذها، إنهــا مائتــا بعيــرٍ ... سوى النابِ الرذيَّة والفَصِيلِ
فلا مَــنٌّ عليك بهــا، فــإني ... رأيتُ المَــنَّ يُزْرِي بالجزيــلِ
فآب البــرجميّ، ومــا عليــه ... مِــنَ اعْباء الحِمَالة من فتيلِ
يجــرّ الذيل يَنْفُض مِذْرَوَيْــهِ ... خفيف الظهر من حملٍ ثقيلِ"

وهذا فضلا عن النكهة الواقعية التى تفعم الــنص كلــه ممــا يعضد اقتناعى بأن تلك الحكايــة بمــا فيهــا مــن حــوار وشــعر صحيحة غير مفتعلة، ومن ثم أقبلها وأنا مطمئن إلى حد كبير.

ومثلهما فى ذلك النص التالى، وهــو مــن حــوار دار بــين قُبَيْصَة بن نعيم وامرئ القيس الشاعر والملــك المشــهور فى مقتــل والد الأخير: "قدم على امرئ القيس بــن حجــر الكنــدي بعــد مقتل أبيه رجالٌ من قبائل بني أســد، وفــيهم قُبَيْصَــة بــن نعــيم، يسألونه العفو عن دم أبيه، فخرج عليهم في قَبــاءٍ وخُــفٍّ وعمامــةٍ سوداءَ، وكانت العرب لا تعتمّ إلا في التِّــرَات (أى عنــد الثــأر). فلما نظروا إليه قاموا له وبَدَرَ إليه قبيصــة فقــال: إنــك في المحــلّ والقدر والمعرفة بتصرف الدهر ومــا تُحْدِثــه أيامــه وتتنقّــل بــه أحواله بحيث لا تحتاج إلى تــذكيرٍ مــن واعــظٍ ولا تبصــيرٍ مــن مجرّب. ولك من سُؤْدَد منصبك وشرف أعراقــك وكــرم أصــلك فى العرب مَحْتِدٌ يحتمل ما حُمِلَ عليه مــن إقالــة العَثْــرة ورجــوعٍ

عن الهفوة. ولا تتجاوز الهممُ إلى غاية إلا رجعتْ إليك فوجدتْ عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يَطُول رغباتِها ويستغرق طَلِباتها. وقد كان الذي كان من الخَطْب الجليل الذي عَمَّتْ رَزِيّته نِزارًا واليمن، ولم تُخْصَص بذلك كِنْدَة دوننا، للشرف البارع كان لحُجْر: التاج والعِمَّة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد وطيب الشِّيَم. ولو كان يُفْدَى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه، ولا يلحق أقصاه أدناه. فأَحْمَدُ الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خِلالٍ ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا وأعلاها في بناء المكرمات صوتا، فقُدْناه إليك بنِسْعَةٍ تذهب مع شفرات حُسَامك بباقي قَصَرته، فنقول: رجلٌ امتُحِن بهالكٍ عزيزٍ فلم يستلَّ سخيمتَه إلا تمكينه من الانتقام. أو فداءٌ بما يروح على بني أسد من نَعَمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القُضُب إلى أجفانها لم يرددها تسليط الإِحَن على البُرآء. وإما أن وادعْتَنا إلى أن تضع الحوامل فتُسْدَل الأُزُر، وتُعْقَد الخُمُر فوق الرايات. فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد عَلِمَتِ العرب أنه لا كُفْءَ لحُجْرٍ في دمٍ وأني لن أعتاض به جملاً ولا ناقةً فأكتسب به سُبَّة الأبد، وفَتَّ العَضُد. وأما النَّظِرة فقد أوجبتْها الأجنّةُ في

بطون أمهاها، ولن أكون لعَطَبها سببا. وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حَنَقًا، وفوق الأسنّة عَلَقًا

إذا جالت الحرب في مأزقٍ تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوإ الاختيار، وأبلى الاجترار، بمكروهٍ وأذيّة، وحربٍ وبليّة. ثم نهضوا عنه، وقبيصة يتمثل:

لعلّكَ أن تَستَوْخِمِ الوِرْدَ إن غَدَتْ كتائبُنا في مأزِق الحرب تُمْطِرُ

فقال امرؤ القيس: لا والله، ولكن أستعذبه. فرُوَيْدًا ينفرجْ لك دُجَاها عن فرسان كندة وكتائب حِمْيَر. ولقد كان ذِكْر غير هذا بي أَوْلَى إذ كنتَ نازلا برَبْعِي، ولكنك قلتَ فأوجبتَ. فقال قبيصة: ما يُتَوَقَّع فوق قدر المعاتبة والإعتاب. فقال امرؤ القيس: هو ذاك".

وكذلك هذه الخطبة التى قالها عبد المطلب بن هاشم جد النبى عليه السلام فى حضرة سيف بن ذى يَزَن حين ذهب إليه وفد العرب يهنئونه بانتصاره على الأحباش وإخراجه إياهم من بلاده: "لما ظفر سيف بن ذي يَزَن بالحبشة أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنّئه وتمدحه، ومنهم وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم. فاستأذنه في الكلام، فأذن له، فقال: إن الله تعالى أيها الملك أَحَلَّك محلاً رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أَرُومَتُه، وعزَّتْ جرثومتُه، وثبَتَ أصله،

وبَسَقَ فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن. فأنت، أَبَيْتَ اللعن، رأسُ العرب وربيعُها الذي به تُخْصِب، ومَلِكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العِمَاد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد. سَلَفُك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خَلَف، ولن يَهْلِك من أنت خَلَفُه، ولن يَخْمُل من أنت سَلَفُه. نحن، أيها الملك، أهل حَرَم الله وذمّته وسدنة بيته. أَشْخَصَنا إليك الذي أبهجك بكشف الكَرْب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المَرْزِئَة".

ومثلها فى ذلك خطبة أبى طالب عم النبى عندما ذهب معه لخِطْبة خديجة بنت خُوَيْلد له، وهذا نصها: "خَطَبَ أبو طالب حين زواج النبي بالسيدة خديجة فقال: الحمد لله الذي جعلنا من زَرْع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا، وجعلَنا الحكّام على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله ابنَ أخي من لا يُوَازَن به فتًى من قريش إلا رَجَحَ عليه بِرًّا وفضلاً وكرمًا وعقلاً ومجدًا ونُبْلاً. وإن كان في المال قُلٌّ فإنما المال ظِلٌّ زائلٌ، وعاريَةٌ مسترجَعَة، وله في خديجة بنت خويلد رغبةٌ، ولها فيه مثل ذلك. وما أحببتم من الصَّدَاق فعَلَيَّ".

وهناك ضرب آخر من الخطب المنسوبة للعصر الجاهلى تثير نوعا آخر من التساؤلات، وهى الخطب التى يقال إن بعضا من وجوه العرب ورؤسائهم قد ألقَوْها فى قصر العاهل

الكِسْرَوِىّ بالمدائن وبمحضرٍ منه ودار الجدال بينه وبينهم حول المقارنة بين فضائل العرب وغيرهم من الأمم بما فيها فارس نفسها، إذ يتساءل الإنسان: هل من المعقول أن يجرؤ أولئك العرب، الذين لم تكن لهم فى ذلك الحين دولة تحميهم من بطش كسرى إذا فكر فى البطش بهم، على أن يتفاخروا فى وجهه ذلك الفخر المجلجل الذى يرفع العرب فوق كل الأمم؟ ثم إن الرواية تذكر أن وفودا من الصين والهند والروم كانت موجودة فى ذلك الاجتماع تتبادل التفاخر والتباهى بأصولها وأعراقها، فهل كان هناك فى تلك الأزمان ما يمكن ببساطة، ودون افتئات على حقائق الحوادث لو صح ما تقوله لنا الروايات، أن نسميه: "حوار القوميات" أو "حوار الحضارات"؟ ولكن فلنقرأ أولا شيئا من هذه الخطب وقصتها حتى يكون الكلام عن بينة. تقول الرواية:

"قدم النعمان بن المنذر على كسرى، وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضَّلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارسَ ولا غيرها. فقال كسرى، وأخذته عزة المُلْك: يا نعمان، لقد فكرتُ فى أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرتُ في حالة من يَقْدَم علىَّ من وفود الأمم فوجدتُ للروم حظا فى اجتماعِ أُلْفَتها وعِظَم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لها دِينًا يبين حلالها

وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها. ورأيتُ الهند نحوا من ذلك في حكمتها وطبّها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكا يجمعها. والترك والخَزَر، على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضمّ قواصيهم وتُدَبِّر أمرهم. ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة. ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلّتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة. يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذّاتها، فأفضل طعامٍ ظفر به ناعِمُهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها. وإنْ قَرَى أحدهم ضيفا (أى أطعمه) عَدَّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عَدَّها غنيمة. تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التَّنوخِيَّة التي أسس جَدِّي اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوّها فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا. وإن لها مع ذلك آثارا ولَبوسًا وقرى وحصونا وأمورا تشبه بعض أمور الناس، يعني

اليمن. ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس! قال النعمان: أصلح الله الملك. حقّ لأمّةٍ المَلِكُ منها أن يَسْمُوَ فضلها ويَعْظُم خَطْبها وتعلو درجتها، إلا أن عندي جوابا في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له. فإن أَمَّنني من غضبه نطقتُ به. قال كسرى: قل، فأنت آمن.

قال النعمان: أما أمّتك أيها الملك فليست تُنَازَع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها وبسطة محلّها وبُحْبُوحة عِزّها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأما الأمم التي ذكرتَ فأيّ أمة تقرها بالعرب إلا فَضَلَتْها؟ قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزها ومَنَعَتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأَنَفَتها ووفائها: فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ووطّدوا الملك وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل. حصونهم ظهور خيلهم، ومِهَادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجُنّتهم السيوف، وعُدَّتهم الصبر، إذ غيرها من الأمم إنما عِزّها من الحجارة والطين وجزائر البحور. وأما حُسْن وجوهها وألوانها فقد يُعْرَف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المُنْحَفَة والروم والترك المشوَّهة المقشَّرة. وأما أنسابها وأحسابها فليست أمةٌ من

الأمم إلا وقد جَهِلَتْ آباءها وأصولها وكثيرا من أوّلها حتى إن أحدهم ليُسْأَل عمن وراء أبيه دِنْيًا (أى بعده مباشرة) فلا يَنْسُبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه آبًا فآبًا، حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يُدْعَى إلى غير أبيه. وأما سخاؤها فإن أدناهم رَجُلاً الذي تكون عنده البَكْرة والناب عليها بلاغُهُ في حُمُوله وشِبَعه ورِيّه فيَطْرُقه الطارق الذي يكتفي بالفَلْذة ويجتزئ بالشَّربة فيَعْقِرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يُكْسِبه حسن الأُحدوثة وطيب الذكر. وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم الأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعفّ النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجَزْع، ومطاياهم التي لا يُبْلَغ على مثلها سَفَر، ولا يُقْطَع بمثلها بلدٌ قَفْر. وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نُسُكه بدينه أنّ لهم أشهُرًا حُرُمًا وبلدا محرَّما وبيتا محجوجا يَنسِكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيَلْقَى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رَغْمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله

بأذى. وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة، فهي وَلْثٌ (أى عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدَيْنه فلا يَغْلَق رهنه ولا تُخْفَر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به، وعسى أن يكون نائيا عن داره، فيصاب فلا يرضى حتى يُفْنِيَ تلك القبيلة التي أصابته أو تَفْنَى قبيلته لما أُخْفِر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله. وأما قولك أيها الملك: "يَئِدُون أولادهم" فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيرةً من الأزواج. وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفْتَ منها فما تركوا ما دونها إلا احتقارا لها فعمدوا إلى أجلّها وأفضلها فكانت مراكبَهم وطعامَهم مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقّها ألبانا وأقلّها غائلة وأحلاها مضغة، وإنه لا شيء من اللُّحْمان يعالَج ما يعالَج به لحمها إلا استبان فضلها عليه. وأما تحارُبهم وأَكْل بعضهم بعضا وتَرْكهم الانقياد لرجل يَسُوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أَنِسَتْ من نفسها ضعفا وتخوَّفت نهوضَ عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يُعْرَف فضلهم على سائر غيرهم فيُلْقُون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأزِمّتهم. وأما العرب فإن ذلك كثير

فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخَرَاج والوَطْث (أى الوطء) بالعَسْف. وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جَدَّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الجبش له على مُلْكٍ متسقٍ وأمرٍ مجتمعٍ فأتاه مسلوبا طريدا مُسْتَصْرِخًا. ولولا ما وَتَرَ به من يليه من العرب لَمَال إلى مجالٍ ولَوَجَد من يجيد الطِّعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار. فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال: إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك. ثم كساه من كُسْوته وسرَّحه إلى موضعه من الحيرة.

فلما قدم النعمان الحِيرَة، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى مِنْ تنقُّص العرب وتهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زُرَارَة التميميَّيْن وإلى الحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريَّيْن وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن عُلاَثة وعامر بن الطُّفَيْل العامريّين وإلى عمرو بن الشريد السُّلَميّ وعمرو بن مَعْديكَرِب الزُّبَيْدي والحارث بن ظالم المُرِّيّ. فلما قدموا عليه في الخَوَرْنق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقُرْب جوار العرب منها، وقد سمعتُ من كسرى مقالات تخوفتُ أن يكون لها غَوْر أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العربَ خَوَلاً (أى خُدَّامًا) كبعض طماطمته (الطماطمة: الذين لا يحسنون الكلام) في تأديتهم الخَرَاج

إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله. فاقتصَّ عليهم مقالات كسرى وما ردَّ عليه، فقالوا: أيها الملك، وفقك الله! ما أَحْسَنَ ما رددت، وأَبْلَغَ ما حَجَجْتَه به! فمُرْنا بأمرك وادْعُنا إلى ما شئت. قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما مَلَكْتُ وعَزَزْتُ بمكانكم وما يتخوَّف من ناحيتكم. وليس شيءٌ أحبَّ إليَّ مما سدَّد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم. والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظنَّ أو حدَّثته نفسه. ولا ينطقْ رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه، ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل. وليكن أمرٌ بين ذلك تظهر به وثاقة حُلُومكم وفَضْل منزلتكم وعظيم أخطاركم، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتُكم بها، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه، فلا يكوننَّ ذلك منكم فيجدَ في آدابكم مطعنا، فإنه ملكٌ مترفٌ وقادرٌ مسلَّط. ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حُلَل الملوك، كلَّ رجل منهم حُلَّة، وعمَّمه عمامة، وختَّمه بياقوتةٍ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبةٍ مَهْرِيَّة وفرسٍ نَجِيَّة، وكتب معهم كتابا: أما بعد، فإن المَلِك ألقى إليَّ من أمر العرب ما قد عَلِم، وأجبتُه بما قد

فَهِم مما أحببتُ أن يكون منه على علم ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزتْ دونه بمملكتها وحَمَتْ ما يليها بفضل قوّها تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدتُ، أيها الملك، رَهْطًا من العرب لهم فضلٌ في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فلْيسمع الملك ولْيُغمِضْ عن جفاءٍ إن ظهر من منطقهم، ولْيُكْرِمْني بإكرامهم وتعجيل سَرَاحهم. وقد نسبتُهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم. فخرج القوم في أُهْبَتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم. فلما أن كان بعد ذلك بأيامٍ أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسيَّ عن يمينه وشِماله، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه، وأقام الترجمانَ ليؤدي إليه كلامهم ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمّها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركبٌ صعب، والعجز مركبٌ وطيء. آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح

فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاصِّ بالماء. شر البلاد بلاد لا أَميرَ بها. شر الملوك من خافه البرىء. المرء يعجز لا المحالة. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يُرَاءِ بالنصيحة. أحقّ الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلّغك المحلّ. حَسْبُك من شرٍّ سماعه. الصمت حُكْمٌ، وقليلٌ فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدَّد نفَّر، ومن تراخى تألَّف. فتعجب كسرى من أكثم ثم قال: ويحك يا أكثم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وَضْعُك كلامك في غير موضعه. قال أكثم: الصدق ينبئ عنك لا الوعيد. قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكثم: رُبَّ قولٍ أَنفَذُ من صَوْل.

ثم قام حاجب بن زُرَارَة التميمي فقال: وَرِيَ زَنْدك، وعَلَتْ يدك، وهِيبَ سلطانك. إن العرب أمة قد غَلُظَتْ أكبادها واستحصدت مِرَّتها ومنعت دِرَّتها، وهي لك وامقة ما تألَّفتَها، مسترسلة ما لايَنْتَها، سامعة ما سامحتها، وهي العلقم مرارةً، والصابُ غضاضةً، والعسل حلاوةً، والماء الزلال سلاسة. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة. إن نَؤُبْ لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم مَحْمَدتنا، وإن نَذُمّ لم نُخَصّ بالذم دونها. قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال

بألوان صخرها! قال حاجب: بل زئير الأُسْد بصَوْلَتها. قال كسرى: وذلك.

ثم قام الحارث بن عباد البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها. من طال رِشَاؤه كَثُرَ مَتْحُه، ومن ذهب ماله قلَّ مَنْحُه. تناقُل الأقاويل يعرِّف اللُّبَ، وهذا مقامٌ سيُوجِف بما ينطق به الرَّكْب وتَعْرِف به كُنْهَ حالنا العجمُ والعرب. ونحن جيرانك الأَدْنَوْن، وأعوانك المُعِينون. خيولنا جَمَّة، وجيوشنا فخمة. إن استنجدتَنا فغَيْرُ رُبُض، وإن استطرقتَنا فغير جُهُض، وإن طلبتنا فغير غُمُض. لا ننثني لذعر، ولا نتنكر لدهر. رماحنا طوال، وأعمارنا قصار. قال كسرى: أنفسٌ عزيزة، وأمةٌ ضعيفة. قال الحارث: أيها الملك، وأنَّى يكون لضعيفٍ عِزّة، أو لصغيرٍ مِرّة؟ قال كسرى: لو قَصُرَ عمرك لم تستول على لسانك نفسُك. قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرِّرًا بنفسه على الموت فهى منيَّةٌ استقبلها، وجنانٌ استدبرها. والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُمًا، وأحبسها وهى تَصَرَّف بها، حتى إذا جاشتْ نارها وسَعَرَتْ لظاها وكشفتْ عن ساقها جعلتُ مَقادها رمحى، وبرقها سيفى، ورعدها زئيرى، ولم أقصِّر عن خوض خَضْخَاضها حتى أنغمس فى غمرات لُجَجها، وأكون فُلْكًا لفرسانى إلى بُحْبُوحة كبشها فأستمطرها دما، وأترك حُمَاتها

جَزَر السِّباع وكلّ نَسْرٍ قَشْعَم (أى أقتلهم وأتركهم للسباع والنسور تنهش جثثهم). ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟ قالوا: فَعَاله أنطَقُ من لسانه. قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفدا أحْشَد، ولا شهودا أوْفَد.

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلَمِىّ فقال: أيها الملك، نَعِمَ بالُك، ودام فى السرور حالُك. إن عاقبة الكلام متدبَّرة، وأشكال الأمور معتبَرة، وفى كثيرٍ ثِقْلَة، وفى قليلٍ بُلْغَة، وفى الملوك سَوْرَة العِزّ. وهذا منطقٌ له ما بعده، شَرُفَ فيه مَنْ شَرُفَ، وخَمَلَ فيه مَنْ خَمَل. لم نأت لضَيْمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدك (أى عطائك). إن فى أموالنا منتقَدًا، وعلى عزّنا معتمَدًا. إنْ أوْرَيْنا نارا أثْقَبْنا، وإنْ أَوِدَ دهرٌ بنا اعتدلنا، إلا أنّا مع هذا لِجوارك حافظون، ولمن رامَكَ كافحون، حتى يُحْمَد الصَّدَر، ويستطاب الخبر. قال كسرى: ما يقوم قَصْدُ منطقك بإفراطك، ولا مدحُك بذمِّك. قال عمرو: كفى بقليلِ قصدى هاديًا، وبأيسر إفراطى مُخْبِرًا. ولم يُلَمْ مَنْ غَرَبَتْ نفسه عما يعلم، ورَضِىَ من القصد بما بلغ. قال كسرى: ما كلُّ ما يعرف المرء ينطق به. اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال: أحضر الله الملك إسعادا، وأرشده إرشادا. إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غُصّة، وعِىُّ المنطق أشدّ من عِىّ السكوت، وعِثَار القول أنكأ

من عثار الوَغْث. وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نَهْوَى، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة، وتركى ما أعلم مِنْ نفسى ويعلم مَنْ سمعنى أننى له مطيق أَحَبُّ إلى من تكلُّفى ما أتخوَّف ويُتَخَوَّف منى. وقد أوفدَنا إليك مَلِكُنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونِعْم حاملُ المعروف والإحسان. أنفسنا بالطاعة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة. قال له كسرى: نطقتَ بعقلٍ، وسَمَوْتَ بفَضْلٍ، وعَلَوْتَ بِنُبْل.

ثم قام علقمة بن عُلاَثة العامري فقال: نَهَجَتْ لك سُبُل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد. إن للأقاويل مناهج، وللآراء مَوَالج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجحه. إنا، وإن كانت المحبة أحضرتْنا والوفادة قرّبتْنا، فليس مَنْ حَضَرك منا بأفضل ممن عَزَب عنك. بل لو قِسْتَ كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدتَ له فى آبائه دِنّيا أندادا وأكفاء كلُّهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف. يحمى حماه، ويُرْوِى نداماه، ويذود أعداه. لا تخمد ناره، ولا يحترز منه جاره. أيها الملك، من يَبْلُ العربَ يعرف فضلهم، فاصطنعْ العرب، فإنها الجبال الرواسى عِزًّا، والبحور الزواخر طَمِّيًا، والنجوم الزواهر شرفًا، والحصى عددًا، فإن تعرف لهم فضلهم

يُعزّوك، وإن تستصرخْهم لا يخذلوك. قال كسرى، وخَشِيَ أن يأتيَ منه كلام يحمله على السخط عليه: حَسْبُكَ! أَبْلَغْتَ وأَحْسَنْتَ!

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطاب الله بك المَرَاشِد، وجنَّبَك المصائب، ووقاك مكروه الشَّصَائب (الشدائد). ما أحقَّنا، إذ أتيناك، بإسماعك ما لا يُحْنِق صدرك، ولا يزرع لنا حقدا فى قلبك! لم نَقْدَم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولكن لِتَعْلَم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنّا فى المنطق غير مُحْجِمين، وفى الناس غير مقصِّرين. إن جُورِينا فغير مسبوقين، وإن سُومِينا فغير مغلوبين. قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين (وهو يعرِّض به فى تركه الوفاء بضمانه السواد). قال قيس: أيها الملك، ما كنتُ فى ذلك إلا كَوَافٍ غُدِرَ به، أو كخافر أُخْفِرَ بذمّته. قال كسرى: ما يكون لضعيف ضمانٌ، ولا لذليلٍ خَفَارة. قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيما أُخْفِرَ من ذمتى أحقّ بإلزامي العارَ منك فيما قُتِلَ من رعيتك، وانْتُهِكَ من حُرْمتك. قال كسرى: ذلك لأن من ائْتَمَنَ الخانَة (أى الخَوَنة)، واستنجد الأَثَمَة ناله من الخطإ ما نالنى، وليس كل الناس سواء. كيف رأيتَ حاجب بن زرارة؟ لِمَ يُحْكِم قُوَاه فيُبْرِم، ويَعْهَد فيُوفِي، ويَعِد فيُنْجِز؟

قال: وما أحقَّه بذلك! وما رأيتُه إلا لى. قال كسرى: القوم بُزُلٌ (البازِل: الناقة المسنّة)، فأفضلها أشدّها.

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال: كَثُرَ فنون المنطق، ولَبْسُ القول أعمى من حِنْدِس الظلماء، وإنما الفخر فى الفَعال، والعَجْز فى النجدة، والسؤدد مطاوَعَة القدرة. وما أَعْلَمَك بقدْرنا، وأَبْصَرَك بفضلنا. وبالحَرَى إن أدالت الأيام، وثابَت الأحلام، أن تُحْدِث لنا أمورا لها أعلام. قال كسرى: وما تلك الأعلام؟ قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، على أمرٍ يُذْكَر. قال كسرى: وما الأمر الذي يُذْكَر؟ قال: ما لي علمٌ بأكثر مما أخبرنى به مُخْبِر. قال كسرى: متى تكاهَنْتَ يا ابن الطفيل؟ قال: لستُ بكاهن، ولكنى بالرمح طاعن. قال كسرى: فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء، ما أنت صانع؟ قال: ما هَيْبَتى فى قفاي بدون هيبتي في وجهي، وما أَذْهَبَ عيني عَيْثٌ، ولكن مطاوَعة العَبَث.

ثم قام عمرو بن مَعْدِيكَرِب الزُّبَيْدِيّ فقال: إنما المرء بأصغرَيْه: قلبه ولسانه، فبلاغُ المنطق الصواب، ومِلاَكُ النُّجْعة الارتياد، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة، فاجْتَبِذْ (اجتذبْ) طاعتنا بلفظك، واكتظم بادِرَتنا بحِلْمك، وألِنْ لنا كَنَفك يَسْلَس لك قِيادنا، فإنا

أناسٌ لم يُوَقِّسْ صَفَاتَنا (أي لم يخدش صخورتنا) قِرَاعُ مناقير مَنْ أراد لنا قَضْمًا، ولكنْ مَنَعْنا حِمَانا مِنْ كلِّ مَنْ رامَ لنا هَضْمًا.

ثم قام الحارث بن ظالم المُرِّيّ فقال: إن من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق المَلَق، ومن خَطَل الرأي خفة الملك المسلَّط. فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن الائتلاف، وانقيادنا لك عن تصاف، فما أنت لِقبول ذلك منا بخَلِيق، ولا للاعتماد عليه بحَقِيق، ولكن الوفاء بالعهود، وإحكام وَلْث العقود. والأمر بيننا وبينك معتدل ما لم يأت مِنْ قِبلك ميل أو زلل. قال كسرى: من أنت؟ قال: الحارث بن ظالم. قال: إن في أسماء آبائك لَدليلا على قلة وفائك وأن تكون أولى بالغدر، وأقرب من الوزر. قال الحارث: إن في الحق مَغْضَبَة، والسَّرْوُ التغافل، ولن يستوجب أحدٌ الحِلْمَ إلا مع القدرة، فلْتُشْبِه أفعالُك مجلسَك. قال كسرى: هذا فتى القوم. ثم قال كسرى: قد فهمتُ ما نطقتْ به خطباؤكم، وتفنَّن فيه متكلموكم. ولولا أني أعلم أن الأدب لم يثقِّف أَوَدَكم ولم يُحْكِم أمركم وأنه ليس لكم مَلِكٌ يجمعكم فتنطقون عنده منطقَ الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتُم بما استولى على ألسنتكم وغَلَبَ على طباعكم لم أُجِزْ لكم كثيرا مما تكلمتم به. وإني لأكره أن أجَبِّه وفودي أو أُحْنِق صدورهم، والذي أُحِبّ هو إصلاح مدبرِكم وتألُّف شواذّكم والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم. وقد قبلتُ ما كان في

منطقكم من صواب، وصفحتُ عما كان فيه من خلل، فانصرفوا إلى مَلِككم، فأَحْسِنوا مؤازرته، والتزموا طاعته، واردعوا سفهاءكم، وأقيموا أَوَدَهم، وأَحْسِنوا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامة".

وأول شيء يلفت النظر هو: كيف استطاع النعمان أن يجمع هؤلاء الرجال من كل أرجاء بلاد العرب، وهو الذى لم يكن له سلطان إلا على منطقة الحيرة فى شمال شرق الجزيرة العربية؟ وكيف ورد فى كلامه مصطلحا "الوزن والقافية" الشِّعْرىّ، وهما لفظان لم تكن العرب تعرفهما فى ذلك المعنى آنذاك؟ ثم إن خطبة أكثم بن صيفى ليست فى الواقع خطبة، بل مجموعة من الأمثال التى تُنسَب إليه وُصِل بعضها ببعض وصلاً متعسِّفًا، إذ ليس لها محور واحد تدور عليه، بل كلمة من الشرق، وكلمة من الغرب، وإن كنا لا نقلل من قيمة كل كلمة فى حد ذاتها، لكننا نستغرب أن تكون هذه هى الخطبة التى انتدب النعمان بن المنذر أكثم لإلقائها فى حضرة كسرى تنبيها له على فضل أمة العرب، على حين لا علاقة بينها وبين هذا الموضوع بتاتًا. كما وردت فى الخطبة عبارة لم يعرفها العرب، فيما نتصور، إلا عندما تقدمت العلوم عندهم ونشأ علم البلاغة وحاول النقاد تقنين الكلام البليغ، ألا وهى عبارة "البلاغة الإيجاز". كذلك هناك كلمة "شريعة" التى استعملها

النعمان للإشارة إلى أحكام الوثنية، والسؤال هو: أكان العرب يستعملون هذه الكلمة فيما أصبحت تُستَعْمَل له بعد الإسلام؟ وهل كان العرب أصلاً يسمّون ما هم عليه من تقاليد جاهلية: "شريعة"؟ لقد بحثت فى "الموسوعة الشعرية" الضوئية عن شواهد فى الشعر الجاهلى لهذه الكلمة فلم أجد إلا بيتا واحدًا لا علاقة له البتة بهذا المعنى. ثم هل تُواتِي نَفْسَ أى عربى فى محضر كسرى أن يدعو الفرس بـ"الأعاجم" مثلما فعل الحارث بن عباد البكرى، وهى كلمة مسيئة فى حقهم كما نعرف، إذ تسوى بينهم وبين العجماوات؟

وبالمثل هل من السهل قبول ما جاء فى القصة من أن عمرو بن الشريد قد جَبَهَ ملك الفرس بهذا الكلام الجافى الذى يحمل من التحدى الساطع ما يحمل: "لم نأت لضَيْمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدك. إن فى أموالنا منتقَدًا، وعلى عزّنا معتمَدا"؟ أو أن يقرّع الحارث بن ظالم المرّىّ كسرى بهذه الكلمات التى تنصحه بالارتفاع إلى مستوى السلوك اللائق بالملوك: "إن في الحق مَغْضَبة، والسَّرْوُ التغافل، ولن يستوجب أحدٌ الحِلْم إلا مع القدرة. فلْتُشْبِهْ أفعالُك مجلسَك"؟ أو أن يهدده عامر بن الطفيل بما لوّح له به من إمكان انتقاض العرب عليه وحربهم إياه حتى ليغضب كسرى مما قال، بينما هو غير مبالٍ، وكأنه لم يقل شيئا؟ وإنْ خفّفَ من ذلك تنبيهُ النعمان

للعاهل الفارسى منذ البداية إلى خشونة رسله وتعليق كسرى فى النهاية بأنه إنما يصفح عما فى كلامهم من جفاء وخشونة لما يعلمه عنهم من قلة خبرتهم بمخاطبة الملوك. وبالمناسبة فخُطَب أشراف العرب فى قصتنا هذه قد صُبَّتْ فى لغةٍ أقرب إلى الترسُّل منها إلى السجع، وهذا هو الأقرب أن يكون فى مثل ذلك الموقف وتلك الظروف. وفى نهاية التحليل نقول إنه ليغلب على الظن أن يكون لهذه القصة أصل تاريخى وأنها قد وصلت المدوّنين فى العصر العباسى فى خطوطها العامة ثم توسع فيها الرواة فيما بعد، فأضافوا إليها كثيرا من التفاصيل، وجهدوا أن يردّوا، من خلال ما أضافوه، على ما كان الشعوبيون يتنقصّون به العرب فى العصر العباسى ويقلّلون من شأنهم لفتحهم بلادهم وبسطهم سلطانهم عليهم. ولا شك إن إشارة القصة فى بدايتها إلى وجود الترجمان فى تلك المناسبة لَتُشَكِّل لمسة واقعية تزيد مصداقيتها، كما أن ذكر القصة لمعايب العرب وبعض من اشتركوا فى هذا الموقف من خطباء هو مما يعضد الاقتناع بأنها قد وقعت فعلاً على نحو من الأنحاء.

على أن ثَمَّةَ نصوصًا أخرى من الخطب والأحاديث يغلب عليها التكلف فى هندسة العبارة والاستقصاء فى المعنى والتشقيق فى التفاصيل بحيث لا يكاد المتكلم يترك شاردة ولا واردة دون أن يذكرها مما يجعلنا لا نثق فى جاهليتها، كوصف

عصام الكِنْدِيّة لأم إياس بنت عَوْف بن مُحَلّم الشيباني فى النص التالى: "لما بلغ الحارثَ بن عمرو مَلِكَ كِنْدَة جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلّم الشيباني وكمالها وقوة عقلها أراد أن يتزوجها، فدعا امرأةً من كِنْدَة يقال لها: عِصَام، ذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبي حتى تَعْلَمي لي عِلْمَ ابنة عوف. فمضت حتى انتهت إلى أمها أمامةَ بنت الحارث فأعلمتها ما قَدِمَتْ له، فأرسلت أمامةُ إلى ابنتها وقالت: أيْ بُنَيّة، هذه خالتك أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك، فلا تستري عنها شيئا أرادت النظر إليه من وجهٍ وخلق، وناطِقيها فيما استنطَقَتْك فيه. فدخلت عصام عليها فنظرتْ إلى ما لم تر عينُها مثلَه قَطُّ بهجة وحسنا وجمالا، فإذا هي أكمل الناس عقلا وأفصحهم لسانا، فخرجت من عندها وهي تقول: تَرَكَ الخداعَ مَنْ كَشَفَ القناع، فذهبت مثلا. ثم أقبلتْ إلى الحارث فقال لها: ما وراءك يا عصام؟ فأرسلها مثلا. قالت: صَرَّحَ المَخْضُ عن الزبد، فذهبت مثلا. قال: أخبريني. قالت: أُخْبِرك صدقًا وحقًّا. رأيتُ جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعرٌ حالكٌ كأذناب الخيل المضفورة، إن أَرْسَلَتْه خِلْتَه السلاسل، وإن مَشَطَتْه قلتَ: عناقيدُ كَرْمٍ جلاها الوابل، وحاجبين كأنهما خُطّا بقلم، أو سُوِّدَا بحُمَم، قد تقوّسا على عيني الظبية العَبْهَرَة (البيضاء الرقيقة البَضّة)، التي لم يَرُعْها قانص ولم يَذْعَرها قَسْوَرَة (أى

الأسد)، بينهما أنفٌ كحَدّ السيف المصقول، لم يَخْنَسْ به قِصَرٌ ولم يمض به طول، حَفَّتْ به وَجْنتان كالأُرْجُوَان، في بياضٍ مَحْضٍ كالجُمَان، شُقَّ فيه فم، كالخاتم لذيذ المُبْتَسَم، فيه ثنايا غُرٌّ ذواتُ أَشَر، وأسنانٌ تبدو كالدُّرَر، وريقٌ كالخمر له نَشْر الروض بالسَّحَر، يتقلب فيه لسان، ذو فصاحة وبيان، يحركه عقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد، يحلبان ريقا كالشهد، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة، رُكِّب في صدرٍ كصدر تمثال دمية، يتصل به عَضُدان ممتلئان لحمًا، مكتنزان شحمًا، وذراعان ليس فيهما عَظْمٌ يُحَسّ، ولا عِرْقٌ يُجَسّ، رُكِّبَتْ فيهما كفّان دقيقٌ قَصَبُهما، لَيِّنٌ عَصَبُهما، تَعْقد إن شئتَ منهما الأنامل، وتُرَكَّب الفصوص في حُفَر المفاصل، وقد تربَّع في صدرها حُقّان كأنهما رمانتان يخرقان عليها ثيابها، تحت ذلك بطنٌ طُوِيَ كطَيِّ القَباطي (أى الملابس الرقيقة المُتَّخَذَة من الكتّان) المُدْمَجَة، كُسِيَ عُكَنًا (العُكَن: ثنيّات البطن) كالقراطيس المُدْرَجَة، تحيط تلك العُكَنُ بسُرَّة كَمُدْهُن العاج المجلوّ، خلْفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر، تحته كَفَلٌ يُقْعِدها إذا نهضتْ، ويُنْهِضها إذا قعدتْ، كأنه دِعْصُ رملٍ، لبَّده سقوط الطل، يحمله فخذان لفّاوان، كأنهما نَضيد الجُمَان، تحتهما ساقان خَدْلَتان، كالبَرْدِيّ وُشِّيَتا بشعرٍ أسود، كأنه حلَق الزَّرَد، يحمل

ذلك قدمان، كحَذْو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فوقهما؟ فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنَظْمٍ أو نَثْر. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوَّجه إياها".

إن هذا لَبِكتابة تقرير فنى فى مسابقات العهر (التى يسمونها زورا بـ"مسابقات ملكات الجمال") يضع نُصْبَ عينيه تقديم وصف تفصيلى لكل ملمح أو عضو من أعضاء الفتاة المشتركة فى تلك المسابقات أشبهُ منه بحديثِ خاطبةٍ إلى ملك من ملوك العرب فى تلك العصور، وبخاصة أن الوصف لم يتنزه عن تناول أشد مناطق الجسد حساسية مما من شأنه إثارة غيرة الرجل الكريم حتى لو كان المقصود هو البحث له عن زوجة تمتعه وتَسُرّه! وفضلا عن ذلك فإنى لا أظن أن امرأة عربية فى تلك العصور كانت ترضى بأن تتجرد من ملابسها وتذهب فتستعرض مفاتنها الداخلية على هذا النحو ولا حتى أمام أمها! والطريف أنه، بعد كل ما قالته المرأة الكِنْدِيّة فى وصف جمال الفتاة، تعود فتقول: "فأما ما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر". فهل تراها تركتْ شيئا لم تصفه مما يحتاج الرجل معرفته عن المرأة التى يبغى خِطْبَتها؟ ثم إن مقدمة النص تقول إن "الحارثَ بن عمرو ملك كِنْدَة قد بلغه جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم

الشيباني وكمالها وقوة عقلها"، أى أنه كان على علم بجمالها وكمالها، فما معنى كل هذا الوصف الدقيق المفصَّل الذى لا يدل إلا على شيء واحد: أنه لم يكن يعرف عن الفتاة شيئا؟ وإلى جانب هذا لا ينبغى أن ننسى أن تعبيرات مثل "خلْفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر"، "فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فوقهما؟" لا تصدر غالبا إلا عن مسلم فى العصر العباسى فنازلاً حين كان الأدباء يستخدمون مثل هذه العبارات الماجنة التى يُوهِم ظاهرُها بالتدين رغم ذلك، وهو مجون تشفّ عنه العبارة التالية بدورها أحسن شَفّ: "تحته كَفَلٌ يُقعِدها إذا نهضتْ، ويُنْهِضها إذا قعدتْ"، فضلا عما فيها من ترفٍ فى تذوق الجمال النسائى لم يكن يعرفه الجاهليون، إلى جانب التلاعب البديعىّ المعقَّد الذى لم يكن لهم به عهد، إذ فيها موازنة ومقابلة وسجع وتورية وردٌّ للأعجاز على الصدور فى وقت معا. وهناك أيضا المقابلة بين "النظم والنثر" فى الجملة التالية التى وردت قرب نهاية النص: "غير أنه أحسنُ ما وصفه واصفٌ بنَظْمٍ أو نَثْر" بما يدل على الشمول مما لم يكن الجاهليون يعرفونه فى تعبيراتهم، بل إننى لا أظنهم كانوا يستخدمون هاتين الكلمتين بالمعنى الاصطلاحى الذى عُرِفَتا به فى دنيا الأدب والنقد فيما بعد!

كذلك من حق الباحث أن يتساءل فيما يخص هذه القصة ذاتها فى مرحلتها اللاحقة قائلاً: أمن المعقول أن أُمًّا من الأمهات حين تريد أن تنصح بنتها فى ليلة زفافها تلجأ إلى مثل هذه العبارات المسجوعة المجنَّسة المتوازنة (رغم ما فى السجع والجناس والتوازن هنا من بساطة) كما فى النص التالى الذى تخاطب فيه أمامةُ بنت الحارث بنتَها أم إياس التى مر بنا آنفا وصف عصام الكندية العجيب لها؟: "أيْ بُنَيَّة، إن الوصية لو تُرِكَتْ لفَضْل أدبٍ تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأةً استغنتْ عن الزوج لِغَنَى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهنّ خُلِق الرجال. أيْ بُنَيَّة، إنك فارقتِ الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخلَّفْتِ العُشّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بمُلْكه عليك رقيبًا ومَليكًا، فكوني له أَمَةً يكن لك عبدًا وشيكا. يا بُنَيَّة، احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحُسْن، والماء أطيب الطِّيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهُدُوّ عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهَبة، وتنغيص النوم مَغْضَبة، والاحتفاظ ببيته وماله،

والإرعاء على نفسه وحَشَمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحَشَم جميل حسن التدبير. ولا تفشي له سرا، ولا تعصي له أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أَوْغَرْتِ صدره. ثم اتَّقِي مع ذلك الفرحَ إن كان تَرِحًا، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحًا، فإن الخَصْلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافَقَة، يكن أطول ما تكونين له مرافَقَة. واعلمي أنك لا تَصِلين إلى ما تحبين حتى تُؤْثِري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يَخِير لكِ". لا أظن أن الأم، حتى لو كانت أديبة، يمكن أن تنهج فى حديثها الشفوى المباشر مع ابنتها هذا النهج، بخلاف ما لو قصدت أن تُخَلِّف وراءها عملا من الأعمال الأدبية التى تبقى على مدى الزمان، فإنها حينئذ تحتشد لذلك وتجتهد فى كتابة نصيحة محبَّرة موشَّاة لبنتها ولكل بنات العالمين، وكذلك للقراء والأدباء أيضا، على مدار الدهر، لكن هذا شىء آخر غير ما نحن بسبيله الآن. أم ترى هناك من يقول معترضًا: ومن أدراك بأن تلك الأم لم تُرِدْ ذلك ولم تفعله، وبخاصة أننا هنا إزاء مَلِكٍ وزوجته وحماته لا ناسٍ من عُرْض الطريق؟ على كل حال فإنى معجبٌ إعجابًا شديدًا بكلام الأم وأجده يرن فى سمعى

رنين الذهب، ويهَشّ قلبي إليه هَشَاشَ الأرض العطشى لوابل الغيث المُحْيِي!

والواقع أن انشغالى بمسألة بروز السجع والجناس وما إليه فى كثير من خطب الجاهليين سَبَبُه افتقادى لذلك فى نظيراتها من خُطَب الرسول والخلفاء الراشدين، اللهم إلا ما جاء عَفْوًا بين الحين والحين. فلماذا كان كثير من الخُطَب التى وردتنا عن عصر ما قبل الإسلام على هذا النحو من الاهتمام بالسجع والجناس والتوازن بخلاف ما عليه الخُطَب فى صدر الإسلام بوجه عام، فضلا عن أن السجع والمحسنات البديعية فيها كانت، كما يُفْهَم من الرواية، أمرا ارتجاليًّا؟ فهل يستطيع الخطباء، وبالذات فى ذلك العصر قبل أن يلتفت العرب إلى هذه التزاويق ويصبح الحرص عليها جزءا من التركيبة الذهنية الإبداعية عندهم، أن يرتجلوا كلاما مُحَسَّنا بالبديع على هذا النحو الذى نراه فى عدد من الخطب الجاهلية؟ هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. أيكون المسلمون الأوائل قد نفروا من الجرى خلف السجع بسبب ارتباطه بالكهان؟ أتراهم كانوا يُلْقُون بكل ثقلهم وراء المضمون والوصول به إلى الإقناع وتحويله إلى واقع

تطبيقى بدلا من المتعة الفنية المتمثلة هنا فى البديع فى حد ذاتها، إذ كانوا بصدد تكوين دولة تضم العرب جميعا لأول مرة فى تاريخهم المعروف، ثم بصدد صراع ضارٍ مع القوى العالمية الكبرى حولهم، صراع حياة أو موت، فلم يكن لديهم الوقت ولا البال للاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية؟ أترى الجاهليين، وهم الأميون، كانوا يعوّلون على موسيقى السجع والجناس والتوازن لتسهيل حفظ النصوص النثرية كالخطب والمنافرات؟ مرة أخرى أجدنى أقول: هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. ومع ذلك فها هو ذا الجاحظ يقرر أن العرب فى جاهليتهم كانوا يعتمدون السجع فى بعض ضروب الخطابة كالمنافرة والمفاخرة، والترسُّل فى بعضها الآخر كما هو الحال فى خطب الصلح والمعاهدات (الجاحظ/ البيان والتبيين/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ ١/ ٢٨٩- ٢٩٠، و٣/ ٦)، وهو ما يدل على أنه لا يجد فيها شيئا مما يحيك فى صدرى تجاه هذه المسألة. وأحسب أن موقف الجاحظ أحرى بالقبول من موقفى لأنه كان أعرف بالأدب العربى قبل الإسلام من واحد مثلى لقربه من عصر الجاهلية ومعرفته الموسوعية بالثقافة العربية وآدابها

كما هو معلوم للجميع، فوق أنه كان أديبا كبيرا، وبلاغيا عجيبا، وناقدا ذواقة للكلام، ودارسا ومحللا للنصوص والأساليب من الطراز الأول، ومتكلما يصعب أن يوجد له نظيرٌ مُسَامِت.

هذا، وقد وردتْنا عن الجاهليين ضروب من الخطب المختلفة الموضوعات صحيحة كانت أو مصنوعة: فمنها الخطب الوعظية كخُطَب قُسّ بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ، وخطب الصلح بين المتخاصمين كخطبة مَرْثَد الخير فى الإصلاح بين سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب. ومنها خطب التعزية كتلك التى عزَّتْ بها وفودُ العرب سلامةَ ذا فائش فى موت ابنه، وكان من بين المتكلمين يومها الملبَّب بن عوف وجعادة بن أفلح، وكذلك خطبة أكثم بن صيفى فى تعزية عمرو بن هند فى ابن أخيه. ثم خطب النكاح كالخُطْبة التى ألقاها أبو طالب فى خِطْبَة خديجة لمحمد ابن أخيه، وتلك التى قالها عامر بن الظَّرِب حين خُطِبت ابنته. ومنها خُطَب المنافرات كتلك التى تبودلت بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطُّفَيْل العامريين. ومنها خطب السفارات، كما هو الحال فى مجموعة الخطب التى خطبها بعض رؤساء العرب فى حضرة كسرى فى إيوانه. ومنها خطب الكهان والكواهن التى يتنبأون فيها بالغيب حسبما كانوا يعتقدون. ومنها خطب الوصايا كتلك الخطبة

التى ألقاها ذو الإصبع العَدْوانىّ على ابنه، ونظيرها التى ألقاها قيس بن زهير على بنى النمر بن قاسط، وكذلك الخطبة الرائعة التى يقال إن أمامة بنت الحارث قد وصَّتْ بها ابنتَها أُمَّ إياس عند زفافها على الحارث بن عمرو مَلِك كِنْدَة... إلخ. وكان العرب يخطبون فى الأسواق والمجالس والقصور الملكية وعند الكعبة وعلى نَشَزٍ من الأرض وفى الحرب. كما كانوا يخطبون وقوفًا، وعلى الرواحل، أو مسندين ظهورهم إلى الكعبة... وهكذا. وكان من عادتهم فى الخطابة، كما ألمعنا من قبل، لُبْس العمامة والإمساك بالعصا، تلك العادة التى عمل الشعوبيون على التنقص منها والإزراء على العرب بسببها، فتصدى لهم الجاحظ مبيِّنًا فضل العصا فى صفحات طويلة انثال عليه الكلام فيه انثيالا فى كتابه: "البيان والتبيين". وقد مر بنا أثناء دراستنا لهذا الفن عند الجاهليين طائفة من مشاهير خطبائهم، وهذه أسماء طائفة أخرى منهم: سهيل بن عمرو وعتبة بن ربيعة وقيس بن الشماس وسعد بن الربيع وهانئ بن قبيصة وزهير بن جناب وربيعة بن حُذَار ولبيد بن ربيعة وهرم بن قطبة الفزارى وعمرو بن كلثوم التغلبى وحنظلة بن ضرار الضبىّ.

والآن أترك القارئ مع هذه النصوص الخطابية التى وصلتنا عن ذلك العصر: فمنها خطبة مرثد الخير التى سلفت الإشارة إليها آنفا، وهذا نصها: "إن التخبط وامتطاء الهَجَاج

(أى العناد وركوب الـــرأس)، واســـتحقاب اللّجَــاج، ســـيقفكما على شَفَا هُوّة في تورُّدهــا بـــوار الأصـــيلة، وانقطـــاع الوســـيلة، فتلافَيَا أمركما قبل انتكـــاث العَهْـــد، وانحـــلال العَقْـــد، وتشـــتت الألفة، وتباين السُّهْمة (أى القرابـــة)، وأنتمـــا في فســـحةٍ رافهـــة، وقدمٍ واطدة، والمودَّة مُثْرِيَة، والبُقْيَا مُعْرِضَـــة. فقـــد عـــرفتم أنبـــاء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصـــيح، وخـــالف الرشـــيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقـــب ســـوء ســـعيهم، وكيف كان صُيُور أمورهم. فتلافَوْا القُرْحَـــة قبـــل تفـــاقم الثَّـــأي (أى قبل انتشار الفساد) واستفحال الداء، وإعـــواز الـــدواء. فإنـــه إذا سُفِكَت الـــدماء، اســـتحكمت الشـــحناء، وإذا اســـتحكمت الشحناء، تقضَّبَتْ عُرَى الإبقاء، وشمل البلاء".

ومنها خطبة قُسّ بـــن ســـاعدة الإيـــادىّ فى ســـوق عكـــاظ يلفت أنظار السامعين إلى صروف الدهر وما ينبغـــى أن يعتـــبر بـــه العاقل: "أيها الناس، اسمعوا وَعُوا: من عـــاش مـــات، ومـــن مـــات فات، وكل ما هو آتٍ آت. ليلٌ داجٍ، ونهـــارٌ ســـاجٍ، وسمـــاءٌ ذات أبراجٍ، ونجـــومٌ تَزْهَـــر، وبحـــارٌ تَزْخَـــر، وجبـــالٌ مُرْســـاة، وأرضٌ مُدْحاة، وأنهـــارٌ مُجْـــرَاة. إن في الســـماء لَخَبَـــرًا، وإن في الأرض لَعِبَرًا. ما بال الناس يـــذهبون ولا يرجعـــون؟ أَرَضُـــوا فأقـــاموا أم تُرِكوا فناموا؟ يُقْسِم قُسٌّ بالله قَسَـــمًا لا إثم فيـــه إن لله دينـــا هـــو

أرْضَى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه. إنكم لتأتون من الأمر منكرا". ويُرْوَي أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائرْ
لما رأيتُ مواردًا ... للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها ... تمضي الأكابر والأصاغرْ
لا يرجع الماضي إليّ ... ولا من الباقين غابرْ
أيقنتُ أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائرْ

ومنها كذلك خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا على إكرام حجاج البيت الحرام: "كان هاشم بن عبد مناف يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشا فيقول: يا معشر قريش، أنتم سادة العرب: أحسنها وجوها، وأعظمها أحلاما، وأوسطها أنسابا، وأقربها أرحاما. يا معشر قريش، أنتم جيران بيت الله: أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شُعْثًا غُبْرًا من كل بلد. فوَرَبِّ هذه البَنِيَّة لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتُكموه. ألا وإني مخرجٌ من طيِّب مالي وحلاله ما لم يُقْطَع فيه رَحِم، ولم يُؤْخَذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فواضِعُه. فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فَعَل، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يُخرِج رجل منكم من ماله

لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيِّبًا: لم يؤخذ ظلما، ولم يُقْطَع في رحم، ولم يُغْتَصَب".

ومنها هذه الكلمة التى نَفَّرَ فيها نُفَيْلُ بن عبد العُزَّى (جدُّ عمر بن الخطاب) عبدَ المطلب (جَدَّ الرسول) على حرب بن أمية: "تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة فأبى أن يُنَفِّر بينهما فجعلا بينهما نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رياح، فقال لحرب: يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأَوْسَم منك وسامة، وأقلّ منك ملامة، وأكثر منك ولدا، وأَجْزَل صَفَدا (أى أكثر عطاءً)، وأطول منك مِذْوَدا (أقوى لسانا). وإني لأقول هذا، وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جَلْد المريرة، جليل العشيرة، ولكنك نافرت مُنَفَّرًا. فغضب حرب وقال: إن من انتكاس الزمان أن جُعِلْتَ حَكَمًا".

ومنها وصية ذى الإصبع العَدْوانىّ لابنه عند إشرافه على الموت: "يا بُنَىَّ، إن أباك قد فَنِىَ وهو حىّ، وعاش حتى سئم العيش، وإني مُوصِيك بما إن حفظتَه بلغتَ في قومك ما بلغتُه، فاحفظ عنى: أَلِنْ جانبك لقومك يحبوك، وتواضعْ لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشئ يُسَوِّدوك (أى يجعلوك سيّدا عليهم). وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم. واسمح بمالك،

واحْمِ حريمك، وأعزز جارك، وأَعِنْ من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لك أَجَلاً لا يَعْدُوك، وصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئا، فبذلك يتم سُؤْدَدُك".

المجتمع الجاهلى من القرآن

كان عرب الجاهلية فى عمومهم يعبدون آلهة متعددة، وكانوا لا يتصورون أن يكون الإله واحدا، وعندما جاءهم الرسول الكريم بالتوحيد لقى منهم التكذيب والعنت الشديد، وأخذ الأمرُ منه زمنا طويلا حتى اقتنعوا أخيرا بما جاءهم به. بل إنه، بعد أن أنفق فى الدعوة بمكة ثلاث عشرة سنة بذل فيها كل جهد ممكن وغير ممكن وتعب تعبًا بالغًا، لم يؤمن به إلا القليلون مما اضطره هو ومن آمن معه من أهل مكة إلى الهجرة ليثرب، وعندئذ تغير وجه المسيرة الدعوية، وانتهى الأمر بأن أسلمت الجزيرة العربية كلها لا مكة فحسب. وكانوا فى بداءة الأمر يستغربون منه، عليه السلام، أن يهاجم الأوثان ويغضبون لذلك أعنف الغضب، بل لقد فكر مشركو مكة فى قتله أو فى حبسه لولا أن نبهه الله سبحانه وأمره بترك موطنه والتروح إلى بلد جديد يكون فيه مصير الدعوة الجديدة أكثر توفيقا: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال/ ٣٠). ومما نزل من الوحى فى هذا الموضوع قوله تعالى: "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ* وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ" (ص/ ٥-٦). وسبب نزول هاتين الآيتين، على ما ترويه كتب أسباب

النزول والتفاسير، أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شَقَّ ذلك على قريش فأَتَوْا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك. فاستَحْضَرَ أبو طالب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال: هؤلاء قومك يسألونك السَّوَاء، فلا تَمِلْ كل الميل عليهم. فقال صلى الله عليه وسلم: ماذا يسألونني؟ فقالوا: ارفضنا وارفض ذِكْر آلهتنا (أي اتركنا ولا تتعرض لنا ولا لها)، ونَدَعك وإلهك. فقال: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم، أَمُعْطِيَّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتَدِين لكم بها العجم؟ فقالوا: نَعَمْ، وعَشْرًا. فقال: قولوا: لا إله إلا الله. فقاموا وقالوا: "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ!". وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعدما بكَّتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين بعضهم لبعض: اصبروا واثبتوا على عبادة آلهتكم، فإن مكالمته لا تنفعكم. إن هذا الأمر لَشَيْءٌ من ريب الزمان يراد بنا فلا مردّ له، أو إن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم لشيءٌ يريده كل أحد، أو إن دينكم لشيءٌ يُطْلَب ليؤخذ منكم. ما سمعنا بالذي يقوله في الملة التي أدركْنا عليها آباءنا، أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل، فإن النصارى يثلّثون. ما هذا إلا كذبٌ اختلقه محمد. وهناك خبر

آخر يبين لنا مدى تمسك الكفار بأوثانهم وكراهيتهم أن يسمعوا فيها شيئا يخالف اعتقاداتهم بشأنها. وخلاصته، كما جاء عند الواحدى فى "أسباب النزول"، أن "خمسة نَفَر: عبد الله بن أبي أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ائْتِ بقرآن ليس فيه تَرْك عبادة اللات والعُزَّى". وجاء أيضا فى ذلك الكتاب ذاته أن "وفد ثقيف أَتَوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فسألوا شططًا وقالوا: متِّعْنا باللات سَنَةً، وحَرِّمْ وادينا كما حَرَّمْتَ مكة: شجرها وطيرها ووحشها. فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وقد تتالت الآيات التى تنبههم إلى سخف هذا اللون من التفكير والاعتقاد، لكنّ تشبُّثهم بما فى رؤوسهم كان عنيفا، وهذا يفسر التكرار الكثير لدعوة التوحيد فى القرآن الكريم والحملة على الشرك: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" (الأنعام/ ١٥١)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس/ ١٨)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا" (مريم/٨١)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً

لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا" (الفرقان/ ٣)، "وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (الذاريات/٥١)... إلخ. وقد كانوا مع ذلك يؤمنون بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض وسخَّر الشمس والقمر ونزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها: "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ" (العنكبوت/٦١)، "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ" (العنكبوت/ ٦٣)، "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ" (الزخرف/ ٩). ومع ذلك فـ"إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ* وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ" (الصافات/ ٣٥)، "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" (الزمر/٤٣- ٤٥)، إذ كانوا يعتقدون أنهم شفعاؤهم عنده سبحانه وأنهم هم الذين يقرّبونهم إلى الله زُلْفَى: "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"

(يونس/ ١٨)، "مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" (الزمر/ ٣).

وكان القرآن الكريم ينبههم دائما أن أولئك الآلهة المزعومين لا يملكون لهم شيئا من نفع أو ضر، وأن الشفاعة إنما هى لله وحده، ليس للأوثان منها أىّ نصيب: "وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ* وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ" (الأنعام/ ٩٣- ٩٤)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس/ ١٨)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا" (الفرقان/ ٣)، "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (الروم/ ١٢- ١٣)، "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ * قُلْ

لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (الزُّمَر/٤٣).

وكان من أوثانهم اللات والعُزَّى ومناة، وقد هكم القرآن على شركهم وعقليتهم المتخلفة التي تسوِّل لهم أن هذه الأوثان هي بنات الله: "أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى* أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى" (النجم/ ١٩- ٢١). وتناول المفسرون اللاَّت والعُزَّى ومناة فقالوا إن اللات كانت لثقيف بالطائف (وقيل: بنخلة) تعبدها قريش، وأوردوا ما يقال من أنها سُمِّيَتْ باسم رجل كان يَلُتّ عندها السمن بالسَّوِيق بالطائف ويُطْعِمه الحاجّ، وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثنا. أما العُزَّى فكانت لغطفان، وهي شجرةُ سَمُرَةٍ، وبَعَثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليها بعد الفتح خالدَ بنَ الوليد فقطعها، فخرجت منها، كما تقول بعض الروايات، شيطانة منشورة الشعر تصيح: يا ويلاه، وهى واضعة يدها على رأسها، فجعل يضرب بالسيف حتى قتلها، ورجع فأخبر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام: تلك العُزّى، ولن تُعْبَد أبدا. وأما مَنَاة: فصخرة كانت لِهُذَيل وخُزَاعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت لثقيف. وكأنها سُمِّيَتْ: "مناة" لأنّ دماء النسائك كانت تُمْنَى عندها، أي تُرَاق. وجاء فى "أسباب الترول" للواحدى أن "الأنصار كانوا يحجّون لمناة،

وكانت مناة حَذْوَ قُدَيْد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة".

وكانت هناك أوثان أخرى ذكرت أسبابُ النزول اثنين منها هما إساف ونائلة، اللذان تقول الروايات إنهما كانا على الصفا والمروة على الترتيب. يقول الواحدى: "كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له: إساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تُدْعَى: نائلة. فزعم أهل الكتاب أنهما زَنَيا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ووضعهما على الصفا والمروة ليُعْتَبَر بهما. فلما طالت المدة عُبِدَا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مَسَحوا الوَثَنَيْن". وكان المشركون يقولون إنّ هذه الأصنام هي بنات الله، وكانوا يعبدونها ويزعمون أنها شفعاؤهم عند الله تعالى رغم نفورهم من البنات ووأدهم لهن، فقيل لهم: "ألكُمُ الذَّكرُ ولهُ الأُنثى؟"، إذ كانوا، كما قلنا، يكرهون خِلْفَة الإناث، فأراد الله أن يَلْفِتهم إلى سخافة تفكيرهم وحُمْق تصرفهم حين ينسبون إليه الإناث اللاتى يكرهونهن بل يقتلونهن أحيانا، ثم يختصون أنفسهم بالذُّكْران!

على أن هذه الأصنام ليست هي وحدها بنات الله وشركاءه، بل هناك الجن والملائكة أيضا: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يَصِفُونَ" (الأنعام/ ١٠٠)، "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ* لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ" (الأنبياء/٢٦- ٢٨)، "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سبأ/ ٤٠- ٤١)، "فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ* أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ* أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ* وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ* أَفَلا تَذَكَّرُونَ* أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ* فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ" (الصافات/ ١٤٩- ١٥٨)، "وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ* أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ* وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ" (الزخرف/ ١٥- ١٩)، وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (الذاريات/ ٥١)، "أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ" (الطور/

٣٩)، "إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى" (النجم/ ٢٧).

وقيل إن المقصود فى آية "الأنعام" ليس الجن بل الملائكة، الذين عبدهم عرب الجاهلية قائلين إنهم بنات الله، وقد سماهم القرآن: "جِنًّا" لاجتنانهم (أى لاختفائهم)، تحقيرا لشأنهم. وقيل: بل المقصود بـ"الجن" الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو لأنهم كانوا يقولون إن الله خالق الخير وكلّ ما هو نافع، والشيطان خالق الشر وكلّ ما هو ضارّ. وبقريبٍ من هذا فسَّر ابن الكلبى النص القرآنى، إذ قال حسبما نقل الواحدى: "نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان، والله خالق الناس والدوابّ، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب". وقد حاول الزمخشرى، فى تفسيره لآيات "الصافات"، أن يسوِّغ تسمية الملائكة: "جِنًّا" بقوله إن جنس الملائكة والشياطين واحد، وهو جنس الجن، "ولكنَّ مَنْ خَبُثَ من الجن ومَرَدَ وكان شرًّا كله فهو شيطان، ومن طَهُرَ منهم ونَسُكَ وكان خيرًا كله فهو مَلَك. فذَكَرَهم في هذا الموضع باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعًا منهم وتقصيرًا بهم".

أما أنا فأرى أن الجن هنا إنما هم الجن الذين نعرفهم لا الملائكة، وليس هناك أى دليل على أن الجن فى هذه الآية أو

فى أى موضع آخر من القرآن المجيد هم الملائكة. وإن فى القول بذلك لَخَلْطًا بين الألفاظ والمفاهيم يفسد تفسير القرآن إفسادا. ثم لماذا يحقِّر القرآن الملائكة، وهم عباد مُكْرَمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرون ولا يعرفون معنى الاستكبار حسبما وصفهم الله سبحانه فى الآية ٥٠ من سورة "النحل" والآيتين ٢٦- ٢٧ من سورة "الأنبياء"، ولا ذنب لهم فى أن العرب كانوا يشركونهم بالله؟ كما أن قوله تعالى: "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سبأ/ ٤٠- ٤١) هو أكبر دليل على أن الجن شىء، والملائكة شىء آخر، فها هم أولاء الملائكة تنكر أن يكون المشركون قد عبدوهم، وتؤكد فى الوقت ذاته أنهم إنما كانوا يعبدون الجن، بما يعنى أن كلا منهما فريق مختلف تماما عن الفريق الآخر. وليس بعد قول لله قول! ثم إن الجن مكلَّفون، أما الملائكة فهم لا يعصون الله فى شىء، مما يدل على أنهم غير داخلين فى التكليف، وإلا لكان منهم المطيعون والعصاة، فضلا عن أن الجن مخلوقون من نار حسبما صرَّح القرآن الكريم، والملائكة ليسوا كذلك. ومعنى قوله تعالى: "وخَرَقوا له بنين وبناتٍ بغير علم" أنهم افْتَرَوْا بجهلٍ فاحشٍ زاعمين أن له سبحانه بنين وبنات، فقالت اليهود: عُزَيْرٌ ابن

الله، وقالت النصارىٰ: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله. وكان "بنو مليح يعبدون الملائكة" كما جاء على لسان ابن الزِّبَعْرَى فى سبب نزول قوله تعالى: "إِنَّكُم وَما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُم لَها وارِدونَ". وكان الجن فى نظرهم يعلمون الغيب، ولهذا حكى القرآن الكريم قصتهم مع سليمان عليه السلام وكيف أنهم ظلوا يعملون فى السخرة تحت إمرته حتى بعد أن مات، إذ كانوا يَرَوْنَه مستندا بذقنه إلى العصا فيحسبون أنه لا يزال حيا، إلى أن أكلت النمل العصا فخرّ عليه السلام. فعندئذ، وعندئذ فقط، عرفوا أنه قد مات. ولو كانوا يعلمون الغيب ما ظلوا يعملون ويقاسون فى تلك السخرة العذاب المهين: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ" (سبأ/ ١٤).

ولم يكن جمهور العرب يؤمنون بالآخرة، فلا بعث عندهم ولا حساب، وليس إلا الدنيا، التى إذا ما انتهت فقد انتهى كل شيء بالنسبة للإنسان. وكانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون مَلَك الموت وقَبْضَ الأرواح بأمر الله. وكانوا يضيفون كل حادثةٍ تَحْدُث إلى الدهر والزمان، فالدهر يُفْنِي ولا يعيد من يُفْنِيه. وكانوا يجادلون النبى

فى ذلك مجادلة لا تنتهى، محتجين بأنه من غير الممكن أن يعود الإنسان إلى الحياة كرة أخرى بعد أن يصبح عظاما ورُفاتا، وإلا فأين آباؤهم الأولون؟ ولماذا لم يرجعوا إلى الحياة من قبل؟ وإذا كانت هناك آخرة فلماذا لا تأتى؟ وإن كثرة الآيات التى تتناول هذا الموضوع وتعرض جدالهم وسَخرهم بما كانوا يسمعون من الآيات القرآنية التى تتحدث عن البعث لدليل على أن نكرانهم كان من القوة والحدة بمكان: "وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا* قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا* أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا" (الإسراء/٤٩- ٥١)، "وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا" (مريم/ ٦٦)، "يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ

اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ" (الحج/ ٥- ٧)، "قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ" (النمل/ ٨٢- ٨٣)، "بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا" (الفرقان/ ١١)، "وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (السجدة/ ١٠)، "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" (سبأ/ ٣)، "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ" (الصافات/ ١٦- ١٧)، "إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ* إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ* فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الدخان/ ٣٤- ٣٦)، "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ* وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجاثية/ ٢٤- ٢٥)، "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ" (ق/ ٣)، "قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ* يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ" (الذاريات/ ١٠- ١٢)، "زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (التغابن/ ٧)، "يَقُولُونَ أَئِنَّا

لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ* أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً* قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ" (النازعات/ ١٠- ١٢).

ومما رُوِىَ عن الكفار فى هذا المجال "أن أبي بن خلف أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظمٍ بالٍ يفتّته بيده، وقال: أترى الله يُحْيِي هذا بعدما رُمّ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: نَعَمْ، ويبعثك ويدخلك النار". كما رُوِىَ أن عُتْبَة وشَيْبَة وأبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا البَخْتَرِيّ والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تُعْذَروا به. فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم سريعا وهو يظن أنه بدا في أمره بَدَاء (أى غيروا موقفهم منه)، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه تعنُّتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نَعْلَم رجلاً من العرب أَدْخَلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك. لقد شتمت الآباء وعِبْتَ الدين وسَفَّهْتَ الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، وما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت به لتطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سَوَّدْناك علينا، وإن كنت تريد مُلْكًا ملَّكْناك علينا، وإن كان هذا الرَّئِيُّ الذي يأتيك تراه قد غلب

عليك (وكانوا يسمّون التابع من الجن: الرَّئِــيّ) بــذلنا أموالنــا في طلب الطب لك حتى نُبْرِئك منه أو نُعْــذَر فيــك. فقــال رســول الله صلى الله عليه وسلم: مــا بي مــا تقولــون. مــا جئــتكم بمــا جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فــيكم ولا الملــك علــيكم، ولكن الله عز وجل بعثني إلــيكم رســولاً وأنــزل علــيَّ كتابــا، وأمرني أن أكــون لكــم بشــيرا ونــذيرا فبلَّغــتُكم رســالة ربي ونصحتُ لكم. فإن تقبلوا مني مــا جئــتكم بــه فهــو حظكــم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أَصْبِر لأمر الله حــتى يحكــم بــيني وبينكم. قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غير قابل منا مــا عرضْــنا فقــد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أَضْــيَق بــلادا ولا أقــلّ مــالاً ولا أشدّ عيشا منا. سَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثــك، فلْيُسَــيِّرْ عنــا هذه الجبال التي ضيّقَتْ علينا ويبســط لنــا بلادنــا ويُجْــرِ فيهــا أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مضــى مــن آبائنــا، وليكن ممن يُبْعَث لنا منهم قُصَيّ بــن كــلاب، فإنــه كــان شــيخًا صَدُوقًا، فنسألهم عما تقول: حَقٌّ هو؟ فــإن صــنعتَ مــا ســألناك صدَّقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنــه بعثــك رســولاً كمــا تقول". ووجه الشاهد فى الخبر أنهم تحدَّوْه، ضمن مــا تحــدَّوْه بــه، أن يأتى لهم بمن مات من آبائهم، وعلى رأســهم جَــدّه قُصَــيّ بــن كلاب، إذ كانوا، كما قلنــا، يَــرَوْنَ استحالة عــودة الميــت إلى

الحياة، أما من يقول بغير هذا فعليه أن يُثْبِت ما يقول ويعيد الموتى إلى الدنيا كرة أخرى!

وثمة خبر فى "أسباب النزول" للواحدى يفسّر سبب نزول قوله عز وجل: "وَأَقسَموا بِاللهِ جَهدَ أَيمانِهِم لا يَبعَثُ اللهُ مَن يَموتُ"، وفيه أنه "كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دَيْن فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلّم به: والذي أرجوه بعد الموت. فقال المشرك: وإنك لتزعم إنك لَتُبْعَث بعد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فأنزل الله تعالى هذه الآية". وكانوا يتهكمون بما ينزل به القرآن فى أوصاف الجنة والنار، كالذى يُرْوَى عن أبي جهل من أنه "لما ذكر الله تعالى الزَّقُّوم خُوِّف به هذا الحي من قريش، فقال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد...؟ قالوا: لا. قال: الثَّريد بالزبد! أمَا والله لئن أمكننا منها لنتزَقَّمَنَّها تزَقُّمًا. فأنزل الله تبارك وتعالى: "وَالشَجَرَةَ المَلْعُونَةَ في القُرآنِ وَنُخَوِّفُهُم فَما يَزيدُهُم إلا طُغْيَانًا كَبيرًا"...". ومن هذا الوادى أيضا ما جاء فى بعض الروايات من أن "خَبّاب بن الأَرَتّ كان قَيْنًا، وكان يعمل للعاص بن وائل السَّهْمِيّ، وكان العاص يؤخر حقه، فأتاه يتقاضاه، فقال العاص: ما عندي اليوم ما أَقْضِيك. فقال: لستُ بمفارقك حتى تقضيني. فقال العاص: يا خباب، مالك؟ ما كنتَ هكذا! وإنْ كنتَ لَتُحْسِن الطلب. فقال

خباب: ذاك أني كنتَ على دينك، فأما اليوم فأنا على الإسلام مفارق لدينك. قال: أولستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضةً وحريرًا؟ قال خَبّاب: بلى. قال: فأَخِّرْني حتى أقضيك في الجنة، استهزاءً. فوالله لئن كان ما تقول حقًّا، إني لأفضل فيها نصيبًا منك". وكان هذا الاستهزاء يتكرر كلما نزل شيء من القرآن فى تعداد نِعَم الجنة، ومن ذلك ما ورد فى النص التالى لدى الواحدى: "كان المشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ولا ينتفعون به، بل يكذبون به ويستهزئون ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لَنَدْخُلَنَّها قبلهم، ولَيَكُونَنَّ لنا فيها أكثر مما لهم. فأنزل الله تعالى هذه الآية: "أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنهُم أن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ* كَلاَّ"...".

فإذا انتقلنا إلى العبادات الجاهلية وجدنا مثلا قوله تعالى: "إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ" (الأنفال/ ١٩). أى أنهم كانوا يتجهون بالدعاء لله، وقد سلف القول إنهم كانوا يؤمنون بوجوده سبحانه، وإن عَزَّ على عقولهم المغلقة أن تفهم أن الله بطبيعته لا يمكن أن يكون إلا إلها واحدا، بل كانوا يشركون به آلهة أخرى. ومعنى الاستفتاح هو الدعاء إلى الله أن يظهر لهم الحق من الباطل. وقد وردت أكثر من رواية فى ذلك فى تفسير الطبرى فقيل: "كان

المشركون حين خرجوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة (أى فى غزوة بدر) أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا: اللهمّ انصر أعَزّ الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين. فقال الله: "إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْحُ". يقول: نَصَرْتُ ما قلتم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم"، وقيل: "استفتح أبو جهل فقال: اللهمّ، أيُّنا (يعني محمدا ونفسه) كان أَفْجَرَ لك اللهمّ وأَقْطَعَ للرَّحِم فأَحِنْهُ (أى أَهْلِكْه) اليوم. قال الله: إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْحُ". كما نقرأ فى ذات السورة قوله سبحانه: "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" (الأنفال/ ٣٢- ٣٣). وقد جاء فى تفسير الطبرى: "قال رجل من بني عبد الدار يقال له: النضر بن كِلْدَة: "اللّهُمّ إنْ كانَ هَذا هُوَ الحَقّ مِنْ عِنْدكَ فَأمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السّماءِ أوِ ائْتِنا بِعَذَابٍ ألِيمٍ". فقال الله: "وَقالُوا رَبّنا عَجّلْ لَنا قِطّنا قَبْلَ يَوْمِ الحِسابِ"، وقال: "وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادَى كمَا خَلَقْناكُمْ أوّلَ مَرّةٍ"، وقال: "سَأَلَ سائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ* لِلْكافِرِينَ...". قال عطاء: لقد نزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله". أما فى تفسير الآية الثانية فقد أورد فيها، ضمن ما

أورد، قول من قال: وما كان الله ليعذّب هؤلاء المشركين من قريش بمكة وأنت فيهم يا محمد، حتى أُخْرِجك من بينهم، وَما كانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهؤلاء المشركون يقولون: يا ربّ غفرانك، وما أشبه ذلك من معاني الاستغفار بالقول... وقوله: وَما لَهُمْ ألاّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ؟ (أى) في الآخرة". أى أنهم، رغم شركهم، كانوا يدعون الله بما يريدون على غباء فيهم وعناد وانغلاق ذهن وقلب! كما أنهم، رغم شركهم، كانوا يستغفرون الله كما جاء فى بعض الأقوال!

ومن عباداتهم كذلك ما ورد فى قول رب العزة: "وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " (الأنفال/ ٣٥)، وتفسيره ما ورد عند شيخ المفسرين: "كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: "قُلْ مَنْ حَرّمَ زِينَةَ اللّهِ التي أخْرَجَ لِعِبادِهِ"، فأُمِروا بالثياب... كانت قريش يعارضون النبيّ صلى الله عليه وسلم في الطواف يستهزئون به، يصفرون به ويصفقون... كانوا ينفخون في أيديهم". كما أن فى القرآن آية تنهى عن السجود للشمس أو القمر، مما يدل على أن هناك من كانوا يسجدون لهما: "وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا

لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّـهِ الَّـذِي خَلَقَهُـنَّ إِنْ كُنْـتُمْ إِيَّـاهُ تَعْبُـدُونَ" (فُصِّلَتْ/ ٣٧).

ولعل القارئ قد تنبه لمـا جـاء فى كـلام الطـبرى مـن أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت الحرام عـراة، وإن كنـت أتصـور أن يكون بعضهم فقط هم الـذين يفعلـون ذلـك لا كلـهم. وفى تفسير قوله تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَـا عَلَـيْكُمْ لِبَاسًـا يُـوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِـكَ مِـنْ آيَـاتِ اللَّـهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ* يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَـنَّكُمُ الشَّـيْطَانُ كَمَـا أَخْـرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَـهُمَا لِيُرِيَهُمَـا سَـوْآتِهِمَا إِنَّـهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَـا الشَّـيَاطِينَ أَوْلِيَـاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَـالُوا وَجَـدْنَا عَلَيْهَـا آبَاءَنَـا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُـونَ عَلَـى اللَّـهِ مَا لا تَعْلَمُونَ* قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُـوهَكُمْ عِنْـدَ كُـلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَـا بَـدَأَكُمْ تَعُـودُونَ* فَرِيقًـا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَـذُوا الشَّـيَاطِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَـبُونَ أَنَّهُـمْ مُهْتَـدُونَ* يَـا بَنِـي آدَمَ خُـذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْـجِدٍ وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلا تُسْـرِفُوا إِنَّـهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ اللَّـهِ الَّتِـي أَخْـرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّـذِينَ آمَنُـوا فِـي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَـةِ كَـذَلِكَ نُفَصِّـلُ الآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ"

(الأعراف/ ٣٦- ٣٢) يقول الطبرى ما زُبْدَته أنــه، جــلّ ثنــاؤه، يبين للجهلة من العرب الذين كــانوا يتعَــرَّوْن أن لبــاس التَقــوَى هو الحياء. وقد ابتدأ سبحانه الخبر عــن إنزالــه اللبــاس الــذي يــواري سَــوْآتنا والرِّيــاش توبيخــا للمشــركين الــذين كــانوا يتجرّدون في حــال طــوافهم بالبيــت، ويــأمرهم بأخــذ ثيــاهم والاستتار ها في كلّ حال مع الإيمان به واتبــاع طاعتــه، إذ كــانوا يطوفون بالبيت عُراةً متحججين بقــولهم: "نطــوف كمــا ولــدتنا أمّهاتنا"، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسْعة أو الشيء فتقول:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلّه فَمَا بَــدَا مِنْهُ فَلا أُحِــلّهُ

فعُذِلوا على ما أَتَوْا من قَبيح فعلهم وعُوتبــوا عليــه، فكــان جواهم: وجدنا على مثل ما نفعــل آباءنــا، فــنحن نفعــل مثلمــا كانوا يفعلون، ونقتدي بَهْديهم ونستنّ بسُــنّتهم، والله أمرنــا بــه، فنحن نتبع أمره فيه. فيقول الله جلّ ذكره لنبيــه محمــد صــلى الله عليه وسلم: قل يا محمــد لهــم إن الله لا يــأمر بالفحشــاء، أى لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومَساويها. أتقولون، أيهــا النــاس، علــى الله ما لا تعلمون؟ أتَرْوُون على الله أنه أمــركم بــالتعرّي والتجــرّد من الثياب واللباس للطــواف، وأنــتم لا تعلمــون أنــه أمــركم بذلك؟ لقد كانوا يطوفــون عــراة: الرجــال بالنــهار، والنســاء بالليل، فأمرهم الله بالزينة، والزينــة: اللبــاس. وكانــت العــرب تطوف بالبيت عراةً إلا الحُمْس: قريش وأحلافهم.

وكانت قريش ومَنْ وَلَدَتْه قريش، وهم الذين كانوا يُسَمَّوْن في الجاهلية: "الحُمْس"، يقولون: لا نخرج من الحَرَم. فكانوا لا يشهدون موقف الناس بعَرَفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم والإفاضة من عَرَفات، وهي التي كان يُفيض منها سائر الناس غير الحُمْس. وعن عائشة: كانت قريش ومن كان على دينها، وهم الحُمْس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن قَطين الله. ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكني الحِلّ مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، فيَحِلّ لهم ما يحلّ لهم، ويَحْرُم عليهم ما يَحْرُم عليهم. وكانت كِنانة وخُزَاعة قد دخلوا معهم في ذلك، ثم ابتدعوا في ذلك أمورا لم تكن، حتى قالوا: لا ينبغي للحُمْس أن يَأْقِطوا الأَقِط، ولا يَسْلأوا السَّمْن وهم حُرُم، ولا يدخلوا بيتا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الجلد طَوَال إحرامهم. ثم غالَوْا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعامٍ جاءوا به معهم من الحلّ في الحَرَم إذا جاءوا حُجّاجًا أو عُمّارًا، ولا يطوفوا بالبيت إذا قَدِموا أوّل طوافهم إلا في ثياب الحُمْس، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة. فحَمَلُوا العربَ على ذلك، وكان مَنْ سواهم يقفون بعرفة، فأمرهم الله بالوقوف

معهم: "ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (البقرة/ ١٩٩). وكان القوم في جاهليتهم، بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فكانوا يذكرون آباءهم في الحج: فيقول بعضهم: كان أبي يطعم الطعام، ويقول بعضهم: كان أبي يضرب بالسيف، ويقول بعضهم: كان أبي جَزّ نواصي بني فلان. فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكرهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، فترل قوله عز وجل: "فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا" (البقرة/ ٢٠٠).

وكان الأنصار في الجاهلية إذا أَهَلّ أحدهم بحجّ أو عُمْرة لا يدخل دارا من بابها إلا أن يتسوّر حائطا، وأسلموا وهم كذلك. فأنزل الله تعالى ذكره: "وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (البقرة/ ١٨٩)، ونهاهم عن صنيعهم ذاك، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها. فلما حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجّة الوداع أقبل يمشي ومعه رجل من أولئك، وهو مسْلم. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم باب البيت احتبس الرجلُ خلفه وأبى أن يدخل قائلا: يا رسول الله، إني أَحْمَس.

يقصد أنه مـحْرِم، وكان أولئك الذين يفعلـون ذلـك يُسَـمَّوْن: "الـحُمْس". فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "وأنـا أيضـا أَحْمَسُ (أى أنـه عليـه السـلام مـن قـريش)، فـادْخُـلْ"، فدخـل الرجل.

وكـان فى تعـاملات أهـل الـجاهلـية بَغْـيٌ وطاعـةٌ للشيطان، فكان الـحَيّ مـثلا إذا كـان فـيهم عُـدَةٌ ومَنَعـة، فقَتَل عبدُ قومٍ آخرين عبدًا لهم، قـالوا: "لا نَقْتُـل بـه إلا حُـرًّا"، تعزُّزًا لفضلهم علـى غيرهم فـي أنفسـهم، وإذا قتلـت امـرأةُ قومٍ آخرين امرأةً لهم، قالوا: لا نَقْتُـل بهـا إلا رجـلاً. فـأنزل الله هذه الآية يخبرهم أن العبد بـالعبد والأنثـى بـالأنثى، فنـهاهم عن البغي: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا كُتِـبَ عَلَـيْكُمُ الْقِصَـاصُ فِـي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَـنْ عُفِـيَ لَـهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَـاعٌ بِـالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْـهِ بِإِحْسَـانٍ ذَلِـكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَـدَى بَعْـدَ ذَلِـكَ فَلَـهُ عَـذَابٌ أَلِيمٌ" (البقرة/ ١٧٨).

وكان اليتامى يُظْلَمـون ولا يُرْحَمـون وتُؤْكَـل حقـوقهم، وقد نزلت فيهم آيات متعددة: "أَرَأَيْـتَ الَّـذِي يُكَـذِّبُ بِالـدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِـيمَ* وَلا يَحُـضُّ عَلَـى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ" (الماعون/ ١– ٣)، "فَلا اقْـتَحَمَ الْعَقَبَـةَ* وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الْعَقَبَـةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِـي يَـوْمٍ ذِي مَسْـغَبَةٍ* يَتِيمًـا ذَا مَقْرَبَـةٍ* أَوْ

مسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ" (البلد/ ١١- ١٦)، "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة/ ١٧٧)، "كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ* وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ* وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا" (الفجر/ ٢٠)، "وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ" (الأنعام/ ١٥٢، والإسراء/ ٣٤)، "وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا* وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا* وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا* وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلا مَعْرُوفًا* وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا

أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" (النساء/ ٢- ٦)، "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا" (النساء/ ١٠)، "وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا" (النساء/ ١٢٧).

وبالنسبة للآيات المارّ ذكرها فى صدر سورة "النساء" يقول ابن عطية فى "المحرَّر الوجيز" إنها فى أوصياء الأيتام، والمراد ما كان بعضهم يفعله من تبديل الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف من ماله، وإن أولئك اليتامى كانوا ممنوعين من الميراث ومحجورين. والآية نصٌّ في النهي عن قصد مال اليتيم بالأكل والتموّل على جميع وجوهه. وقالت عائشة رضي الله عنها: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال وليّاتهم فيريدون أن يبخسوهن في المهر لمكان ولايتهم عليهن، فقيل لهم: أَقْسِطوا (أى اعدلوا) في مهورهن. فمن خاف ألا يُقْسِط فلْيتزوجْ ما طاب له من الأجنبيات اللواتي يكايسن في حقوقهن (أى يدافعن عنها

ويناضلن دونها). ويقول الثعالبى، فى تفسيره المسمًّى: "الجواهر الحسان فى تفسير القرآن"، إن النهي فى الآية ١٢٧ من سورة "النساء" خاصّ بـ"ما كانت العرب تفعله من ضَمّ اليتيمة الجميلة بدون ما تستحقه من المهر ومن عَضْل الدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل". وفى "أكل التراث" المنهى عنه فى سورة "الفجر" يقول إنهم كانوا لا يورِّثون النساء ولا صغار الأولاد، إنما كان يأخذ المالَ من يقاتل ويحمي الحَوْزَة. وقد أورد ابن عطية حديثًا للنبى صلى الله عليه وسلم عما رآه ليلة الإسراء جاء فيه: "رأيت أقواما لهم مَشَافِرُ كمشافر الإبل، وقد وُكِّلَ بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يَجْعَل في أفواههم صخرا من نار تخرج من أسافلهم. قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما". وأورد الزمخشرى ما رُوِيَ من "أنه يُبْعَث آكِلُ مال اليتيم يوم القيامة، والدُّخَان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه، فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا".

وكان ثَمَّ ظلم شنيع يقع على الصغار فى ذلك المجتمع الوثنى، وهو ما كانت تمارسه بعض القبائل من وأد البنات، تلك العادة الوحشية التى ندَّد بها القرآن مرارا ونهى عنها وشدد فى النهى تشديدا عظيما: "وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ

دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ" (الأنعام/ ١٣٧)، "وَلا تَقْتُلُوا أَولادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ" (الأنعام/ ١٥١)، "وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا" (الإسراء/ ٣١)، "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (النحل/ ٥٨- ٥٩)، "أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" (الزخرف/ ١٦- ١٨). وفى هذه العادة المتوحشة يقول البغوى، عند تفسير الآيات ٥٨- ٥٩ من سورة "النحل"، إن "مُضَرَ وخُزَاعَةَ وتَميمًا كانوا يدفنون البنات أحياء خوفا من الفقر عليهن وطَمَعِ غير الأَكْفَاء فيهن. وكان الرجل من العرب إذا وُلِدَتْ له بنت وأراد أن يستحييها ألبسها جُبَّةً من صوف أو شعر وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسيةً قال لأمها: "زَيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها"، وقد حفر لها بئرا فِي الصحراء. فإذا بلغ بها البئر قال لها: "انظري إلى هذه البئر"، فيدفعها من خلفها في البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض.

فذلك قوله عز وجل: "أيمسكه على هُونٍ أم يَدُسّه في التراب؟". وكان صَعْصَعَة عَمُّ الفرزدق (بل جَدّه فى الواقع) إذا أحس بشيء من ذلك وجَّه إلى والد البنت إبلاً، يُحْيِيها بذلك. فقال الفرزدق يفتخر به:

وعَمِّي الذي مَنَعَ الوائدا ... تِ فأحيا الوئيدَ فلم تُوأَدِ"

وفى الآية السابعة من سورة "النساء" يطالعنا قوله تعالى: "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا"، وسبب نزولها أن من العرب من لم يكن يورِّث النساء ويقول: "لا يُورَّث إلا من طاعَنَ بالرمح وقاتَلَ بالسيف"، فترلت هذه الآية. ومن ذلك أن أم كحلة مات عنها زوجها أَوْس بن سُوَيْد وترك لها بنتا، فذهب عَمّ بنيها إلى ألاَّ ترث، فذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال العَمّ: "هي، يا رسول الله، لا تقاتل ولا تحمل كَلاًّ ويُكْسَب عليها ولا تَكْسِب". ولا يقف ظلم النساء لدى عرب الجاهلية عند هذا الحد، فقد ذكرت الآيات التالية من نفس السورة ألوانا أخرى من الغبن الذى كُنّ يتعرَّضْن له على أيدى الرجال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا

وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا* وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا* وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا" (النساء/ ١٩- ٢١). وقد علّق الزمخشرى على هذا قائلا: "كانوا يَبْلُون النساء بضروب من البلايا ويظلموهن بأنواع من الظلم، فزُجِروا عن ذلك: كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة ألقى ثوبه عليها وقال: أنا أحقّ بها من كل أحد. فقيل: "لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كَرْهًا"، أي أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تُحَاز المواريث، وهن كارهات لذلك أو مُكْرَهات. وقيل: كان يمسكها حتى تموت، فقيل: لا يحلّ لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن، وهن غير راضيات بإمساككم. وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حَبَسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدي منه بمالها وتختلع. فقيل: ولا تَعْضُلوهنّ لتَذْهَبوا ببعض ما آتيتموهن. والعَضْل: الحبس والتضييق... "إلا أن يأتين بفاحشة مبينة"، وهي النشوز وشَكَاسة الخُلُق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة، أي إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن، فقد عُذِرْتم في طلب الخلع... فإن فعلتْ حَلّ لزوجها أن يسألها الخُلْع... وكانوا يسيئون معاشرة النساء فقيل لهم: "وعاشروهن بالمعروف"،

وهو النَّصَفَة في المبيتِ والنفقـةِ والإجمـالُ في القـول... "وإن أردتم استبدال زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحـداهن قنطـارًا فـلا تأخـذوا منه شيئًا أتأخذونه بهتانا وإثمًا مبينًا* وكيف تأخذونـه وقـد أَفْضَـى بعضكم إلى بعضٍ وأخذن منكم ميثاقًـا غليظـا؟". وكـان الرجـل إذا طَمَحَتْ عينه إلى استطراف امرأة بَهَـتَ الـتي تحتـه ورماهـا بفاحشة حتى يُلْجِئها إلى الافتـداء منـه بمـا أعطاهـا ليصـرفه إلى تـزوج غيرهـا. فقيـل: "وإن أردتم اسـتبدال زوجٍ...". وكـانوا يَنْكِحون رَوَابَّهم (أى زوجات آبائهم)، وناسٌ منـهم يمقتونـه مـن ذَوِي مروءاتهم، ويسمّونه: "نكاح المَقْـت". وكـان المولـود عليـه يقال له: المَقْتِيّ". وفى الطـبرى عـن ابـن عبـاس: "كـان أهـل الـجاهلـية يحرِّمون ما يحرم إلا امـرأة الأب والـجمع بـين الأختـين". وفى الحديث: "لم يصبنا عيـبٌ مـن عيـوب الجاهليـة فى نكاحها ومَقْتها".

وبالنسبة لعلاقة الفِرَاش يقـول الزمخشـرى، تعليقـا علـى قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَـنِ الْمَحِـيضِ قُـلْ هُـوَ أَذًى فَـاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُـوهُنَّ حَتَّـى يَطْهُـرْنَ فَـإِذَا تَطَهَّـرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّـهُ إِنَّ اللَّـهَ يُحِـبُّ التَّـوَّابِينَ وَيُحِـبُّ الْمُتَطَهِّـرِينَ" (البقـرة/ ٢٢٢)، إن "أهـل الجاهليـة كـانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسـوها علـى فَـرْشٍ ولم يساكنوها في بيتٍ كفِعْل اليهود والمجـوس. فلمـا نزلـت أخـذ

المسلمون بظاهر اعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم. فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله، البرد شديد، والثياب قليلة. فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرنا بها هلكت الحُيَّض. فقال عليه الصلاة والسلام: إنما أُمِرتم أن تعتزلوا مُجَامَعَتَهُنَّ إذا حِضْنَ، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفِعْل الأعاجم".

وكان المجتمع الجاهلي يقوم، فيما يقوم، على نظام الرقيق، وكان الأرقاء يعامَلون بقسوة، فأوصى الإسلام بهم خيرا، ودعا إلى التقرب إلى الله وإحراز الأجر الجزيل بعتقهم. كما وَصَّى بمساعدتهم من أموال الزكاة والكفّارات والصدقات في الافتكاك من الرق إن أرادوا المكاتبة لإعتاق أنفسهم من كسب يدهم، وكذلك مساعدتهم في الزواج والاستعفاف. ومن رحمته سبحانه بالإماء المستضعفات أنْ أنزل آية تمسح عار البِغاء وإثمه عن الأَمَة المُكْرَهة على ذلك من قِبَل سيدها القوّاد. وكان لعبد الله بن أُبَيّ رأسِ الضلال والنفاق أَمَةٌ أَمَرَها فزَنَتْ، فجاءت ببُرْد، فقال لها: ارجعي فازني. قالت: والله لا أفعل. إنْ يَكُ هذا خيرا فقد استكثرتُ منه، وإن يَكُ شرّا فقد آن لي أن أَدَعه". وقد نزل في ذلك كله قوله جل شأنه: "وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

عَلِيمٌ* وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (النور/ ٣٢- ٣٣).

وكان الجاهليون يتعاملون بالرِّبَا، بل بالربا الفاحش الذى لا يرحم، ومن هنا نرى القرآن يصور الربا صورة شديدة البشاعة، ويحمل على المرابين حملة شعواء مناديا بالرحمة والتسامح مع الضعفاء والعاجزين الذين لا يقدرون على تسديد الدَّين، أو على الأقل إنظارهم والصبر عليهم حتى يمكنهم السداد: "وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ" (الروم/ ٣٩)، "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة/٢٧٥- ٢٨٠)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (آل عمران/ ١٣٠). ولم يكن عرب الجاهلية هم وحدهم الذين يرابون، بل هناك أيضًا اليهود أساتذة الربا وشياطينه، وقد هاجمهم القرآن المجيد مبينا كيف أن الله عاقبهم عقابا شديدا جَرَّاءَ ذلك الاستغلال الإجرامى القاسى فى التعامل مع المحتاجين: "فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا* وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (النساء/ ١٦٠- ١٦١).

وحين حرّم الإسلام الربا لم يتسامح فيما كان لا يزال منه قائما، بل رفض أن يأخذ المرابون أية فوائد على قروضهم رغم أنه غض البصر عما سلف منه فى الجاهلية قبل مجيئه. وفى تفسير الطبرى: "كانت ثقيف قد صالحت النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن ما لهم من ربًا على الناس وما

كان للناس عليهم من ربًا فهو موضوع (أى مُلْغًى).
فلما كان الفتح استعمل عتّابَ بن أُسَيْد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة، وكانت بنو المغيرة يُرْبُون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير. فأتاهم بنو عمرو يطلبون رِبَاهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتّاب بن أُسَيْد، فكتب عتّاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت: "يا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ..."، فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتّاب وقال: "إِنْ رَضُوا، وَإِلاَّ فَآذِنْهُمْ بِحَرْبٍ". وقال رسول الله فى خطبته يوم الفتح: "أَلاَ إِنَّ رِبا الجاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ كُلّهُ، وَأَوّلُ رِبًا أَبْتَدِئُ بِهِ رِبَا العَبّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطّلب".

وكان المَيْسِر، وهو القِمَار، من الآفات التى ابتُلِيَ بها عرب الجاهلية، و"كانوا يتقامرون على الأموال حتى ربما بقي المقمور فقيرا فتَحْدُث من ذلك ضغائن وعداوات" كما يقول الثعالبي. وقد أورد الطبرى عن ابن عباس: "كان الرجل في الجاهلية يخاطر (أى يقامر) على أهله وماله، فأيهما قَمَرَ صاحبَه (أى غلبه فى القمار) ذهب بأهله وماله". ومن هنا

نستطيع أن نفهم تشديد التحريم لـه فى قوله سبحانه: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ" (المائدة/ ٥)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة/ ٩٠). وفى القمار يقول الطبرى إنهم "كانوا يياسرون (أى يتقامرون) على الجَزُور (وهو الجمل أو الناقة المُعَدّان للذبح)، وإذا أفلج الرجلُ منهم صاحبَه (أى كَسَبَه) نَحَرَه، ثم اقتسموا أعشارا على عدد القِدَاح (السهام). وفي ذلك يقول أعشى بني ثعلبة:

وجَزُورِ أيْسارٍ دَعَوْتُ إلى النّدَى ... ونِياطِ مُقفِرَةٍ أخافُ ضَلاَلَها"

ويزيد الزمخشرى الأمر تفصيلا فيقول: " كانت لهم عشرة أقداح، وهي الأزلام والأقلام: الفَذّ والتَّوْأم والرقيب والحِلْس والنَّافِس والمُسْبِل والمُعَلَّى والمَنِيح والسَّفِيح والوَغْد. لكل واحد منها نصيب معلوم من جَزُور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء (وقيل: ثمانية وعشرين)، إلا لثلاثة، وهي المَنِيح والسَّفيح والوَغْد. ولبعضهم:

لِيَ في الدنيا سهامٌ ليس فيهنّ رَبِيحُ ... وأساميهنّ وَغْدٌ وسفِيحٌ ومَنِيحُ

للفَذّ سهم، وللتوأم سهمان، وللرَّقيب ثلاثة، وللحِلْس أربعة، وللنَّافِس خمسة، وللمُسْبِل ستة، وللمُعَلَّى سبعة. يجعلونها في الرِّبابة،

وهي خريطة، ويضعونها على يَدَيْ عَدْل، ثم يجلجلـها (أي يحرّكهـا) ويُدْخِل يده فيُخرِج بِاسْم رَجُلٍ رَجُلٍ قِدْحًا منها. فمن خرج له قِـدْحٌ من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القِدْح. ومن خرج له قِدْحٌ مما لا نصيب له لم يأخذ شيئا وغَرِمَ ثمن الجزور كله. وكـانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك ويذمّون من لم يدخل فيه، ويسمونه: البَرَم".

وفى الآيتين تحريم للأزلام أيضا، وهى سـهامٌ ثلاثـةٌ متشـابهةٌ كانوا يضعونها فى كنانة، ثم يحركونها حتى تختلط ولا يمكـن تمييـز أحدها عن الآخر، ثم يمد الكاهن يـده فيسـحب منـها واحـدا. فإذا كان هذا السهم مكتوبـا عليـه :"افعـل"، فـإن الشـخص المُسْتَقْسِم يفعل ما كـان ينـوى أن يفعلـه، وإن خـرج السـهم المكتوب عليه: "لا تفعل"، فإنه لا يفعل مـا كـان يريـد، أمـا إذا كان السهم غير مكتـوب عليـه شـىء أُعِيـد تحريـك السـهام وبدأت عملية الاستقسام من جديد. وقد اسـتبدل الإسـلام بهـذه الطريقة الوثنية طريقـة أخـرى تـربط الإنسـان بربـه، وهـى "الاستخارة". ونترك الإمام الطبرى يشـرح الأمـر بقلمـه كمـا كتبه عند تأويله للآية الخامسة مـن سـورة "المائـدة": "ذلـك أن أهل الـجاهلـية كـان أحـدهم إذا أراد سـفرا أو غـزوًا أو نـحو ذلك أجال القِدَاح، وهـي الأزلام (أى هَـزّ الكنانـة بمـا فيها من سـهام)، وكانـت قِـدَاحا مكتوبـا علـى بعضـها:

نهاني ربي، وعلى بعضها: أمرني ربي. فإن خرج القِدْح الذي هو مكتوب عليه: "أمرني ربي" مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك. وإن خرج الذي عليه مكتوب: "نهاني ربي" كَفَّ عن المضيّ لذلك وأمسك. فقيل: "وأنْ تَستَقْسِمُوا بالأزلامِ"، لأنهم بفعلهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزلامهم أن يَقْسِمْنَ لهم. ومنه قول الشاعر مفتخرا بترك الاستقسام بها: "ولَمْ أَقْسِمْ فتَرْبُتَني القُسُومُ". وأما "الأزلام" فإن واحدها "زَلَم"، ويقال "زُلَم"، وهي القِداح التي وصفنا أمرها". وهذه الأزلام كانت عند الكهنة، وكانوا هم الذين يقومون بعملية الاستقسام حسبما أورد الطبرى عن السُّدِّيّ.

ومن الملاحظ تكرير القرآن النهى عن التطفيف فى الكيل والميزان وتوعُّده بالعقاب الشديد من يصنع ذلك. وواضح أن العرب كانوا لا يراعون القِسْطَاس المستقيم، وإلا لم يكن القرآن ليتحدث فى ذلك الموضوع ويكرر القول فيه: "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ" (الأنعام/ ١٥٢)، "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً" (الإسراء/ ٣٥)، "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" (الرحمن/ ٩)، "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ"

(المطففين/ ١- ٣). وفى الطبرى: "عن عبد الله قال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة لَيُوفُون الكيل. قال: وما يمنعهم من أن يوفوا الكيل، وقد قال الله: "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ*... * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"؟... وعن ابن عباس قال: لما قَدِمَ النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله: "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ"، فأَحْسَنوا الكيل".

إلا أننى لا أستطيع أن أفهم كيف تكون الآيات الأخيرة قد نزلت فى أهل المدينة، والسورة كلها، كما يقول الطبرى نفسه فى بداية تفسيره لها، سورة مكية! ثم إن أهل المدينة كانوا مشهورين بدماثة الطبع ولم تُعْرَف عنهم شكاسة فى الخلق والمعاملات التجارية كالذى كان مشهورا عن مكة وأهلها فى الجاهلية، علاوة على أن القرآن إنما كرّر النهى عن الغَبْن فى المكاييل والموازين فى المرحلة المكية، بخلافه فى المرحلة المدنية، التى لم ينزل فيها شىء فى ذلك. ولا ينبغى أن نغفل عن أن المكيين كانوا، فى المقام الأول، تجارًا لا زُرّاعًا كاليثربيين. بل إن الحديث عن شيوع الغش فى المعاملات التجارية فى بعض الأمم القديمة وتلاعبها فى الكيل والميزان، وهى أمة شُعَيْب عليه السلام، إنما كان فى "الأعراف" و"هود" و"الشعراء"، وهى مما نزل فى مكة لا المدينة. أفترى القرآن إذن كان يستبق الحوادث

ويهاجم اليثربيين قبل الميعاد؟ الذى أراه هو أن المقصودين بالكلام عن الكيل والميزان إنما هم المكيون قبل غيرهم، وإن كنت لا أستبعد سواهم من العرب من هذا الانحراف الخلقى. وبالمناسبة فإن الواحدى والسيوطى مثلا فى كتابيهما عن "أسباب النزول" يقولان نفس ما قاله الطبرى.

أما الطاهر بن عاشور فى "تفسير التحرير والتنوير" فيورد اختلاف العلماء فى مكية السورة أو مدنيتها، لينتهى إلى أنها مما نزل بين مكة والمدينة. ثم أضاف قائلا: "وعن القُرَظِيّ: كان بالمدينة تجار يطففون الكيل، وكانت بياعاتهم كسْبَت القمار والملامسة والمنابذة والمخاصرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السوق وقرأها، وكانت عادة فَشَتْ فيهم من زمن الشرك فلم يتفطَّن بعض الذين أسلموا من أهل المدينة لما فيه من أكل مال الناس، فأُرِيدَ إيقاظهم لذلك، فكانت مقدمة لإصلاح أحوال المسلمين في المدينة مع تشنيع أحوال المشركين بمكة ويثرب بأنهم الذين سَنُّوا التطفيف. وما أنسَبَ هذا المقصد بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها النبي صلى الله عليه وسلم لئلا يشهد فيها منكرًا عامًّا، فإن الكيل والوزن لا يخلو وقت عن التعامل بهما في الأسواق وفي المبادلات". ولكنى، رغم هذا، ما زلت أرى أن

"المطففين" سورة مكية لأسلوبها وموضوعاتها اللذين يشبهان أسلوب الوحى المكى وموضوعاته، وأقصى ما يمكن أن أفكر فيه هو أن يكون الرسول قد قرأها على أهل يثرب مُهَاجَرَه إليهم، فقد قلت إننى لا أستبعد أن يكون من العرب من كان يطفِّف فى الكيل والميزان من غير أهل مكة، إلا أن المكيين، فى نظرى، هم المقصودون أوّلاً وفى الأساس بهذه الآيات. أيًّا ما يكن الأمر فقد كان الجاهليون يتلاعبون فى مكاييلهم وموازينهم بما يأباه الخلق الشريف والذكاء التجارى الحصيف كما يصنع كثير من التجار فى المجتمعات المتخلفة مما لا نجده فى نظيراتها المتقدمة رغم أنها ربما لا تدين بدين سماوى، لكنه الحس التجارى السليم والقانون اليقظ الحريص على سلاسة الحياة وراحة البال حتى ولو لم يكن الحفاظ على القيم الخلقية فى حد ذاتها هو المراد!

وبالنسبة للأطعمة كان الجاهليون يحرِّمون البَحِيَرَة والسائبة والحامى، وفى ذات الوقت يأكلون المَيْتَة، سواء ماتت ميتة طبيعية أو كانت منخنقة أو موقوذة (وهى المضروبة ضربا شديدا حتى تموت، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى تموت ثم يأكلونها)، أو كانت متردِّية أو منطوحة. وكانوا يقولون عن الميتة إن الله قتلها، فكيف تكون حراما، ويكون ما قتله (أى ذبحه) البشر

حلالا؟ وكانوا يستغربون أن يعلن الرسول وأصحابه أنهم يتبعون أمر الله ثم يقولوا مع ذلك إن ما ذبحوه حلال، وما ذبحه الله حرام! كذلك كانوا يأكلون الدم وما أُهِلَّ به لغير الله وما ذُبح على النُّصُب. وفى كلامنا عن الأمثال فى العصر الجاهلى إشارة إلى أكلهم الدم. وفى الطبرى أنهم "كَانُوا إِذَا أَرَادُوا ذَبْح مَا قَرَّبُوهُ لآلِهَتِهِمْ سَمَّوْا اسْم آلِهَتِهِمْ الَّتِي قَرَّبُوا ذَلِكَ لَهَا وَجَهَرُوا بِذَلِكَ أَصْوَاتهمْ، فَجَرَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرهمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قِيلَ لِكُلِّ ذَابِح يُسَمِّي أَوْ لَمْ يُسَمِّ، جَهَرَ بِالتَّسْمِيَة أَوْ لَمْ يَجْهَر: "مُهِلّ". فَرَفْعهمْ أَصْوَاتهمْ بِذَلِكَ هُوَ الإِهْلال الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّه تَعَالَى". كما يقول القرطبى إن ما أُهِلَّ به لغير الله هو "ذَبِيحَة الْمَجُوسِيّ وَالْوَثَنِيّ وَالْمُعَطِّل: فَالْوَثَنِيّ يَذْبَح لِلْوَثَنِ، وَالْمَجُوسِيّ لِلنَّارِ، وَالْمُعَطِّل لا يَعْتَقِد شَيْئًا فَيَذْبَح لِنَفْسِهِ". و"النُّصُب" هى الأَوْثَان مِنْ الْحِجَارَة، وكَانَتْ تُجْمَع فِي الْمَوْضِع مِنْ الأَرْض، فَكَانَ الْمُشْرِكُون يُقَرِّبُونَ لَهَا، وَلَيْسَتْ بِأَصْنَام، لأن الصَّنَم يُصَوَّر وَيُنْقَش، وَهَذِهِ حِجَارَة. فَكَانُوا إِذَا ذَبَحُوا نَضَحُوا الدَّم عَلَى مَا أَقْبَلَ مِنْ الْبَيْت وَشَرَّحُوا اللَّحْم وَجَعَلُوهُ عَلَى الْحِجَارَة.

أما البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحامى فكانت النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ أَبْطُنًا خَمْسًا أَوْ سَبْعًا شَقُّوا أُذُنَهَا وَقَالُوا: هَذِهِ بَحِيرَة، وكَانَ الرَّجُل يَأْخُذ بَعْض مَالِه فَيَقُول: هَذِهِ سَائِبَة، وكَانُوا إِذَا

وَلَدَتْ النَّاقَةُ الذَّكَرَ أَكَلَهُ الذُّكُور دُون الإِنَاث، وَإِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا وَأُنثَى فِي بَطْن قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا، فَلا يَأْكُلُونَهُمَا. فَإِذَا مَاتَ الذَّكَر أَكَلَهُ الذُّكُور دُون الإِنَاث. وكَانَ الْبَعِير إِذَا وَلَدَ وَوَلَدَ وَلَدُه قَالُوا: قَدْ قَضَى هَذَا الَّذِي عَلَيْه، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِظَهْرِهِ وقَالُوا: هَذَا حَامٍ. وقيل أيضا: كانوا إذا نتجت (أى ولدت) الناقة خمسة أَبْطُنٍ إناثا بُحِرَتْ (شُقَّتْ) أذنها فحُرِّمَتْ، وقيل إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس ذَكَرًا بحروا أذنه فأكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها وكانت حرامًا على النساء لحمها ولبنها. وقيل: إذا نتجت الناقة خمسة أبطن من غير تقييد بالإناث شقّوا أذنها وحرَّموا ركوبها ودَرّها. والسائبة: الناقة تُسَيَّب، أو البعير يُسَيَّب نذرًا على الرجل إن سلّمه الله من مرض أو بلّغه منزله فلا يُحْبَس عن رعي ولا ماء ولا يركبه أحد. وقيل: هي التي تُسَيَّب لله فلا قيد عليها ولا راعي لها. وقيل: هي التي تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذَكَر، فعند ذلك لا يُرْكَب ظهرها ولا يُجَزّ وَبَرها ولا يَشْرَب لبَنَها إلا ضيف. والوَصِيلة قيل: هي الناقة إذا وَلَدَتْ أنثى بعد أنثى، وقيل: هي الشاة، كانت إذا وَلَدَتْ أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذَّكَر لآلهتهم. وقيل: كانوا إذا ولدت الشاةُ سبعة أَبْطُن نظروا: فإن كان السابع

ذكرا ذُبِح فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تُرِكَتْ في الغنم، وإن كان ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يُذْبَح لمكانها، وكان لحمها حرامًا على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء. والحام: الفحل الحامي ظهره عن أن يُرْكَب، وكانوا إذا رُكِبَ وَلَدُ الفحل قالوا: حُمِيَ ظهره فلا يُرْكَب، فجاء الإسلام فحرَّم هذا كله. ومن الأخبار التى وردت عن ذبحهم لآلهتهم ما رُوِىَ عن ابن عباس من "أن بلالاً لما أسلم ذهب إلى الأصنام فسَلَحَ عليها، وكان عبدًا لعبد الله بن جُدْعان، فشكا إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم ومائةً من الإبل يَنْحَرونها لآلهتهم".

وكانت الخمر شائعة بينَ الجاهليين شيوعًا مستطيرًا يعرفه كل من قرأ الشعر الجاهلى، ولقد أخذت هذه المسألة فى أول الإسلام بعض الوقت إلى أن كفّوا عن تعاطى أم الخبائث ممتثلين لأمر الله، وذلك بعد أن تدرج بهم القرآن مرحلة بعد مرحلة كما هو معروف من النصوص القرآنية حتى أقلعوا عنها إقلاعا لم يحدث من قبل ولا من بعد فى أى مجتمع أو حضارة بشرية!

والآن مع بعض النصوص القرآنية التى تتحدث فى موضوع الطعام والشراب والحلال والحرام منهما: "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ"

(البقرة/ ١٧٣)، "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ" (المائدة/ ٣)، "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ" (المائدة/ ١٠٣)، "قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ" (الأنعام/ ١٤٥)، "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ" (النحل/ ١١٥- ١١٦)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة/ ٩٠). ولا أدرى أكان من العرب الوثنيين من كان يأكل لحم الخنزير أم لا، لكن المؤكد أن النصارى كانوا وما زالوا يأكلونه رغم أنه محرَّم فى شريعة موسى عليه السلام، التى أكد المسيح أنه إنما أتى لتكميلها لا لنقضها، إلا أن بولس اليهودى ما إن دخل النصرانية حتى

أشاع فيها الاضطراب وألغى كل ما جاءت به تلك الشريعة تقريبا، ومن بين ما ألغاه تحريم الخنزير.

ولأن المجتمع العربي فى الجاهلية مجتمع رعوى فى الأساس كان اللبن من أغذيتهم الرئيسية. وكان من أطعمتهم أيضا العسل، يحصلون عليه من النحل الذى يعيش فى الجبال أو على غصون الأشجار. كما كانوا يطيِّبون شرابهم بالكافور والزنجبيل والمسك: "إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا" (الإنسان/ ٥). وقد امتنّ الله عليهم بهذا كله: "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ* وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل/ ٦٦- ٦٩)، "وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى" (محمد/ ١٥)، "وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً" (الإنسان/ ١٧)، "يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ* خِتَامُهُ مِسْكٌ" (المطففين/ ٢٥- ٢٦) .

وفى تفسير قوله تعالى على لسان الشيطان متحدثا عن بنى آدم: "ولأُضِلَّنَّهم ولأُمَنِّيَنَّهم ولآمُرَنَّهم فليُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام، ولآمُرَنَّهم فلَيُغَيِّرُنَّ خَلْق الله" (النساء/ ١١٩) يقول الزمخشرى: "تَبْتيكُهم (أى تَبْتِيك عرب الجاهلية الوثنيين) الآذان: فِعْلُهم بالبحائر. كانوا يشقّون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذَكَرًا، وحرَّموا على أنفسهم الانتفاع بها. وتغييرهم خلق الله: فَقْءُ عين الحامي وإعفاؤه من الركوب". وفى قوله سبحانه: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (الأنعام/ ١٣٦) نرى لونًا آخر من اعتقاداتهم الوثنية التى كان لها تأثير على أحكام الطعام عندهم، إذ كانوا يجعلون لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونَتَاج دوابّهم نصيبا، ولآلهتهم نصيبا من ذلك يَصْرِفونه على سَدَنَتها والقائمين بخدمتها. فإذا ذهب ما خصصوه لآلهتهم عَوَّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غني عن ذلك. وقوله: "فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله"، أي إلى المصارف التي شرع الله الصَّرْف فيها كالصدقة وصلة الرَّحِم وقِرَى الضيف. ومعنى عبارة "وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم"، أي يجعلونه لآلهتهم وينفقونه في مصالحها. وفى "الكشاف" للزمخشرى أنهم

"كانوا يعيّنون أشياءَ من حرثٍ ونتاجٍ لله، وأشـياءَ منـها لآلهتـهم، فإذا رَأَوْا ما جعلوه للّه زاكيا ناميا يزيـد في نفسـه خـيرا رجعـوا فجعلوه للآلهة، وإذا زَكَا ما جعلوه للأصنام تركـوه لهـا واعتلُّـوا بأن الله غني. وإنما ذاك لحبهم آلهتـهم وإيثـارهم لهـا". وفى قولـه سبحانه: "فلا يصـل إلى الله" يقـول: "أي لا يصـل إلى الوجـوه التي كانوا يصرفونه إليه مـن قِـرَى الضِّـيفان والتصـدق علـى المساكين"، أما قوله: "فَهُـوَ يصـل إلى شـركائهم" فمعنـاه أنهـم ينفقونه على الأوثان "في ذبح النسـائك عنـدها والإجـراء علـى سَدَنتها ونحو ذلك". أو كانوا إذا ذبحـوا مـا جعلـوه لله ذكـروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا مـا لأصـنامهم لم يـذكروا عليـه اسم الله، وهذا معنى آخر للآية الكريمة.

وفى الآيتين ١٣٨- ١٣٩ من نفـس السـورة نقـرأ قولـه عز شأنه: "وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَـرْثٌ حِجْـرٌ لا يَطْعَمُهَـا إلا مَـنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَـا وَأَنْعَـامٌ لا يَـذْكُرُونَ اسْـمَ اللَّه عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْه سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَـانُوا يَفْتَـرُونَ* وَقَـالُوا مَـا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِـذُكُورِنَا وَمُحَـرَّمٌ عَلَـى أَزْوَاجِنَـا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَـيَجْزِيهِمْ وَصْـفَهُمْ إِنَّـهُ حَكِـيمٌ عَلِيمٌ". و"الحِجْر" هو التضييق، والمقصـود أنهـم يَقْصِـرونها علـى طرفٍ دون آخر. ذلك أنهم كانوا إذا عيَّنـوا أشـياء مـن حـرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا: "لا يَطْعَمها إلا من نشـاء"، يَعْنُـون خَـدَم

الأوثان والرجال دون النساء. أما الأنعام التى حُرِّمَتْ ظُهُورهَا فهى البحائر والسوائب والَحَوامِي. ثم هناك الأنعام التى لا يُذْكَر اسم الله عليها في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام. وقيل: لا يحجّون عليها ولا يُلَبُّون على ظهورها. أى أنهم قسّموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعامٌ حِجْرٌ، وهذه أنعامٌ محرَّمة الظهور، وهذه أنعامٌ لا يُذْكر عليها اسم الله. ليس ذلك فحسب، بل كانوا يقولون أيضا: "ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا، وإن يكن مَيْتَةً فهم فيه شركاء". أى أن ما وُلِد من أجِنّة البحائر والسوائب حَيًّا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما وُلِد منها ميتًا اشترك فيه الذكور الإناث. وفى ذات السياق أيضا ورد قوله سبحانه: "وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ" (النحل/ ٥٦)، ومعناه أنهم كانوا يجعلون لآلهتهم التي لا علم لها (لأنها جماد، فهى لا تدرى ماذا يجعلون لها وماذا لا يجعلون) نصيبا مما رزقهم الله من الزروع والأنعام يتقربون بذلك إليها.

فإذا انتقلنا من موضوع الدين والعقيدة والحلال والحرام من الطعام إلى البيئة وجدنا تكرارا لذكر الجبال فى آيات كثيرة من القرآن المجيد، وهذا أمر طبيعى، فالجزيرة العربية مملوءة بالجبال: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ" (هود/ ٤٢)، "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ" (إبراهيم/ ٤٦)،

"وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَن اتَّخِـذِي مِـنَ الْجِبَـالِ بُيُوتًـا وَمِـنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل/ ٦٨)، "وَاللَّـهُ جَعَـلَ لَكُـمْ مِمَّـا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُـمْ مِـنَ الْجِبَـالِ أَكْنَانًـا" (النحـل/ ٨١)، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّـي نَسْـفًا" (طـه/ ١٠٥)، "وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِـيضٌ وَحُمْـرٌ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُهَـا وَغَرَابِيـبُ سُـودٌ" (فـاطر/ ٢٧)، "أَلَـمْ نَجْعَـلِ الأَرْضَ مِهَـادًا* وَالْجِبَـالَ أَوْتَـادًا" (النبـأ/٦- ٧)، "وَالْجِبَـالَ أَرْسَـاهَا* مَتَاعًـا لَكُـمْ وَلأَنْعَامِكُمْ" (النازعات/ ٣٢- ٣٣). كما أشـار القـرآن، فى آيـة مشهورة، إلى ظاهرة أخرى من ظواهر البيئة العربيـة هـى ظـاهرة السراب: "وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَعْمَـالُهُمْ كَسَـرَابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا" (النور/ ٣٩).

وعلى ذكر السراب فإن الماء شـحيح فى الجزيـرة العربيـة، ومن هنا فكثيرا ما يمنّ الله على العرب بإنزالـه مـن السـماء مـاء يُحْيِي الأرض بعـد موتهـا: "الَّـذِي جَعَـلَ لَكُـمُ الأَرْضَ فِرَاشًـا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَـاءً فَـأَخْرَجَ بِـهِ مِـنَ الثَّمَـرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْـتُمْ تَعْلَمُـونَ" (البقـرة/ ٢٢)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِـهِ نَبَـاتَ كُـلِّ شَـيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْـهُ حَبًّـا مُتَرَاكِبًـا" (الأنعـام/ ٩٩)، "وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُـذْهِبَ عَـنْكُمْ رِجْـزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُـوبِكُمْ وَيُثَبِّـتَ بِـهِ الأَقْـدَامَ" (الأنفـال/

١١)، "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ" (الزُّمَر/ ٢١)، "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ" (المُلْك/ ٣٠)، "وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا" (النبأ/ ١٤-١٦). والإبل هى أيضا من حيوانات الجزيرة العربية، وهى مما ورد ذكره فى كتاب الله، بل هى الحيوان الوحيد الذى لفت القرآن نظر العرب إلى عجيبة الخلق فيه: "أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" (الغاشية/ ١٧-٢٠)، ومعروف أن الجمل هو سفينة الصحراء.

وبالنسبة للمساكن التى كان يقطنها العرب فى الجاهلية فإن القرآن يشير إلى ضربين: البيوت العادية، وهى بيوت أهل الحضر، وكانوا أقل عددا فى بلاد العرب من أهل الصحراء آنذاك، ثم بيوت الوَبَر والشَّعْر والجلد، وهى الخيام، التى لا يعرف سكان البوادى غيرها نظرا لتنقلهم المستمر وراء الغيث والمرعى: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ" (النحل/ ٨٠).

أما الحيوانات والطيور والطيـور والزواحـف والحشـرات التى كانت تعيش فى بلادهم أو يعرفونها ولـو سماعـا فقـد ذكـر القرآن منها الخيل والبغال والحمير والجمـال (أو الإبـل) والبقـر والمَعْز والضأن والفيل والسَّبُع والأسـد (الـذى اسـتخدم لـه القرآن كلمة "قَسْوَرَة") والقِـرَدَة والكلـب والخنزيـر والغـراب والهدهـد والسـلوى والضـفادع والحـوت والحيـة والثعبـان والجوارح والنحـل والجـراد والبعوضـة والعنكبـوت والـذباب والنمل والقُمَّل: "إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَـثَلاً مَـا بَعُوضَـةً فَمَا فَوْقَهَـا" (البقـرة/ ٢٦)، "الْمَـنَّ وَالسَّـلْوَى" (البقـرة/ ٥٧، والأعـراف/ ١٦٠، وطـه/ ٨٠)، "بَقَـرَةٌ لا فَـارِضٌ وَلا بِكْـرٌ" (البقرة/ ٦٨)، "بَقَرَةٌ صَـفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُهَـا" (البقـرة/ ٦٩)، "إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا" (البقرة/ ٧٠)، "وَانْظُرْ إِلَـى حِمَـارِكَ" (البقـرة/ ٢٦٩)، "وَمَا أَكَـلَ السَّـبُعُ" (المائـدة/ ٣)، "وَمَـا عَلَّمْـتُمْ مِـنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُـوا مِمَّـا أَمْسَـكْنَ عَلَيْكُمْ" (المائدة/ ٤)، "فَبَعَـثَ اللَّـهُ غُرَابًـا يَبْحَـثُ فِـي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَـا وَيْلَتَـا أَعَجَـزْتُ أَنْ أَكُـونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَـوْأَةَ أَخِـي فَأَصْـبَحَ مِـنَ النَّـادِمِينَ" (المائدة/ ٣١)، "قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِـكَ مَثُوبَـةً عِنْـدَ اللَّـهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِـرَدَةَ وَالْخَنَـازِيرَ وَعَبَـدَ الطَّاغُوتَ" (المائدة/ ٦٠)، "وَمِنَ الأَنْعَـامِ حَمُولَـةً وَفَرْشًـا كُلُـوا

مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ* ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ" (الأنعام/١٤٢- ١٤٤)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ" (الأنعام/ ١٤٦)، "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ" (الأعراف/ ١٣٣)، "فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ" (الأعراف/ ١٧٦)، "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" (الأنفال/ ٦٠)، "هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً" (هود/ ٦٤)، "يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ" (يوسف/ ١٧)، "وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ" (يوسف/ ٤٣)، "وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ" (النحل/ ٨)، "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل/ ٦٨)، "وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ

بالْوَصِيدِ" (الكهـف/ ١٨)، "فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا" (الكهـف/ ٦١)، "قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى* قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى" (طـه/ ١٨- ٢٠)، "نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ" (الأنبياء/ ٧٨)، "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ" (الحج/ ٧٣)، "فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ" (الشعراء/ ٣٢)، "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ" (النمل/ ١٨)، "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ" (النمل/ ٢٠)، "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (العنكبوت/ ٤١)، "إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" (لقمان/ ١٩)، "فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ" (الصافات/ ١٤٢)، "قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ" (ص/ ٢٤)، "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا" (الجمعة/ ٧)، "كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ" (المدثر/ ٥١)، "أَفَلا

يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" (الغاشية/١٧)، "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" (الفيل/ ١).

وأما الثمار والفواكه والنباتات والأشجار التى كان يعرفها العرب فقد ذكر القرآن منها التين والزيتون والأعناب والرمان والنخيل والبقل والعَدَس والبصل والقِثَّاء والفُوم (وهو الثوم أو الحنطة) والقمح واليقطين (القَرْع) والخَمْط (الأراك) والأَثْل (الطرفاء) والسِّدْر والطَّلْح والريحان والقَضْب والأَبّ والضَّرِيع: "فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا" (البقرة/ ٦١)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (الأنعام/ ٩٩)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ" (الأنعام/ ١٤١)، "وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ" (يوسف/ ٤٣)، "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا" (الكهف/ ٣٢)، "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا" (مريم/

٢٥)، "وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ" (طـه/ ٧١)، "يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ" (النور/ ٣٥)، "وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ" (سبأ/ ١٦)، "وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ" (الصافات/ ١٤٦)، "وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ" (ق/ ٩)، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠)، "فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ* وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ" (الرحمن / ١١– ١٢)، "فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ" (الرحمن/ ٦٨)، "فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ" (الواقعة/ ٢٨– ٢٩)، "فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ" (الواقعة/ ٨٩)، "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ" (الحشر/ ٥)، "فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا*فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ" (عبس/ ٢٤– ٣٢)، "لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ" (الغاشية/ ٦)، "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ" (التين/١).

وتبقى المعادن والجواهر والملابس: "وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ" (آل عمران/ ١٤)، "فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ (أى الفضة) هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ" (الكهف/ ١٩)، "لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ

مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ" (الكهف/ ٣١)، "يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ" (الحج/ ٢٣، وفاطر/ ٣٣)، "وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ" (سبأ/ ١٠)، "وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ"(سبأ/ ١٢)، "وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ" (الزخرف/ ٣٣)، "فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ" (الزخرف/ ٥٣)، "يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ" (الدخان/ ٥٣)، "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ" (الطور/ ٢٤)، "يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ" (الرحمن/ ٢٢)، "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ" (الرحمن/ ٣٥)، "كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ" (الرحمن/ ٥٨)، "وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ" (الحديد/ ٢٥)، "وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا" (الإنسان/ ١٢)، "وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ" (الإنسان/ ١٥).

وفى القرآن المجيد أيضًا ذكرٌ لمكة ويثرب والمدينة ولسان العرب، وقريش ورحلتيها إلى الشام واليمن، والكعبة وإبراهيم أبى العرب وابنه إسماعيل، وسقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، وسبإ وعاد وثمود ومَدْيَن، وهُود وصالح وشُعَيْب، واليهود والنصارى والصابئين والمَجُوس، والشِّعْر والشعراء

والكُهّان والنفّاثات فى العُقَد، والأشهر الحُـرُم، وهـى ذو القعـدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكانوا يتوقفـون فيهـا عـن القتـال والأخذ بالثأر ويجعلونهـا شـهور هدنـة، وإن كـانوا أحيانـا مـا يستمرون فيه معوِّضين عنها بشهور أخـرى يتوقفـون فيهـا عـن المعارك، وهو ما يسمونه: "النَّسِىء". كمـا كـان الأخـذ بالثـأر تقليدا جاهليا راسخا فى أعماق الـنفس العربيـة، ولكـنْ بالمقابـل كانت مكة بما فيها الكعبة حَرَمًا آمنا لا يجـوز الأخـذ بالثـأر فيـه مهما كانت الأسباب والمغريات، ولذلك يقـال: "البلـد الحـرام"، و"البيت الحرام"، و"المسجد الحرام". وقد كان هـذا كلـه جـزءا من حياة العرب وجغرافيتهم وتـاريخهم وثقافتـهم ودينـهم: "وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَـنْ قُتِـلَ مَظْلُومًـا فَقَـدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْـلِ (بالأخـذ بالثـأر) إِنَّـهُ كَانَ مَنْصُورًا (باقتصاص الدولة من القاتل أو بأخـذها الديـة منـه لأوليـاء القتيـل حسـبما يختـارون)" (الإسـراء/ ٣٣)، "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاسِ لَلَّـذِي بِبَكَّـةَ (أى مكـة) مُبَارَكًـا وَهُـدًى لِلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَـنْ دَخَلَـهُ كَـانَ آمِنًـا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْـهِ سَـبِيلاً وَمَـنْ كَفَـرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَـنِ الْعَـالَمِينَ" (آل عمـران/ ٩٦- ٩٧)، "وَهُـوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّـةَ مِـنْ بَعْـدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا* هُـمُ الَّـذِينَ كَفَـرُوا

وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ" (الفتح/ ٢٤- ٢٥)، "لإِيلافِ قُرَيْشٍ* إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ" (قريش/ ٢)، "جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (المائدة/ ٩٧)، "وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا" (الأحزاب/ ١٣)، "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (البقرة/ ١٢٥- ١٢٩)، "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ" (الحج/ ٧٨)، "أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ

آمَنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخرِ وَجَاهَدَ فِـي سَبِيلِ اللَّـه" (التوبـة/ ١٩)، "وَقَالَت الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَـاءُ اللَّـهِ وَأَحِبَّـاؤُهُ قُـلْ فَلِـمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَـرٌ مِمَّـنْ خَلَـقَ يَغْفِـرُ لِمَـنْ يَشَـاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّه مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا وَإِلَيْه الْمَصِيرُ" (المائدة/ ١٨)، "يَا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا لا تَتَّخِـذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَـنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِـنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَـوْمَ الظَّـالِمِينَ" (المائـدة/ ٥١)، "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَـنْ آمَـنَ بِاللَّـه وَالْيَوْمِ الآخرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَـيْهِمْ وَلا هُـمْ يَحْزَنُـونَ" (المائـدة/ ٦٩)، "إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَالَّـذِينَ هَـادُوا وَالصَّـابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّـذِينَ أَشْـرَكُوا إِنَّ اللَّـهَ يَفْصِـلُ بَيْـنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ" (الحج/ ١٧)، "لَقَـدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَـنْ يَمِـينٍ وَشِـمَالٍ" (سـبأ/ ١٥)، "وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُـعَيْبًا فَقَـالَ يَـا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللَّـهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخرَ وَلا تَعْثَـوْا فِـي الأَرْضِ مُفْسِـدِينَ* فَكَـذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِـمْ جَـاثِمِينَ* وَعَـادًا وَثَمُـودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِـنْ مَسَـاكِنِهِمْ وَزَيَّـنَ لَهُـمَ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ وَكَـانُوا مُسْتَبْصِـرِينَ" (العنكبـوت/ ٣٦- ٣٨)، "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَـا يَعْبُـدُ آبَاؤُنَـا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِـيمُ الرَّشِـيدُ* قَـالَ

يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ* وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ" (هود/ ٨٧- ٨٩)، "وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" (النحل/ ١٠٣)، "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" (الشعراء/ ١٩٢- ١٩٥)، "وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا" (الأحقاف/ ١٢)، "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ" (يس/ ٦٩)، "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" (الشعراء/ ٢٢٤)، "فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ" (الطور/ ٢٩- ٣٠)، "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ* وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الحاقة/ ٤٠- ٤٣)، "وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ" (الفلق/ ٤)، "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ

يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (التوبة/ ٣٦- ٣٧)، "إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (النمل/ ٩١)، "أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا" (القصص/ ٥٧)، "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ" (العنكبوت/ ٦٧)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا" (المائدة/ ٢)، "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ" (الإسراء/ ١).

كما أبرز القرآن فى أكثر من موضعٍ تمسُّك العرب الجاهليين بما تركه لهم الأجداد والآباء من عادات وتقاليد تمسكا حديديًّا: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ" (البقرة/ ١٧٠)، "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ

اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ" (المائدة/ ١٠٤)، "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ" (الزخرف/ ٢٢).

وبالإضافة إلى الكلام عن الوثنيين نجد القرآن الكريم يتحدث عن عقائد اليهود والنصارى مبينًا أن كُلاً من الطائفتين كانوا يرددون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن اليهود كانوا يقولون إنهم لن يعذَّبوا يوم القيامة إلا أياما معدودات، وأن منهم من كان يجعل عُزَيْرًا ابن الله مثلما كان النصارى يقولون إن المسيح هو ابن الله، وإن كان الأخيرون يثلّثون الألوهية، ومنهم من كان يعبد مريم والمسيح مع الله. بل لقد اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يتبعون ما أدخلوه لهم فى الدين من عقائد وعبادات وشرائع ما أنزل الله بها من سلطان. كما ذكر القرآن تحريف الفريقين لكتبهم، ونَصَّ على الأطعمة المحرَّمة على اليهود وما أضافوه إليها مما لم يحرّمه سبحانه عليهم، وهو لحم الإبل، وأشار إلى عقيدتهم فى النبوة وأنها محصورة طبقا لدعواهم فى بنى إسرائيل، وزَعْمهم أن الله قد عَهِدَ إليهم ألا يؤمنوا بأى رسول إلا إذا أتاهم بقربان تنزل عليه من السماء نار تلتهمه، وأنه سبحانه لم يجعل عليهم فى غير اليهود سبيلا، ومن ثم كان من حقهم أن يسرقوهم ويخونوا أماناتهم معهم

دون خوف من عقاب الله، وادعائهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" (المائدة/ ١٨)، "قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجمعة/ ٦)، "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ (أى بنى إسرائيل) قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" (آل عمران/ ٢٤)، "وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (التوبة/ ٣٠- ٣١)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة/ ١٧)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ

وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ* لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (المائدة/ ٧٢- ٧٣)، "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ" (المائدة/ ١١٦)، "وَإِنَّ مِنْهُمْ (أى من اليهود) لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ" (البقرة/٧٨- ٧٩)، "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ" (النساء/ ٤٦)، "فَبِمَا نَقْضِهِمْ (أى بنى إسرائيل) مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ" (المائدة/ ١٣- ١٤)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَـادُوا حَرَّمْنَـا كُـلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَـنَمِ حَرَّمْنَـا عَلَـيْهِمْ شُـحُومَهُمَا إلاَّ مَـا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْـمٍ ذَلِـكَ جَزَيْنَـاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" (الأنعام/ ١٤٦)، "كُلُّ الطَّعَـامِ كَـانَ حِـلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِـهِ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ تُنَـزَّلَ التَّوْرَاةُ قُـلْ فَـأْتُوا بِـالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَـا إِنْ كُنْـتُمْ صَـادِقِينَ" (آل عمران/ ٩٣)، "الَّذِينَ قَالُوا (أى اليهود) إِنَّ اللَّـهَ عَهِـدَ إِلَيْنَـا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَـدْ جَـاءَكُمْ رُسُـلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُـوهُمْ إِنْ كُنْـتُمْ صَـادِقِينَ" (آل عمران/ ١٨٣)، "وَقَالَتْ طَائِفَـةٌ مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ (مـن يهود المدينة) آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّـذِينَ آمَنُـوا وَجْـهَ النَّهَـارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَـنْ تَبِـعَ دِيـنَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّـهِ أَنْ يُـؤْتَى أَحَـدٌ مِثْـلَ مَـا أُوتِيـتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَـدِ اللَّـهِ يُؤْتِيـهِ مَـنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَـنْ يَشَـاءُ وَاللَّـهُ ذُو الْفَضْـلِ الْعَظِيمِ* وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَـنْ إِنْ تَأْمَنْـهُ بِقِنْطَـارٍ يُـؤَدِّهِ إِلَيْـكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْـتَ عَلَيْـهِ قَائِمًـا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُـونَ عَلَـى اللَّـهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُـونَ" (آل عمـران/ ٧٢- ٧٥)، "وَقَـوْلِهِمْ (أى اليهود) إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّـهِ وَمَـا قَتَلُـوهُ

وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء/ ١٥٧- ١٥٨). ويبقى المجوس، وهناك آية قرآنية تتحدث عن التثنية فى الألوهية هذا نصّها: "وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ" (النحل/٥١)، وأقرب ما يمكن أن يفد إلى الذهن هنا ثَنَوِيَّة فارس، إذ كانوا يعبدون إلهين: واحدا للنور، والآخر للظلمة. وأغلب الظن أنه كان هناك عرب يؤمنون بها تأثّرًا بالفرس.

الأنساب والأحلاف والديانات والمعارف والفنون والأيام والنيران والأسواق

أنساب العرب: اتفق علماء العرب القدماء على تقسيم العرب إلى نوعين: عاربة ومستعرِبة، قائلين إن العاربة هم العرب الأوائل الذين فهّمهم الله اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها، فقيل لهم: عاربة، إما بمعنى الراسخة في العروبية، وإما بمعنى المبتدعة لها. وقد يقال لهم: العرب العَرْباء. وأما المستعربة فهم الذين دخلوا في العروبية من بعد العُجْمَة. ثم اختُلِف في من هم العرب العاربة ومن هم العرب المستعربة، فذهب بعضهم إلى أن العاربة هم عاد وثمود وطَسْم وجَدِيس وأَمِيم وعَبِيل والعمالقة وعبد صنم وجُرْهُم وحضرموت وحَضُوراء وبنو ثابر والسَّلَف ومن في معناهم. والمستعربة هم بنو قحطان بن عابر وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابر وإسماعيل عليه السلام كانت عجمية، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان في زمانهم، وتعلم بنو إسماعيل العربية من جُرْهُم ومن بني قحطان حين نزلوا عليه وعلى أمه بمكة. وذهب آخرون إلى أن بني قحطان هم العاربة، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط. كذلك قسم المؤرخون أيضًا العرب إلى بائدة وغيرها: فالبائدة هم الذين بادوا ودَرَسَتْ آثارهم كعاد وثمود وطَسْم وجَدِيس وجُرْهُم الأولى. ويلحق بهم مَدْيَن، فإنهم ممن ورد القرآن

بهلاكهم. وغير البائدة هم الباقون في القرون المتأخرة بعد ذلك كجُرْهُم الثانية وسَبَإ وبني عدنان. ثم منهم من باد بعد ذلك كجُرْهُم، ومنهم من تأخر حتى الآن كبقايا سَبَإ وبني عدنان.

وينقسم العرب إلى قبائل، والقبيلة هي عماد الحياة في البادية، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله. والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاها هو "النسب"، ويفسّر ذلك ارتباطُ أبناء القبيلة كلها بنسب واحد ودم واحد. ويرجع أهلُ الأنساب نسبَ كل قبيلة إلى جدّ أعلى، ثم يرجعون أجداد القبائل إلى أجدادٍ أقدم... وهكذا، حتى يصلوا إلى الجَدَّيْن الأخيرين: قحطان وعدنان. وقد حفظت الكتابات العربية الجنوبية أسماء عدد كبير من القبائل لم يعرف أسماءَ أكثرها أهلُ الأخبار، وهي تفيدنا فائدة كبيرة في الوقوف على تلك القبائل التي كانت قد هلكت أو انحلّت واختلطت بالقبائل الأخرى. وتتألف القبيلة من بيوت يختلف عددها باختلاف حجم القبيلة واختلاف المواسم. والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي، وما تقرره هذه الحكومة يطاع وينفَّذ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المعتدي عليه. وقد أطلق أهل الأنساب لفظة "القبيلة" على الحَضَر أيضًا: فقريش قبيلة، والأوس قبيلة، والخزرج قبيلة، وثقيف قبيلة. ووطن القبيلة هو المضارب التى تترلها والأماكن التى يمتد نفوذها إليها، فهو

يتقلص ويتسع حسب نفوذ القبيلة. وتتألف القبيلة من عمائر، كما تتألف العمائر من أقسامٍ أقلّ. ويقول علماء العرب إن هناك تجمعات أكبر حجمًا من القبيلة أطلقوا عليها: "الشعوب"، ومثالها بنو قحطان وبنو عدنان، فكل منهما شَعْب، وما دونهما قبائل. ولفظة "الشعب" من الألفاظ الواردة في نصوص الخط المسند، وهي فيها بمعنى "قبيلة"، وتُكْتَب: "شعبن"، أي "الشعب"، لأن حرف النون في أواخر الأسماء أداة للتعريف في اللغات العربية الجنوبية. ويلي الشعبَ في اصطلاح أهل النسب: القبيلةُ، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة. فالشعب هو النسب الأبعد مثل عدنان و قحطان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكنانة، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، ومثل بني هاشم وبني أميّة، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس. وجعل "ابن الكلبي" مرتبةً بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة، وهي رَهْط الرجل.

وقسّم النويري النظام القبلي عند العرب إلى عشر طبقات مبتدئا بـ"الجِذْم"، أى الأصل، وهو قحطان وعدنان، وهذه هى الطبقة الأولى. ثم الجماهير، وهي الطبقة الثانية. ثم الشعوب، وهى الطبقة الثالثة. ثم الطبقة الرابعة: القبيلة، وهي التي دُونَ الشعب، وتَجْمَع العمائر. ثم الطبقة الخامسة: العمائر،

وهي التي دون القبائل، وتجمع البطون. ثم الطبقة السادسة: البطون، وهي التي تجمع الأفخاذ. ثم الطبقة السابعة: الأفخاذ، وهي أصغر من البطون، والفَخِذ تجمع العشائر. ثم الطبقة الثامنة: العشائر، واحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء. ثم الطبقة التاسعة: الفصائل، واحدها فصيلة، وهم أهل بيت الرجل وخاصته. ثم الطبقة العاشرة: الرهط، وهم الرجل وأسرته. وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي الأسرة، أي "البيت"، فهي نواة القبيلة، ومنها نبتت شجرتها التي يختلف حجمها وعدد أغصانها وفروعها باختلاف منبتها والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها. وقد اصطلح علماء النسب على أن للعرب بعد قحطان وعدنان أربعة أركان: ربيعة ومضر ويمن وقضاعة. ولا يمكن أن يخرج نسب عربي أصيل عن أصل من هذه الأصول.

وأسماء القبائل عند العرب على خمسة أَضْرُب: أولها أن يُطْلَق على القبيلة لفظة "الأب" كعاد وثمود ومدين ومن شاكلهم. وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى: "وإلى عاد"، "وإلى ثمود"، "وإلى مدين"، يريد بني عاد وبني ثمود. وأكثر ما يكون ذلك في الشعوب والقبائل العظام، لا سيما في الأزمان المتقدمة، بخلاف البطون والأفخاذ ونحوهما. وثانيهما أن يطلق على القبيلة لفظ "بنو فلان"، وأكثر ما يكون ذلك في البطون

والأفخاذ والقبائل الصغار، وبخاصة في الأزمـان المتـأخرة. وثالثهـا أن تَرِد القبيلة بلفـظ الجمـع مـع الألـف والـلام كالطـالبيين والجعافرة ونحوهما، وأكثـر مـا يكـون ذلـك في المتـأخرين دون غيرهم. ورابعها أن يعبر عنها بـــ"آل فـلان" كـآل ربيعـة وآل فضل وآل علي وما أشبه، وأكثـر مـا يكـون ذلـك في الأزمنـة المتأخرة لا سيما في عرب الشـام في زماننـا، والمـراد بـــ"الآل" الأهل. وخامسها أن يعـبر عنـها بـــ"أولاد فـلان"، ولا يوجـد ذلك إلا في المتأخرين في أفخاذ العرب على قلة.

وغالب أسماء العرب منقولة ممـا يخالطونـه ويجاورونـه مـن الحيوان كــ"أسد ونمر"، أو من النبات كـــ"نبـت وحنظلـة"، أو مـن الحشـرات كـــ"حيـة وحـنش"، أو مـن أجـزاء الأرض كــ"فِهْر وصخر" ونحوه. والغالب على العـرب تسـمية أبنـائهم بمكروه الأسماء كــ"كلب وحنظلـة وضـرار وحـرب"، وتسـمية عبيدهم بـمحبوب الأسماء كــ"فلاح ونجاح". ويحكـى أنـه قيـل لواحد منهم: لم تسـمون أبنـاءكم بشـر الأسمـاء نحـو "كلـب وذئب"، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو "مـرزوق وربـاح"؟ فكـان جوابه: إنما نسمي أبناءنا لأعـدائنا، وعبيـدنا لأنفسـنا. يريـد أن الأبناء مُعَدّة للأعداء فاختاروا لهم شـر الأسمـاء، والعبيـد مُعَـدّة لأنفسهم فاختاروا لهم خـير الأسمـاء. وكـان العـرب يتعـززون بانتسابهم إلى اليمن، فكان من ينقلب علـى نسـبه يتخـذ لنفسـه

نسبًا يمانيًّا لأجل أن الملوك كانت في اليمن، مثل آل النعمان بن المنذر من لخم، وآل سليح من قضاعة، وآل محرق، وآل العرنجج، وهو حِميَرَ الأكبر.

وكان هناك، إلى جانب النسب، نوع ارتباط آخر بين القبائل العربية هو الأحلاف، التى كانت حاجة الأعراب إليها أكثر وأشد من حاجة الحضر، إذ الغزو في البادية ضرورة من ضرورات الحياة لفقرها وشحها ولانبساط أرضها وعدم وجود حواجز طبيعية تعوق الغزو وتحمي المغزوّ منه، فاضطُرّت القبائل إلى اصطناع حماية طبيعية لها هي الأحلاف. وغاية الأحلاف حماية المال والنفس وكبح جماح المعتدين، وهذه هى الأحلاف الدفاعية. أما الأحلاف الهجومية التي تُعْقَد لتحقيق أغراض هجومية، مثل غزو حلفٍ حلفًا آخر، أو قبيلةٍ ضخمةٍ قبيلةً ضخمةً أخرى، فإنها لا تعمَّر طويلا كما تعمَّر الأحلاف الدفاعية لأن أسباب انعقادها تزول بتنفيذ ما اتُّفِق عليه. وقد يتحطم الحلف بسبب ظهور اختلاف فى المصالح أو طروء مصالح لم تكن في حسبان المتحالفين يوم عقدوا حلفهم، فيتصدع بنيان الحلف ويتهدم ليظهر محله حلف آخر جديد.

أما الحَضَر، فإن لهم من حماية أرضهم ومن طبيعة الحياة التي يحيونها ما يخفف من حاجتهم إلى الحِلْف القبلي ويجعل أحلافهم طرازا آخر، فقد منحتهم الطبيعة حجرًا صَلْدًا بَنَوْا به

أبراجًا وحصونًا ومعاقل حَمَوْا بها مساكنهم من طمع الطامعين، ولا سيما الأعراب الذين لا يسهل عليهم اقتحام الحصون ولا تهديمها لعدم وجود أسلحة لديهم تؤثر فيها. كما أمدهم بمواد بناء مكنتهم من إنشاء الحيطان والأسوار حولها. وغاية ما فعله الحضر من الأحلاف هو تحالفهم مع من أحاط بهم من الأعراب لضمان عدم تحرشهم بهم أو لمنع الأعراب الآخرين من مثل هذا التحرش، وكذلك عقد معاهدات مع القبائل لمرور تجارهم من أرضها بأمن وسلام مقابل هدايا أو أرباح أو أموال تدفع إلى ساداتها تأليفًا لقلوبهم وضمانًا لعدم احتكاك أحد منهم بهم.

ومن أهم القبائل القحطانية التي كان لها شأن يذكر عند ظهور الإسلام حِمْيَر وكهْلان. ومن مجموعة حمير: قُضاعة في رأي من جعل قضاعة من اليمن. ومن قضاعة: كلب وأسد، ومن أسد: تنوخ. وأما مجموعة كهلان فتتألف من الأزد وهَمْدان ومَذْحِج وطَيِّئ، ومن الأزد: غسان والأوس والخزرج وربيعة من القبائل العربية الكبيرة العدد. وقد عُرِفَتْ "ربيعة" بـ"ربيعة الفرس". وإنما قيل له: "ربيعة الفرس" لأنه (كما جاء عند القدماء) أُعْطِيَ من ميراث أبيه الخيل، وأُعْطِيَ أخوه مُضَر الذهب فسُمِّيَ: "مضر الحمراء". وأُعْطِيَ أنمار أخوهما الغنم فسُمِّيَ: "أنمار الشاة". وذُكِر أيضًا أن نزارًا لما حضرته الوفاة آثر إيادًا بولاية الكعبة، وأعطى مُضَر ناقة حمراء، فسُمِّيَ:

"مضر الحمراء"، وأعطى ربيعة فرسه، فسُمُّوا: "ربيعة الفرس"، وأعطى أنمار جارية له تسمى: "بجيلة" فحضنت بنيه، فسُمِّيَ: "بجيلة أنمار". ومن أشهر قبائل مضر: قريش، حتى إن الناس كانوا إذا قالوا: "مُضَرِيّ" انصرف ذهنهم إلى معنى "قرشي" لاشتهار قريش بالمضرية.

ولقد أُطْلِقَ على بعض القبائل ألقاب فقيل: كِنْدَة الملوك، ومَذْحِج الطعّان، وهَمْدان أحلاس الخيل، والأَزْد أُسْد البأس. وبعض هذه الألقاب ألقاب حسنة جميلة، وبعضها ألقاب تشير إلى قوة وشدة، وبعضها لا غضاضة فيه. وهي ألقاب كانت القبائل المسمّاة بها تتخذها مفخرا وسبيلا إلى المباهاة، أو على الأقل لا ترى بها بأسًا. غير أن هناك ألقابا أخرى تشير إلى استصغار شأن القبيلة التي نُعِتت بها، مثل "القَيْن" و"الأجارب" و"الأقارع" و"قُرَاد" وما شاكل ذلك، ولم تر الأجيال التالية عارا فى مثل تلك الألقاب. واشتهرت طَيِّئ بالجود لموقع حاتم وأوس بن حارثة منها. وعُرِفَتْ باهلة باللؤم، حتى ضُرِب بها المثل فقيل: "لؤم باهلة". واشتهر بنو ثُعَل بالرمي. واكتسبت مُدْلِج شهرة واسعة في القيافة، إذ اختصت بها من بين سائر العرب. وبرَّز بنو لِهْب في العيافة، فهم أَزْجَر العرب وأَعْيَفهم. وعُرِفَت إياد بخطبائها، وملوك غَسّان بثريدهم فقيل: "ثريدة غسان". وعُرِفت كندة بغلاء مهور بناهم. وعُرِفت "خُزَاعة" بالجوع والأحاديث، أي أهم يجمعون بين الفقر والدعاوَى الفارغة.

وفى كتب التراث نقرأ كلاما كثيرا فى هذا الموضـوع: ففـى "الاشتقاق" مثلا لابن دُرَيْد أن بنى لِهْب أَعْيَفُ العـرب وأَزْجَـرُهم للطير. وفى "عيون الأخبار" لابن قُتَيْبَة أن كُثَيِّر عَزّة الشاعر الأمـوى المعروف احتاج ذات مرة أن يستعين بأحد من العافة فدُلّ على بـنى لِهْب، وكانت عيافتهم له دقيقة حسبما ورد فى الخبر، فقال فى ذلك:

تَيَمَّمتُ لِهْبًا أَبتَغي العِلم عِندَهُم وَقَـد رُدَّ عِلمُ العَائفينَ إلى لِهْبِ

ومن الشواهد المتداوَلة فى باب "المبتدإ والخبر" من كتب النحو البيت التالى، ويُنسَب لرجل من طَـيّئ:

خبيرٌ بنـو لِهْبٍ، فلا تَكُ مُلْغِيًا مقـالةَ لِهْبِيٍّ إذا الـطيرُ مـرَّتِ

وفى "البيان والتبيين" يقول الجاحظ فى التقـديم لبيـت شـعر يمدح فيه صاحبُه خطيبًا إياديًّا من الخوارج الأزارقـة: "وقـد ذكـر الشَّاعرُ زيدَ بنَ جنـدبٍ الإيـاديّ الخطيـبَ الأزرقـيَّ في مرثِيَتِـه لأبي دُوَادِ بنِ حَرِيز الإيادي حيثُ ذكره بالخَطَابـة وضـرب المثـلَ بخطباء إياد فقال:

كقُسٍّ إيادٍ أو لقيط بن مَعْبَـدٍ وعُذْرَةَ والمِنطِيق زيد بن جُنْدبِ"

وفى "البيان والتبيين" أيضـا "أن رسـول اللّـه صـلى الله عليـه وسلم قال: لا تغالُوا بالنّساء فإنمـا هُـنّ سُـقْيا اللّـه... (وعـن) مُجالد عن الشَّعبي: قال رسـول اللّـه صـلى الله عليـه وسـلم: اللهمَّ أذهِبْ مُلكَ غسَّـان، وضَـعْ مهـور كِنْـدة". وفى كتـاب "البخلاء" يتعجب بطـل إحـدى القصـص مـن براعـة قـوم فى

الاستدلال على الحقائق الغائبة من بعض الشواهد التى لا تلفت نظر الآخرين فيقول: "هذه والله القيافة، ولا قيافة بنى مُدْلِج". وفيه أيضا: "قيل لرجل من العرب: قد نزلْتَ بجميع القبائل، فكيف رأيت خزاعة؟ قال: جوع وأحاديث". وفى "العقد الفريد": "ومن بني ثُعَل عمرو بن المُسبِّح. كان أرمى العرَب، وإيّاه يَعْني امرؤ القَيْس بقوله:

رُبَّ رام من بَني ثُعَلٍ   مُخْرِجٌ كَفَّيْه من قترِه

وأدرك النبيَّ عليه الصلاة والسلام وهو ابن خمس ومائة سنة فأَسْلَم". ويقول المرادى صاحب "سِلْك الدُّرَر فى أعيان القرن الثانى عشر" إن بنى ثُعَل "قبيلة من العرب رماة يُضْرَب بهم المثل لجودة رميهم". وفى "الوافى بالوَفَيات" للصفدى: "وكانت العرب تستنكف من الانتساب إلى باهلة حتى قال الشاعر:

وما ينفع الأصلُ من هاشمٍ   إذا كانت النفس من باهلهْ

وقال الآخر:

ولو قيل للكلب: يا باهليٌّ   عَوَى الكلب من لؤم هذا النسبْ

وقيل لأبي عبيدة: يقال إن الأصمعي دُعِيَ في النسب إلى باهلة. فقال: هذا ما يمكن. فقيل: ولم؟ قال: لأن الناس إذا كانوا من باهلة تبرَّؤا منها، فكيف يجيء من لا هو منها فينتسب إليها؟". وفى "ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب" لأبى

منصور الثعالبي وتحت عنوان "لؤم باهلة" نقرأ: "ولم تزل العرب تصف باهلة باللؤم في الجاهلية والإسلام، ثم خَفِيَتْ منهم تلك الصفة، وشَرُفَتْ بقُتَيْبَة بن مُسْلِم وبنيه حتى قال القائل:

إذا ما قريشٌ خلا مُلْكُها فإن الخلافة في باهِلَهْ

ومما يُحْكَى من لؤم باهلة أنه قيل لأعرابي: أيسرّك أن لك مئة ألف درهم وأنت باهلي؟ فقال: لا والله. فقيل: أفيسرّك أن لك حُمْرَ النعم وأنك منها؟ قال: اللهم لا. قيل: أفيسرك أنك في الجنة وأنت باهلي؟ قال: نعم، ولكن بشريطة ألا يعلم أهلها أنني منها". وتحت عنوان "فيما يضاف ويُنْسَب إلى القبائل" من ذات الكتاب نجد قائمة الألقاب القبلية التالية: "إيلاف قريش، تِيه بني مخزوم، جود طيء، لؤم باهلة، رُمَاة بني ثعل، قيافة بني مدلج، عيافة بني لهب، خطباء إياد، ثريدة غسان، مهور كِنْدة، حَرّة بني سليم". وفي "العقد الفريد" لابن عبد ربه: "سأل زِيادٌ دَغْفلاً (النّسّابة) عن العَرَب، فقال: الجاهليّة لليَمن، والإسلامُ لِمُضَر، والفِيْنَة بينهما لرَبيعة. قال: فأخبِرْني عن مُضر. قال: فاخِرْ بِكنانة، وكاثِرْ بتَميم، وحارِبْ بقَيْس، ففيها الفُرسان والأنجاد، وأما أَسَد ففيها دَلٌّ وكِبْر. وسأل مُعاويةُ بن أبي سُفيان دَغْفلاً فقال له: ما تقولُ في بني عامر بن صَعْصعة؟ قال: أعْناق ظِبَاء، وأعجاز نِساء. قال: فما تقول في بني أسد؟ قال: عافَةٌ قَافَة، فُصحاءُ كافَة، قال: فما

تقول في بني تميم؟ قال: حَجَرٌ أَخْشَن إن صادفْتَه آذاك، وإن تركتَه أَعْفاك. قال: فما تقول في خُزاعة؟ قال: جُوع وأحاديث؟ قال: فما تقول في اليَمن؟ قال: شِدَّة وإباء". ويقول ابن حمدون صاحب "التذكرة الحمدونية": "كان ملوك غسان يوصفون بالترفُّه والنعمة، فيقال: ثريدة غسان، كما يقال: فَالُوذ ابن جُدْعان، ومَضِيرة أبي سفيان"... إلخ.

ولكلّ قبيلة جد تنتمي إليه وتباهي به. وقد يكون هذا الجدّ جدًّا حقيقيًّا، أي إنسانًا عاش ومات وساد القبيلة وترك أثرًا كبيرًا فيها حتى نُسِبت القبيلة إليه. وقد يكون الجد اسم حِلْف تكوّن وتألّف من قبائل عديدة حتى عُرِفَتْ به وصار كأنه اسم جدها. ومن هذا القبيل اسم "تَنُوخ" على حد زعم أهل الأخبار، فقد رَوَوْا أن تنوخ قبائل عديدة اجتمعت وتحالفت وأقامت في مواضعها. وقد يكون الجدّ اسم موضع أقامت القبيلة به فنُسِبت إليه كما يقول أهل الأخبار عن اسم "غسان". وقد يكون اسمَ إله نُسِب عُبّاده إليه مثل "بنو سعد العشيرة"، و"تالب ريام" جد قبيلة "همدان". وقد يكون اسم حيوان أو نبات أو ما إلى ذلك مما يدخل في دراسة أصول الأسماء ومصادرها واشتقاقها.

ولا تقيم المصالح السياسية للقبائل وزنًا للأُخُوّة والنسب، فإذا اختلفت المصلحة لم تجد القبائل عندئذ أية

غضاضة في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها لتتحالف مع قبيلة أخرى ضدها. فـ"عَبْس" مثلاً تحالفت مع "بني عامر" في حرب البسوس على "ذبيان"، وهي أختها. وتحالفت "ذبيان" مع "تميم" على "عبس" مع ما بين "تميم" وبين "عبس" و"ذبيان" من عداء قديم. ووقعت حروب بين "تغلب" و"بكر" مع صلة الرحم والقرابة القوية التي كانت تربط بين القبيلتين الأختين. ولكل قبيلة أرض تعيش عليها وتنزل بها وتعدّها ملكًا لها تنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريبٍ بالنزول فيها والمرور بها إلا بموافقتها ورضاها. وقد اختص كل بطن منها بناحيته فانفرد بها وعدّها أرضه. وتمتد أرض القبيلة إلى المواضع التي تصل بيوتها إليها، وتعيّن الحدود بتلٍّ أو وادٍ أو ما شاكل ذلك. ونظرًا إلى عدم تثبيت القبائل أحيانا لحدودها على الأرض برسم معالم بارزة لها صارت الحدود سببًا من أسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بينها.

وتُعَدّ مواضع الماء في أرض القبيلة بمثابة قِبْلةٍ لأبنائها، يستقون منها ما يحتاجون إليه من "إكسير الحياة". ولكل قبيلة حق حماية أرضها، شأنها في ذلك شأن الدول. وإذا أراد غريب اجتياز أرضها فلا بد أن يكون في حماية أحد أفرادها. وإذا كان المجتاز جماعة، كأن يكون قافلة أو قبيلة أو حيًّا يريد التنقل إلى أرض أخرى عبر تلك الأرض، فعليه أخذ إذن من القبيلة يخوّله

المرور بها، و إلا تعرض للمنع والقتال. لـــذا كـــان لا بـــد للتجّـــار من ترضية شيوخ القبائل للســـماح لهـــم بـــالمرور بـــدفع إتـــاوات تعارفت القبائل آنذاك على أخذها من العابرين.

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة مثل الملـــك بالنســـبة لمملكتـــه، فهو الرئيس والمرجع والمسؤول عن أتباعـــه في الســـلم والحـــرب، يقصده ذوو الحاجات من أبنـــاء القبيلـــة إن احتـــاجوا إلى حاجـــة. وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل، وقد ينصّـــب نفســـه ملكًـــا عليها، كالذي فعله ملوك كندة من بني آكـــل الـــمُرَار وغيرهـــم من الملوك. وربما لا نخطئ إذا ما قلنـــا إن أكثـــر مؤسســـي الأســـر المالكة في بلاد العرب كانوا سادات قبائـــل في الأصـــل، اســـتغلوا مواهبهم وإمكانات قبيلتهم وسخّروها في ســـبيل الحصـــول علـــى المـــُلْك فنالوه. وعلى من يسود قومـــه أن يتحلـــى بخـــلال حميـــدة وسجايا طيبة تجعل الناس يعترفون بسيادته علـــيهم: كـــأن يتحمـــل أذى قومه، وأن يكون شـــريفًا في أفعالـــه حليمًـــا كريمًـــا يتجاهـــل السفهاء فـــلا يغضـــب ولا يثـــور، وأن يكظـــم غيظـــه ويحتـــرم الآخرين مهمـــا تكـــن منـــازلهم، وأن يؤلـــف بينـــهم ويكتســـب محبتهم، وأن يكون ملاذهم في أوقـــات الحاجـــة، وأن يفـــتح بيتـــه وقلبه للجميع فيكرم كل من يفد إليه من كـــبير أو صـــغير. وعلـــى الرئيس أيضا أن يكـــون في مقدمـــة القـــوم في الحـــروب والغـــزو، وأن يكون شجاعًا لا يهاب المـــوت، وأن يكـــون واضـــع خطـــط

الحرب. والرئيس هو روح القبيلة وشعارها، فإذا أصيب بمكروه أو جَبُنَ في القتال أو خَرّ صريعًا في المعركة هربت قبيلته وتراجعت القهقرى، إلا إذا وُجِد في القبيلة من يؤجج فيها نار الحماسة ويبث فيها العزيمة للوقوف والصمود.

ومن واجب الرئيس الإشراف على توزيع الغنائم، ومن حقه المِرْبَاع إن كان من ذوي المِرْبَاع. وعليه أن ينفق من جيبه على الضيوف، وأن يفتح بيته للقادمين إليه ويستقبلهم بوجه فرح بشوش، وأن يرعى شؤون قبيلته ويسأل عن أبنائها، وأن يسعى لفكّ من يقع من أبناء عشيرته أسيرًا في أيدي قبيلة أخرى، وأن يشارك قومه في تحمل الدّيّات حين يعجز رجال القبيلة عن حملها، وأن يعين أتباعه في كل جناية يجنونها. ومن هنا جاء قولهم: "سيّدٌ معمَّم"، يريدون أن كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه. ومن أعراف الحُكْم عند القبائل أن يشاور سيد القبيلة أشراف قبيلته ووجوهها في الأمور الهامة ليستنير برأيهم. ومن شأن هذه المشورة أن تساعد سادات القبائل مساعدة كبيرة في التمكن من إدارة أمور القبيلة إدارة حسنة ترضي الغالبية، وقد تُوصِّل الرئيس إلى النجاح والنصر في الغزو فيرتفع اسمه ويعلو نجمه. ورأي أشراف القبيلة هو مجرد مشورة لا تلزم سيد القبيلة العمل بموجبها، فقد ينبذه ويعمل برأيه، لا سيما إذا كان متجبرًا عنيدًا. وقد يكون

النجاح حليفه فتزداد هيبته بين أتباعه، وقد يُمْنَى بخسارة فادحة فتقضي عليه وعلى رئاسته، وربما قضت على حياته أيضًا. والنظام القبلي هو نظام استشاري، الرأي فيه لأصحاب الرأي فقط، أما الأفراد العاديّون فلا رأي لهم في تسيير الأمور، إلا إذا برز أحدهم وظهر في قبيلته بمواهب يُعْتَرَف بها كالحكمة والشرف، فعندئذ قد يدخل في عداد أُولي الرأي.

والنسب عند العربي هو جرثومة العصبية وأساسها، ولهذا كان يحرص على حفظ شجرة نسبه ويرفعها إلى جملة طويلة من الأجداد. وقد وجد السائحون أعرابًا سردوا لهم نسبهم سَرْدًا من غير كتاب مكتوب إلى عشرات من الأجداد، وتأكدوا بعد فحوص واختبارات أن ما سُرِد عليهم كان صحيحًا في الغالب. ونفس الشيء مع أهل المدَر، فهم يحرصون أيضا على حفظ نسبهم، وإن لم يكن كحرص أهل الوبَر. وقد عثر الآثاريون على نقوش جاهلية ذكرت أسماء جملة أجداد لكاتبيها، وهو ما يثبت عناية العرب في الجاهلية بتدوين أنسابهم وحفظها. وقد يستلحق إنسان شخصًا ما، أى يُلْحِقه بنسبه ويجعله في حمايته وعصبيته. وقد يكون الشخص المستلحَق صريحًا معروف النسب، وقد يكون أسيرًا أو مولًى أو عبدًا، فيسميه المستَلْحِق: "مولاه" وينسبه إلى نفسه. ويقال للمستلحَق: "الدَّعِيّ"، ومثله المتبنَّى، وهو الذي تبناه رجل

ودعاه: "ابنه". وحُكْم الدعيّ عند الجاهليين هو حُكْم النسب الصحيح والبنوة الشرعية. لذلك كان الجاهليون يورّثونه كما يورّثون الأبناء.

ولـ"الجوار" صلة كبيرة بالنسب والعصبية عند للعرب، فقد يتوثق الجوار وتقوى أواصره فيصير نسبًا، و عندئذ يدخل نسب "المستجير" فى نسب "المجير" ويصيران نسبا واحدا هو نسب هذا الأخير. وقد اندمجت بـ"الجوار" أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة أو القبائل التي تشعر بخوف من قبيلة أخرى أكبر منها فتُضْطَرّ إلى طلب "جوار" قبيلة أكبر منها تدافع عنها وتحمي حياها وماها. فإذا استجار شخص بآخر أو استجارت قبيلة بأخرى اكتسب هذا الجواز صبغة قانونية، ووجب على المجير المحافظة على حق الجوار، و إلا نزلت المسبّة به وازدراه الناس.

أحلافهم: وكان للأحلاف شأن خطير في حياة الجاهليين، وتتلخص فى أن يحلف كل طرف للآخر على التعاضد والاتفاق، وكانوا ينظرون إليها على أن لها قداسة خاصة وحرمة، ويعاملون الحانث بيمينه بأشد أنواع التحقير والازدراء. وتكون بين المتحالفين مواثيق على الوفاء بالالتزامات التي نُصَّ عليها، ويتم إعلان الحلف ليكون معلومًا بين الناس. وقد تُعْقَد الأحلاف لأغراض معينة فتكون لها آجال

محددة، كأن تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلــة أخــرى لمســاعدها في صدّ غزو أو في غزو قبيلة أخــرى أو فى الأخــذ بثأرهــا منــها. ومثل هذه الأحلاف لا تعمَّر طــويلا، إذ ينتــهي أجلــها بانتــهاء الغاية التي من أجلــها عُقِــد الحلــف. ولم يكــن تفكــير العــرب ليتجاوز، عنــد عقــدهم هــذه الأحــلاف، مصــالح العشــائر أو القبائل الخاصة، ولم تكن موجهة للدفاع عن بــلاد العــرب جميعــا أمام عدو خارجى.

وتُعْقَد الأحلاف على النــار، وهــذه النــار تســمى: "نــار التحالف". ذلك أهم كانوا إذا عقدوا حلفًا أوقــدوا نــارًا ودعَــوْا بالحرمان من خيرها على من ينقض العهــد. وقــد أشــار إلى هــذه النار "أوس بن حجر"، إذ قال:

إذا استقبلته الشمس صــدّ بوجهـــه كمــا صدّ عن نار المهوّل حــالفُ

كما أشار إليها الكميت:

هُمــو خوّفوني بالعــمى هُــوّة الــردى كمــا شــب نــار الحــالفين المهوّلُ

ولا تُعْرَف صيغة واحدة معينة للقَسَــم الــذي يُقْسِــم بــه المتحالفون: فمنهم من كانوا يقفون عند الأصــنام الــتي يعبــدوها ويقسمون بها. ومنهم، وهم أغلب أهل مكة، من كانوا يحلفون عنــد ركن الكعبة فيضع المتحالفون أيديهم عليه فيحلفون. ومنهم من كان يقسم بالآباء والاجداد لما لهم من مكانة في نفوسهم. ومنهم من كــان يحلف عند المشاهد العظيمة أو عند قبور سادات القبائل، فيحلفــون بصاحب القبر ويذكرون اسمه على ما يتحالفون عليه. وفي كتب أهل

الأخبار والأدب أسماء قبائل يظهر أنها كانت أسماء أحلاف عُقِدَتْ في مراسيم خاصة، مثل الرباب والمحاش وما شاكل ذلك من أسماء. وكان من عادتهم أن يُحْضِروا في جفنةٍ طِيبًا أو دمًا أو رمادًا، فيُدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم في شيء واحد، وقد يحلفون بالملح وبالماء.

وتدوّن الأحلاف أحيانًا لتوكيدها ثم تحفظ عند المتعاقدين، وقد تُودَع في المعابد كالذي ورد من تحالف ذبيان وعبس وتدوينهم ما تحالفوا عليه في كتاب أقسموا على اتباع ما كُتِب فيه. وفي شعر زهير بن أبي سلمى يطالعنا قوله:

ألا أَبْلِغِ الأحلاف عني رسالة　　وذُبْيَان: هل أقستمو كل مُقْسمِ؟

كما نقرأ في شعر الحارث بن حِلّزة اليَشْكُرِيّ البيتين التاليين:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدّ　　م فيه العهود والكُفَلاءُ

حَذَرَ الجَوْر والتعدّي، وهل ينـ　　ـقض ما في المهارق الاهواءُ؟

إشارةً إلى العهود والرهائن التي أُخِذت من بني تغلب وبني بكر للوفاء بما تعاهدوا عليه ودَوّنوه من شروط على "المهارق"، أي القراطيس. وكان الملك عمرو بن هند قد أصلح بين الطرفين بحلف سُمِّيَ: "حلف ذي المجاز" وأخذ عليهم المواثيق والرهائن. ويتم توثيق العهود والأحلاف والمواثيق بتوقيع المتحالفين وطبع خواتيمهم فى أسفلها. وشهادات

الشهود على صحة العقود والأوامر الملكية معروفة عند أهل اليمن، وكذلك عند أهل مكة، وهم قوم تجار وأصحاب مصالح، ولهم عقود ومواثيق ومعاهدات مع غيرهم من أهل القُرَى وسادات القبائل. ولما كانت مراسيم الأحلاف من الأمور المهمة والأحداث الخطيرة اقترنت من أجل ذلك بتقديم الطعام للمتحالفين، فيجلس المتحالفون من جميع الفرقاء على طعام واحد كالذي حدث من تقديم عبد الله بن جدعان الطعام للمتحالفين فى "حلف الفضول". وقد تكون الوليمة نفسها مظهرًا من مظاهر مراسيم عقد الأحلاف لما للخبز والملح من أثر عند العرب. فعلى من يأكل خبز رجلٍ وملحَه أن يوفي له. ولهذا يعنَّف الغادر ويوبَّخ لعدم مراعاته حرمة الخبز والملح، وهي حرمة تكاد تصل إلى حرمة الدم والرَّحِم.

دياناهم: جاء فى "نهاية الأرب" للنويرى أن العرب لم يكونوا كلهم على دين واحد، بل عدة أديان: فصِنْفٌ منهم أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع المُحْيِي والدهر المُفْنِي، وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث، وصنف عبدوا أصنام قوم نوح، إما بعينها وإما بأسمائها: فكان لكلبٍ وَدٌّ، ولهُذَيْلٍ سُوَاع، ولقسم من اليمن يغوث، ولذي كلاع نسر، ولهمدان يعوق، ولثقيف اللات، ولقريش وبني كنانة العُزَّى، وللأوس والخزرج مناة. وكان هُبَل على ظهر الكعبة،

وهو أعظم أصنامهم، وإساف ونائلة على الصفا والمروة. وكان منهم من يميل إلى الصابئة ويعتقد في أنواء المنازل اعتقاد المنجمين في الكواكب السبعة السيارة، ويعتقدون أنها فعالة بأنفسها، ويقولون: مُطِرْنا بنَوْء الكواكب. وكان منهم من يعبد الملائكة أو يعبد الجن. ليس ذلك فقط، بل كانت لهم أحكام يدينون بها: فكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويُحْرِمون ويطوفون ويَسْعَوْن ويقفون المواقف ويرمون الجِمَار ويغتسلون من الجنابة ويُديمون المضمضة والاستنشاق وفَرْق الرأس والسواكَ والاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط، ولا ينكحون الأمهات ولا البنات، فجاء الإسلام بإبقاء ذلك على وجه مخصوص. وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أبيه ويسمونه: "الضَّيْزَن"، ويقطعون يد السارق اليمنى. وكانوا يجمعون بين الأختين، فجاءت الشريعة بمنع هذا الجمع. وكانوا يَعُدّون الظِّهار طلاقا، وتعتدّ المرأة عن الوفاة بحَوْل. وكانوا إذا لُبِّس عليهم أمرٌ ردُّوه إلى كهنتهم، الذين يدَّعون أن لهم أتباعًا من الجن. وكانوا يعوِّلون على عِيافة الطير وزجره في حركاتهم ومقاصدهم: تارة بالاعتماد على اسم الطائر، وتارة بطيرانه يمينا أو شمالا، وتارة بصوته ومقدار ذلك الصوت، وتارة بمسقطه الذي يسقط فيه، فجاءت الشريعة بإبطال ذلك.

علومهم ومعارفهم: كان العرب يَتْلُون العزائم لأصنامهم ويَرْقُون مرضاهم لإخراج الشياطين من أجسادهم، وكان اعتقادهم أن تقليد نهيق الحمير يمنع انتشار الوباء، وأن شرب دماء الملوك يشفى من الخبل. كما كانوا يعالجون بالعقاقير النباتية والأشربة، وخصوصا العسل، الذى كان أساس العلاج فى أمراض البطن. وتجىء الحجامة والكَىّ على رأس قائمة الدواء عندهم، ومن هنا جاء المثل المشهور: "آخر الدواء الكَىّ". وكثيرا ما كانوا يعالجون بالبتر، مع وقف نزيف الدم بالنار باستخدام شفرة محمّاة لقطع العضو المراد بتره. ومن طرقهم فى العلاج أيضا أنهم كانوا يأمرون الأحول بإدامة النظر إلى رَحًى دائرةٍ. كذلك كانوا يعتقدون أن المجروح إذا شرب ماءً مات، وأن شرب الماء الحار يُذْهِب الرَّوْع عن المرأة، وأن شرب دم السادة يشفى من داء الكَلَب، وأن عظام الميت تبرئ من الجنون. ويُفْهَم مما تَعِجّ به العربية من ألفاظ العلل والعقاقير أن العرب عرفوا كثيرا من الأمراض وعلاجاتها. ويرى جرجى زيدان فى كتابه: "تاريخ آداب اللغة العربية" أن معرفة العرب الجاهليين لأسماء أعضاء الجسم على النحو الملحوظ فى لغتهم يدل على أنهم كانوا مهرة فى تشريح الجسد، وهو ما انتفع به الأطباء العرب فى عصور النهضة العربية بعد الإسلام. ومن أطبائهم فى الجاهلية الحارث بن كلدة والنضر بن الحارث،

اللذان أفادا معارفهما وممارساتهما الطبية من رحلاتهما إلى بلاد فارس واحتكاكهما بأطبائها. أما فى ميدان البيطرة فقد كانت لهم معرفة جيدة بشؤون الخيل وأمراضها وطرق علاجها، ونبغ منهم عدد من البياطرة كالعاص بن وائل. وقد وضع العلماء فى العصر العباسى عددا من الكتب عن الخيل اعتمدوا فى تأليفها على ما جمعوه من المعارف العربية فى هذا السبيل.

ومن المعارف الطبيعية عندهم مقدرتُهم على تخمين وجود الماء فى مكانٍ ما من تشمّم تربته أو نباتاته، وتفوّقُهم المذهل فى اقتفاء الآثار والاستدلال منها على كثير من السمات الشخصية لمن يقتفون أثره، حتى ليستطيعون التفرقة بين قدم المرأة وقدم الرجل، وبين قدم البِكْر وقدم الثَّيِّب، وبين قدم العاقل وقدم الأحمق، وبين قدم الأعمى وقدم المبصر مثلا. وبالمثل كانت لهم بصيرة راسخة فى ميدان الفراسة، وهى الاستدلال بهيئة الشخص على طباعه وأخلاقه، فضلا عن براعتهم فى توقع نزول الغيث من ألوان الغيوم وأشكالها، وتفوقهم فى ميدان النجوم والاهتداء بها فى باديتهم المتناوحة الأطراف. وكانوا ينسبون المطر والريح والبرد والحر إلى تلك النجوم. كما عرفوا مواقع الكواكب والنجوم وأبراجها، ومنازل الشمس والقمر. وكانت لهم أساطير وخرافات تتصل بالأجرام السماوية، فكانوا يتحدثون عنها كما لو كانت بَشَرًا

تتحارب فيما بينها وتتزاوج، بل ألّهوها فى بعض الأحيان. ومن تشخيصهم لها قولهم إن الدَّبَران أراد أن يخطب الثُّرَيّا وتوسَّط القمر له عندها، إلا أنها رفضته قائلة: ماذا أفعل بهذا السُّبْرُوت الذى لا مال له؟ فجمع الدَّبَران قِلاصَه كى يقدمها مهرا لها وظل يتبعها بها حتى ترضاه زوجا، ولا يزال يفعل ذلك حتى اليوم. وهذه المعارف والعلوم هى وليدة الخبرة والتجربة والأوهام جميعا، إلى جانب ما أخذوه عن الأمم المجاورة كالفرس والروم والكلدان.

فنونهم: لم يكن العرب فى الجاهلية يجهلون التصوير على الجدران، إذ كانت على حوائط الكعبة الشريفة آنذاك عدد من الصور منها صور إبراهيم وعيسى وأمه عليهم السلام. وثَمَّ نقوش ثمودية وصفوية ونبطية عُثِر عليها فى العصر الحديث محفورة فى الحجر تمثل آلهة وبشرا وحيوانات. وذكر الهمدانى فى كتابه: "الإكليل" أنه كان هناك جدار أمام أحد القصور الملكية القديمة فى اليمن عليه صورة الشمس والهلال، كما تحدث عن قصرٍ آخَرَ قديمٍ بتدمر مملوءةٍ جدرانه بالصور. كذلك عثر المنقبون الغربيون فى اليمن على نقوش جدارية تصور ناسا من تلك البلاد: بعضهم راجل، وبعضهم راكب فرسه، وبعضهم يقدم قربانا للأوثان.

وبالإضافة إلى ما تقدم كـان كـثير مـن ثيـاب العـرب فى الجاهلية منقوشا بأنواع التصـاوير المختلفـة كتصـاوير الرِّحَـال، وهى صور الإبل بما يوضع علـى ظهرهـا مـن أكـوار. ويسـمى الثوب المنقوش بهذ الطريقة: "المـُـرَحَّل". ومـن الشـواهد علـى ذلك البيتُ التالى لامـرئ القـيس، الـذى يتحـدث فيـه عـن خروجه مع صاحبته ليلا يتسحب بها فى هدوء كـيلا يشـعر بهمـا أحد، وقد أرخت ذيل مِرْطها "المرحَّل" للتعفية على آثارهما:

خَرَجْتُ بها تمشى تجـرّ وراءنا على أثـرينا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّلِ

كما عرف الجاهليون "الثيـاب المعضَّـدة"، وهـى الثيـاب المنقوش عليها صور الأعضاد، أو الـتى عليهـا صـورة العَلَـم فى موضع العَضُد منها. ومن ذلـك قـول زُهَيْـر بـن أبى سُـلْمَى فى وصف بقرة وحشية:

فجـالتْ على وَحْشِيّها وكأنها مُسَـرْبَلَةٌ من رازقِيٍّ معضَّـدِ

وثم بيت لامرئ القيس يذكر فيه عقودا مفقَّـرة تتـزين بهـا بعض صواحبه من الفتيات المترفـات، وهـى عقـود مكوَّنـة مـن قطع ذهبية على شكل فقرات الجراد:

غرائـر فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونعمةٍ يُحَلَّيْنَ يـاقوتا وشَذْرًا مُفَقَّرا

وفى البيتين التاليين لعَبْدَة بن الطبيب وصـفٌ لفِـراشٍ كـان يجلس عليه هو ونداماه فى إحدى الحانات، وكـان مرسـوما عليـه صور دجاج وأسود:

حتى اتكأنا على فُرُشٍ يزيّنها | من جيّد الرَّقْم أزواجٌ تهاويل
فيها الدجاج، وفيها الأُسْد مُخْدَرَةً | من كل شيء تُرَى فيها تماثيلُ

كذلك كان للعرْب تماثيل يشركونها مع الله فى العبادة، وكان فى فناء المسجد الحرام عشرات الأصنام: منها هُبَل، الذى كان مصنوعا من عقيق أحمر على صورة إنسان له يد من ذهب. ومنها وَدٌّ، وكان على هيئة رجل كأعظم ما يكون الرجال، وعليه رداء وإزار، وقد تقلَّد سيفا وتنكَّب قوسا. وورد فى "مروج الذهب" أنه كان على كلٍّ من يمين قبر حاتم الطائى ويساره تماثيل من حجر أبيض لأربع نسوة فى غاية الجمال ناشرات شعورهن كأنهن يَنُحْنَ عليه. ويقص السهيلى فى كتابه: "الروض الأُنُف" أنه كان يوجد بقَلِيس صنعاء تمثالان: أحدهما تمثال رجل طوله سبعون ذراعا، والآخر لزوجته. كما جاء فى "معجم البلدان" لياقوت الحموى أنه كان فوق قصر غمدان باليمن مجلس أقيم على كل ركن من أركانه تمثال أسد مصنوع من شَبَه أو تمثال نسر طائر. واكتُشِف فى بعض المغاور اليمنية فى العصر الحديث تماثيل رجال ونساء وأبقار مكتوب عليها بالحِمْيَرِيّة. كما كانت بنات العرب يلعبن بتماثيل صغار يسمينها: "الجوارى" و"البنات". وفى الشعر العربى القديم كثيرا ما يشبّه الشعراء حبائبهم بالدمية والتمثال، ومنه قول النابغة فى وصف امرأة فاتنة:

قامَت تَراءَى بَينَ سَجْفَي كِلَّةٍ | كَالشَّمسِ يَومَ طُلوعِها بِالأَسْعُدِ

أَو دُرَّةٍ صَدَفِيَّةٍ غَوّاصُها بَهِجٌ مَتى يَرَها يُهِلَّ وَيَسْجُدِ
أَو دُمْيَةٍ مِن مَرْمَرٍ مَرفوعَةٍ بُنِيَتْ بِآجُرٍّ تُشادُ وَقَرْمَدِ

وقول امرئ القيس:

وَيا رُبَّ يَومٍ قَد لَهَوتُ وَلَيلَةٍ بِآنِسَةٍ كَأَنَّها خَطُّ تِمثالِ

أيامهم: وأيام العرب في الجاهلية أكثر من أن تحصى، وسوف نكتفي هنا ببعض الوقائع المشهورة: فمنها يوم البسوس، وهو من أعظم حروب العرب، وكان بين بكر بن وائل وتغلب بن وائل، وكان للبَسُوسِ خالةِ جسّاس ناقةٌ فرآها كُلَيْب بن ربيعة تكسر بَيْض حَمَام موجودا في حِمَاه، فرمى ضرعها بسهم، فوثب جساس على كليب فقتله، فهاجت الحرب بسبب ذلك، ودامت بين الفريقين أربعين سنة. ويوم داحس، وكان لعبد القيس على فزارة، ودام سنين طوالا هلك فيها الكثير، وكان سببه مسابقة بين الخيل. ويوم ذي قار، وهو أيضا من أعظم أيام العرب، وكان كسرى إبرويز قد أَغْزَى بني شيبان جيشا فظفر به الشيبانيون، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وقد خلّد الأعشى ذلك النصر المؤزَّر فى قصيدة رائعة له. ويوم الستار بين بكر وتغلب، وقد حلق فيه أحد الفريقين رؤوسهم لتكون علامة لهم. ويوم بعاث بين بني الأوس والخزرج، وله ذكر في صحيح البخاري. ويوم الدرك بين الأوس والخزرج أيضا. ويوم نجران، وكان لبني تميم على

بني الحارث بن كعب. ويوم ذي الابل، وكان لتغلب على لخم وعمرو بن هند. ويوم الذنائب، وهو لغسّان على لخم ونجران. ويوم الغصيبة، ويقال: القصيبة، وكان لعمرو بن هند على تميم. ويوم النصيح، وهو لقيس على أهل اليمن، وقيل: يوم المضيح. ويوم الصفقة، وسُمِّيَ كذلك لأن كسرى أصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر، ويسمى أيضًا: يوم المشقر، والمشقر حصن بالبحرين. ويوم البردان، وهو من أيام القحطانيين فيما بينهم. وقد وقع لحُجْرٍ آكل المُرَار من كندة (وهو أبو امرئ القيس كبير شعراء الجاهلية) على زيد بن الهبولة من قضاعة. ويوم عَيْن أباغ، وعين أباغ وارد الأنبار على طريق الفرات الى الشام، وقد وقع للحارث الأعرج بن جبلة ملك العرب بالشام على المنذر بن ماء السماء ملك العرب بالحيرة. ويوم حليمة، وحليمة هى بنت الحارث، وبهذا اليوم ضُرِب المثل فقيل: "ما يوم حليمة بسِرّ"، وهو أيضًا للحارث الأعرج الحيرىّ على المنذر بن ماء السماء الغسانى. ويوم خزاز، لمَعَدّ على مَذْحِج، وخزاز جبل ما بين البصرة إلى مكة، وهو من أعظم أيام العرب في الجاهلية، وكانت مَعَدٌّ لا تستنصف من اليمن، ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى هذا اليوم فانتصرت معد، ولم تزل لها المنعة حتى جاء الاسلام. ويوم حُجْر، وهو لبني أسد على حُجْر (والد امرئ القيس)، وحجر

ملك من ملوك كندة. ويوم الأياد لبني يربوع على بكر، وأياد موضع بالحزن لبني يربوع بين الكوفة وفيد، ويسمى أيضًا: "يوم العظالة، ويوم الإفاقة، ويوم مليحة، ويوم أعشاش". وإنما سمي: "يوم العظالة" لأنه قد تعاظل على الرياسة فيه بسطام وهانئ بن قبيصة ومفروق بن عمرو. ويوم اللِّوَى لغطفان على هوزان، واللوى واد من أودية بني سليم، وسببه أَن عبد الله بن الصمة، ومعه بنو جشم وبنو نصر أبناء معاوية بن بكر ابن هوزان، غَزَا غطفان فظفر بهم وساق أموالهم ومضى بها. وحروب الفِجَار بين كنانة وقيس، وسميت: "الفِجَار" لأنها كانت في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يحرّمونها ففجَروا فيها، وهي فِجَاران: الفجار الأول ثلاثة أيام، والفجار الثاني خمسة أيام في أربع سنين. وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفجار مع أعمامه، وكان يناولهم النَّبْل، وانتهت سنة ٥٨٩م. ويوم بزاخة لضبة على إياد، وبزاخة ماء، وسببه أَن محرّقا الغساني وأخاه إيادا وطوائف من العرب من تغلب وغيرهم أغاروا على بني ضبة بن أُدّ ببزاخة فاستاقوا النَّعَم، فأتى الصَّرِيخُ بني ضبة فركبوا فأدركوهم واقتتلوا قتالا شديدا. ثم إن زيد الفوارس حمل على محرّق فاعتنقه وأسره، وأسروا أخاه حبيش بن دلف السيدي، فقتلهما بنو ضبة، وهُزِم القوم،

وأصيب منهم ناس كثير، فقال في ذلك ابن القائف أخو بني ثعلبة:

نِعْمَ الفوارس يوم جيش محرّقٍ لحقوا وهم يَدْعُون: يا لضرارِ!

نيرانهم: كان للنار فى حياة العرب دور كبير، إذ اتصلت بكثير من جوانب حياتهم من خرافات وأساطير وعادات وتقاليد وقِيَم وأوضاع اجتماعية وشعائر دينية، وهو ما يتضح من الكلام التالى الذى جمعناه من بعض الكتب عن النيران عند العرب وعددها ووظائفها. ونبدأ ببعض أنواعها: فالأولى نار المزدلفة، وهي نار توقد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليراها المنطلقون من عرفة، وأول من أوقدها قُصَيّ بن كلاب. الثانية نار الاستمطار، إذ كانوا في الجاهلية إذا احتبس المطر جمعوا البقر وعقدوا في أذنابها وعراقيبها السَّلْع والعُشَر ويصعدون بها في الجبل الوعر ويشعلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك يؤدى إلى سقوط المطر. قال الشاعر:

أداعٍ أنت بيقورًا مسلَّعة وسيلةً منك بين الله والمطر؟

الثالثة نار الحِلْف، وكانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا النار وعقدوا الحِلْف عندها فيذكرون خيرها ويدعون بالحرمان على من نقض العهد. وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت، فإذا استشاطت قالوا للحالف: هذه النار تهددتك. يخوّفونه بها حتى يحافظ على العهد ولا يحلف كذبًا. فإن كان الحالف مبطلا

نَكَل، وإن كان بريئًا حَلَف. ولهذا سَمَّوْها أيضًا: "نار المهوّل" و"الهُولة". وذُكِر أنهم كانوا لا يعقدون حلفًا إلا عليها .

الرابعة نار الطرد، وكانوا يوقدونها خلف من يمضي ولا يحبون رجوعه (وهى تذكرنا بما يقوله المصريون من أنهم سيكسرون وراء من لا يريدون أن يَرَوْا وجهه كرة أخرى قُلّة ماء). الخامسة نار الحرب، إذ كانوا إذا أرادوا حربًا أو توقعوا جيشًا أوقدوا نارًا على جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم، وهو نوع من أنواع اللغة، بيد أنها لغة بصرية لا صوتية. وقد يكون فى قوله تعالى عن اليهود ومؤامراتهم على الإسلام والمسلمين ومحاولاتهم الدائبة لتأريث الحروب بينهم وبين الأمم الأخرى: "كلّما أوقدوا نارًا للحربِ أطفأها اللهُ" إشارة إلى هذا. السادسة نار الحَرَّتين، وكانت في بلاد عبس، فإذا كان الليلُ أضاءت نار تسطع، أما بالنهار فيُرَى دخان مرتفع، وربما بدر منها عنق فأحرق من مر بها، وقد يكون ظهورها، إن صحّ، راجعا إلى أن الأرض التى تظهر فيها متشبعة بالنفط. السابعة نار السعالي، وتظهر للمتقفّر (أى المنقطع فى القَفْر) فيتبعها فتهوي به الغول على زعمهم. وواضح أن الأمر هنا لا يعدو أن يكون خرافة من خرافاتهم. الثامنة نار الصيد، وهي نار تُوقَد للظباء تغشاها إذا نظرت إليها. التاسعة نار الأسد، وهي نار توقد إذا خافوا الأسد لينفر عنهم، فإن من شأنه النفار عن

النار. وفى الريـف المصـرى كنـا، ونحـن صـغار، نسـمع مـن الفلاحين أن الذئب يخشى النار خشـية شـديدة. ولهـذا كـان إذا تأخر أحدهم فى الحقل ليلا أشعل نـارا وبقـى بجوارهـا حـتى لا يعدو عليه الذئب فيفترسه. العاشرة نار القِرَى، وهـي نـار توقـد ليلاً ليراها الأضياف فيهتدوا إليها.

الحادية عشـرة نـار السـليم، وهـو الملسـوع، وكـانوا يوقدونها للملسوع إذا لُدِغ، وكـذلك المجـروح إذا نـزف دمـه والمضروب بالسياط ومن عضه الكلب، ويسـاهرونهم بهـا كـي لا يناموا فيشتد الأمر بهم فيؤديهم إلى التهلكـة. وإذا كـان الشـىء بالشىء يُذْكَر فلعلّ القراء لم ينسَوْا ما حدث منـذ سـنوات حـين استطاع أحد اليهود فى العاصمة الأردنيـة حقـن خالـد مشـعل أحد أبطال حماس بحقنة سم فى أذنه، فاتصل الملـك حسـين علـى الفور بالمسؤولين الإسرائيليين كى يمـدوه بالتريـاق الـذى يبطـل مفعول هذه الحقنة. وأذكر أن الأطباء المعـالجين شـددوا فى نصـح مشعل بأن يغالب النوم بكل ما عنده من إرادة كـيلا تغفـل عينـه أبدا مهما تكن الظروف إلى أن يصل التريـاق ويـتم حقنـه بـه، وإلا مات. الثانية عشـرة نـار الفـداء، ويقـال فى تفسـيرها إن ملوكهم كانوا إذا أسروا نساء قبيلة من القبائـل خرجـت إلـيهم السادة للفـداء أو الاسـتيهاب، فيكرهـون أن يعرضـوا النسـاء نهارًا فيفتضحْن أو في الظلمة فيَخْفَى قدر مـا يحبسـونه لأنفسـهم

من الصَّفِيّ فيوقدون النار لعرضهن. الثالثة عشرة نار الوَسْم، وهي النار التى يسم بها الرجل العربى إبله. الرابعة عشرة نار الحُبَاحِب، وهي كل نار لا أصل لها، مثل الشرار الذى ينقدح من نعال الدواب... إلخ.

أسواقهم: هى تجمعات تجارية واجتماعية وثقافية كانت تُعْقَد فى أماكن مختلفة من شبه الجزيرة بطريقة دورية، ويأتيها العرب من كل الأرجاء فيتاجرون ويسمعون المواعظ والخطب ويتنافرون ويتفاخرون ويَسْعَوْن فى فكّ أسراهم عند القبائل الأخرى. كما كانوا يتناشدون الشعر ويتحاكم مبدعوه إلى كبارهم كالنابغة الذبياني، الذي كانت تُضْرَب له قبة حمراء من أَدَم فيحكم بين الشعراء وتكون كلمته هى الفاصلة. وكانت القصائد التى تحوز إعجاب هؤلاء المحكَّمين تطير فى أرجاء الجزيرة ويتناشدها العرب فى كل مكان. كما كان للعرب حكّام يرجعون إليهم في أمورهم الأخرى ويتحاكمون أمامهم في منافراتهم ومواريثهم ومياههم ودمائهم لأنه لم يكن لهم دين يرجعون إلى شرائعه، فكانوا يحكّمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسن والمجد والتجربة، ومنهم أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والأقرع بن حابس وعامر بن الظَّرِب وعبد المطلب وأبو طالب وصفوان بن أمية وغيرهم. وكان في نساء العرب أيام الجاهلية أيضا حاكماتٌ اشتهرن بإصابة

الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأي، منهن صُحْر بنت لقمان، وابنة الخس، وجمعة بنت حابس الإيادي، وخصيلة بنت عامر بن الظَّرِب العَدْواني، وحَذَامِ بنت الريان. وكان امتناع الناس في الأشهر الحُرُم عن إيذاء بعضهم بعضًا يساعد إلى حد ما فى الإقبال على هذه الأسواق. والمقصود هنا الأسواق الكبرى، أما الأسواق المحلية الصغرى التى كانت تُعْقَد أسبوعيا فكثيرة جدا، وليست من اهتمامنا فى هذا السياق. وقد عرفت الجزيرة العربية عددًا غير قليل من تلك الأسواق الموسمية، إذ بَلَغت أكثرَ من عشرينَ سُوقًا: من أهمها سوق دُومة الجندل، وكانت تقع عند التقاء عدد من الطرق المهمة بين العراق والشام وجزيرة العرب، وموسمها شهر ربيع الأول إلى نصفه، وموقعها مدينة الجوف الحالية. وكان يعشّر من يحضرونها (أى يأخذ منهم قيمة العُشْر من ربح تجارهم) رؤساءُ آل بدر في دُومة الجندل، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشّرهم بعض رؤساء كلب. وكان العُشْر يؤخذ عَيْنًا أو نقدًا بحسب الثمن، ولما كان النقد قليلا إذ ذاك كان الدفع عينًا هو الغالب في أداء هذه الضريبة. ثم سوق المُشَقّر، والمشقّر حصن بالبحرين قرب مدينة هجر، وتُعْقَد سوقه في جُمَادَى الآخرة. ثم سوق هَجَر من أرض البحرين، وهي سوق التّمر الذي يُضْرَب به المثل فيقال: "كجالب التمر إلى هَجَر"، وهو يساوى المثل

المصرى: "يبيع الماء فى حارة السقائين"، وكانت تعقد في ربيع الآخر، وكان يعشّر مرتاديها المنذرُ بن ساوَى أحد بني عبد الله بن دارم. ثم سوق عُمان، وكانت تقصدها العرب بعد الفراغ من هَجَر، ويقيمون بها حتى آخر جُمَادَى الأولى، وتجتمع فيها تجارة الهند وفارس والحبشة والعرب. ثم سوق حُباشة، وهي سوق تِهامة القديمة، وكانت تُقام في رجب، وقد ورد أن الرسول دخل إليها بتجارة السيدة خديجة رضي الله عنها ذات مرَّة هو وغلامها ميسرة أيام أن كان يشتغل عندها قبل البعثة فربحا ربحا حسنا. ثم سوق صُحَار، وهي مدينة عمانية تقع على البحر، وكانت سوقها تعقد في رجب. ثم سوق الشِّحْر على الساحل الجنوبي بين عدن وعمان، وكانت سوقا لتجارة البحر والبر، وتعقد في منتصف شعبان. ثم سوق عَدَن، وينتقل إليها العرب بعد انتهائهم من سوق الشِّحر، وتُقام فى الأيام العشر الأوائل من رمضان. ثم سوق صنعاء، وتستمر من منتصف رمضان إلى آخره. ثم سوق حضرموت، وكان انعقادها في منتصف ذي القعدة، وربما أقيمت هي وعُكَاظ في يوم واحد، فيتوجّه بعضهم إلى هذه، وبعضهم إلى تلك.

أما أشهر هذه الأسواق على الإطلاق فأربعة هي سوق عكاظ، وكان مكانها بين مكة والطائف، وإن كانت إلى الطائف أقرب، وكانت تستمر عشرين يومًا من أول ذي

القعدة إلى العشرين منه، وهي أشهر أسواق العرب وأعظمها شأنًا. ولم تكن عكاظ سوقا تجارية فحسب، بل كانت أيضا سوقا أدبية يجتمع فيها الشعراء من كل صُقْع، ولهم محكَّمون كالنابغة الذبياني تُضْرَب لهم القباب، وقولهم في الشعر والأدب لا يُرَدّ. كما كانت كذلك مكانًا لأصحاب الدعوات الإصلاحيّة مثل قُسّ بن ساعدة الإيادي، الذي كان يخطب في الناس ويذكّرهم بعظمة الخالق. وورد أنَّ الرسول رأى قُسًّا فى تلك السوق على جمل أحمر. ومن خطبائها المشهورين أيضا سَحْبان وائل، الذي ضُرِب به المثل فقيل: "أخطب من سحبان". ويقال إنه إذا خطب يسيل عرقًا ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى ينتهي من كلامه. وكان الخطباء يخطبون وعليهم العمائم، وبأيديهم المخاصر، ويعتمدون على الأرض بالقِسِيّ ويشيرون بالعصا والقَنَا راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض. وكانت شؤون هذه السوق لقيس بن عَيْلان وثقيف، وهي سوق عامة ليس فيها عشّار، وكانت تحضرها قريش وخزاعة وهوازن وغطفان والأحابيش وطوائف من أحياء العرب يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعمان واليمن وغيرها. ثم هناك سوق مَجَنَّة، وتعقد بأسفل مكة بمَرّ الظهران. وكان الناس يقبلون إليها بعد عكاظ ويقيمون بها الليالي العشر أو العشرين المتبقية من ذي القعدة حتى يَرَوْا

هلال ذي الحجة فينتقلوا إلى ذي المجاز للحج. وهى، وإن كانت أقل شأنًا من عكاظ وذي المجاز، تساويهما في نظر المُحْرِمين من العرب وتتمتع باحترامهم جميعا حتى كانت قريش وغيرها من العرب تقول: "لا تحضروا سوق عكاظ ومجنّة وذي المجاز إلاّ مُحْرِمين بالحج". ثم سوق ذي المجاز، وهي على مسافة ثلاثة أميال من عرفات بناحية جبل كبكب، أو كانت تعقد بمِنًى بين مكة وعرفات، على خلاف فى ذلك، وكانت تنعقد فى ديار هُذَيْل حين يهلّ ذو الحجة فينصرف الناس من سوق مجنَّة إليها، ويقيمون بها حتى اليوم الثامن من ذلك الشهر، وهو يوم التّروية. وهذه السوق تتلو عكاظ في الأهمية، وكانت تؤمها وفود الحجاج من سائر العرب لمَن شهد الأسواق الأخرى أو لم يشهدها. ويجري فيها ما يجري في غيرها من البيع والشراء وتناشُد الأشعار والمفاخرة والمفاداة. ورُوِى أنَّ الرسول عليه السلام كان يؤمّها لبث دعوته إلى الإسلام. وكان للأسواق دور كبير فى التقريب بين قبائل العرب لغةً وأدبا، فضلا عما كانت تحدثه من انتعاش اقتصادى بينهم.

ولعل من المستحسن أن نتريث قليلا عند عكاظ، أهم أسواق العرب كلها، لتقديم صورة لها مفصلة بعض الشيء: لقد كانت تقع في الجنوب الشرقي من مكة، وعلى بعد عشرة أميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلاً من مكة في واد فسيح فيه

نخيل وأعشاب وماء. وتكمن أهميتها في وقوع الحج بعدها مباشرة وفي قربها كذلك من مكة. فمن أراد الحج من العرب سَهُلَ عليه أن يجمع بين الغرض التجاري والاجتماعي بغِشْيانه سوق عكاظ وبين الغرض الديني بالحج. كما كانت تنعقد في شهر من الأشهر الحرم لا تُقْرَع الأسنّة فيه حتى ليلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يزعجه تعظيمًا له. وفي انعقاد السوق في الشهر الحرام مزية واضحة، وهي أن يأمن التجار فيه على أرواحهم وأموالهم. وكان يأتِي إلى عكاظَ قبائل قريش وهَوَازِن وغَطَفان والأحابيش وطوائف من أفناء العرب فتنزل كل قبيلة في مكان خاص بها. وفي التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب مع العباس بن عبد المطلب إلى عكاظ ليرى منازل القبائل فيها، ويروى كذلك أنه عليه السلام جاء كندة حيث ينزلون بعكاظ. كما كان يشترك فيها أهل اليمن والحيرة. ويقول الأزرقي: كانت في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب، إذ كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلة الحسنة والمركوب الفاره، فيقف بها وينادي عليه ليأخذه أعز العرب، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد، فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته. ويروي ابن الأثير أن النعمان بن المنذر لما ملّكه كسرى إبرويز على الحيرة كان يجهز

كل عام لَطِيمة، وهي القافلة من التجارة، لتباع بعكاظ. فترى من هذا أن بلاد العرب جميعها كانت تشترك في هذه السوق.

فإذا كان الحج خرج الناس إلى عكاظ فيصبحون به يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تنعقد فيها أسواقهم ويقوم على كلّ قبيلة أشرافُها وقادتها، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء. فإذا مضت أيام السوق انصرفوا إلى مجنّة فأقاموا بها عَشْرًا يتاجرون، فإذا رَأَوْا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز ثم إلى عرفة. وكانت قريش وغيرها من العرب تقول: لا تحضروا سوق عكاظ والمجنّة وذا المجاز إلا مُحْرِمين بالحج، وكانوا يستعظمون أن يرتكبوا شيئًا من المحارم أو يعتدى بعضهم على بعض في الأشهر الحرم. وكانت لسوق عكاظ عدة وظائف: فهي متجر تُعْرَض فيه السلع على اختلاف أنواعها من السيوف والأَدَم والحرير والوِكَاء والحذاء والبُرُود من العَصْب والوَشْي والسمن، إلى جانب الرقيق وغيره. ولم تكن السلع التي تُعْرَض في تلك السوق مقصورة على منتجات جزيرة العرب وحدها، بل تباع فيها كذلك حاصلات الحيرة وفارس ومصر والشام والعراق. ويروون أنه قبل البعث بخمس سنين حضر السوقَ من نزار واليمن ما لم يَرَوْا أنه حضر مثلُه في سائر السنين، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقد وابتاعوا أمتعة مصر والشام والعراق.

وكانت للسوق، إلى جانب ذلك، وظائف اجتماعية مختلفة: فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ. وكانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر هناك فيقوم رجل فيخطب قائلا: ألا إن فلان بن فلان غدر فاعرفوا وجهه، ولا تصاهروه ولا تجالسوه، ولا تسمعوا منه قولا. فإن أُعْتِب، وإلا أقام شاخصا يشبهه على رمح منصوب فلعنه الناس ورجموه. ومن كان له دَيْن على آخر أَنْظَرَه إلى عكاظ. ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ، ومن ذلك ما ذكره الأصفهانى من أن رجلا من هوازن أُسِر فاستغاث أخوه بقوم فلم يغيثوه، فركب إلى موسم عكاظ وأتى منازل قبيلة مذحج يستصرخهم. وكثيرًا ما تُتَّخذ السوق وسيلة للخِطْبة والزواج، فيروي صاحب "الأغاني" أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطُّفَيْل بموسم عُكَاظ، وقدم أمية بن الأسكر الكناني وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها فخطبها يزيد وعامر، فتردد أبوها ففخر كل منهما بقومه وعدّد فِعَالهم شِعْرًا. ومن كان صعلوكًا فاجرًا خلعته قبيلته فى سوق عكاظ وتبرأت منه ومن تصرفاته، مثلما فعلت خزاعة حين خلعت قيس بن منقذ بسوق عكاظ وأشهدت الناس على ذلك معلنةً أنها لا تطالَب بأبة جريرة يرتكبها ضد أى إنسان. ومن كان داعيًا إلى إصلاح اجتماعي أو ديني وجد فرصته فى عكاظ

حيث تجتمع القبائل من أنحاء الجزيرة كلها. وكثيرًا ما وقف قُسّ بن ساعدة بسوق عكاظ يعظ ويخطب على جملٍ له، فيرغّب ويرهّب ويحذّر وينذر. وعندما بُعِث النبي صلى الله عليه وسلم اتجه إلى دعوة الناس بعكاظ لأنها مَجْمَع القبائل، إذ كانت قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها، ويبعث ملك الحيرة تجارته إليها، ويأتي التجار من مصر والشام والعراق. وكان ذلك الاجتماع أيضا وسيلة من وسائل تفاهم القبائل وتقارب اللهجات وأخذ العرب بعضهم من بعض ما يرون أنه أليق بهم وأنسب لهم. كما كان التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق يُطْلِعون العرب على أشياء من أحوال تلك الأمم الاجتماعية. وفوق هذا كانت عكاظ معرضًا للبلاغة ومدرسة يُلْقَى فيها الشعر والخطب، إذ كانت بها منابر يقوم عليها الخطيب فيعدد مآثره وأيام قومه من عام إلى عام. وكانت كل قبيلة تنزل في مكان خاص بها، ثم تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في الحلقات المختلفة أو عند شجرة أو حول خطيب يخطب على منبر أو في قباب من أَدَم تقام هنا وهناك. وكان أشراف القبائل يتوافَوْن بالأسواق مع التجار لأن الملوك كانوا يخصّون كل شريف بسهم من الأرباح، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده، إلا عكاظ فإنهم يتوافَوْن بها من كل أَوْب.

الفهرس

د. إبراهيم عوض (آداب عين شمس)

دكتوراه من جامعة أوكسفورد ١٩٨٢م

له عدد من المؤلفات النقدية والإسلامية منها:

- معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين
- المتنبى ـ دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- لغة المتنبى ـ دراسة تحليلية
- المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
- المستشرقون والقرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
- الترجمة من الإنجليزية ـ منهج جديد
- عنترة بن شداد ـ قضايا إنسانية وفنية
- النابغة الجعدى وشعره
- من ذخائر المكتبة العربية
- السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- جمال الدين الأفغانى ـ مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
- فصول من النقد القصصى
- سورة طه ـ دراسة لغوية أسلوبية مقارنة
- أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين ـ دراسة نقدية لرواية "العار"
- مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى
- نقد القصة فى مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م
- د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا
- سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم ـ دراسة تحليلية أسلوبية
- ثورة الإسلام ـ أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)
- مع الجاحظ فى رسالة "الرد على النصارى"
- محمد لطفى جمعة ـ قراءة فى فكره الإسلامى
- إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية ـ خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن اسحاق

- سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة
- سورة المائدة - دراسة أسلوبية فقهية مقارنة
- المرايا المشوّهة - دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
- القصاص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه
- فى الشعر الجاهلى - تحليل وتذوق
- فى الشعر الإسلامى والأموى - تحليل وتذوق
- فى الشعر العربى الحديث - تحليل وتذوق
- موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
- أدباء سعوديون
- دراسات فى المسرح
- دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
- د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية - أضاليل وأباطيل
- شعراء عباسيون
- من الطبرى إلى سيد قطب - دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه
- القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية
- اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
- محمد لطفى جمعة وجيمس جويس
- "وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع - قراءة نقدية
- لكن محمدا لا بواكى له - الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون
- مناهج النقد العربى الحديث
- دفاع عن النحو والفصحى - الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
- عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين

- الفرقان الحق: فضيحة العصر – قرآن أمريكي ملفق
- لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه
- التذوق الأدبى
- الروض البهيج في دراسة لامية الخليج
- سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب – فصول مترجمة ومؤلفة
- في الأدب المقارن – مباحث واجتهادات
- مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام
- نظـرة علـى فـن الكـتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري (مترجم عن الفرنسية)
- فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام

رقم الايداع بدار الكتب
٢٠٦١٧ / ٢٠٠٦م